جمعة اللامي

اليشنيّون

اليشنيون / رواية عربية
جمعة اللامي / مؤلف من العراق
الطبعة الأولى، 2015
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع حبيب أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com

مركز الشارقة - ميسان العالميّ للحوار والتنمية الثقافية / هولندا
www.sharjahmissan.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **فلاح السعيدي** / العراق
الصفّ الضوئيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-548-2

رواية
NOVEL

جمعة اللامي

اليشنيّون

حسين عبد اللطيف ، ، رفيقي . .
أهدي إليك كتابي هذا

- قال الحارث : شعرت في بعض أيامي بهَمٍّ ضاق به صدري ، فقصدت مسجد البصرة ، وإذا برَجلٍ ذي ملابس بالية واقف على صخرة عالية وهو يعظ ويُذكِّر ثم قال : أما أنتم يا أهل البصرة فإنكم من خير الناس . وأما أنا فأحدثكم عن نفسي : أنا أبو زيد صاحب الخدع والضلالات والأكاذيب والخرافات ، كم من المنكر ارتكبت ، ومن المعاصي أتيت ، ولكن أشهدكم أني أستغفر الله من ذنوبي فأدعو الله أن يقبل توبتي ويغفر ذنوبي . فكلهم بسط يديه ودعا له وقدم له شيئاً من العطاء فقبله منهم وشكر لهم ومضى

المقامة البَصْريَّة ـ مقامات الحريري

- حُكي أنه كان في زمن هارون قد حصل للناس غلاءُ سعر ، وضيق حال حتى اشتدّ الكربُ على الناس اشتداداً ، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء ، وأمر بكسر آلات الطرب ، ففي بعض الأيام رُؤي عبد يصفق ويرقص ويغني ، فحُمل إلى الخليفة هارون الرشيد ، فسأله عن فعل ذلك من دون الناس ، فقال : إن سيدي عنده خزانة من برّ ، وأنا متوكلٌ عليه أن يطعمني منها ولهذا أنا إذاً لا أبالي فأنا أرقص وأفرح ، فعند ذلك قال الخليفة : إذا كان هذا قد توكل على مخلوق منه ، فالتوكل إلى الله أولى ، فسلم للناس أموالهم ، وأمرهم بالتوكل على الله تعالى .

(الرشيد والأموي ـ قصص العرب ـ الجزء الأول)

- كان هناك فارس فاضل شريف . ومنذ امتطاء صهوات جياده في الحملات الحربية كان ولوعاً بالفروسية ، معروفاً بالإخلاص والشرف والكرم وآداب اللياقة ، وكان مقداماً كل الإقدام في حروب مليكه ، يخوض غمارها متفوقاً على كل فارس آخر ، وذلك في دار المسيحية وفي دار الكفر ، وكان دائماً مكرماً لصفاته النبيلة .

(حكايات كنتربري - تشوسر)

- لم يَعدْ هناك أملٌ في نجاته تلك المرّة . كانت النوبة الأخيرة .

(الأخوات -أهالي دبلن- جويس)

إشارة

يجد القارىء الكريم في هذا الكتاب ، تفاعلاً أقصى مع مرحلة التأسيس في تجربتي الأدبية ، التي ضمنتها نصوصاً شعرية ، ومقتبسات سردية ، ولوحات تشكيلية وصوراً فوتوغرافية لشعراء وفنانين ، ومنحوتات لكبار النحاتين ، وبعض صور الآلهة والقديسين والملائكة والأبالسة والشياطين في الحضارات الإنسانية والديانات البشرية . ولقد جعلت بعضها بين قوسين ، وتركت بعضها الآخر لفطنة القارىء .

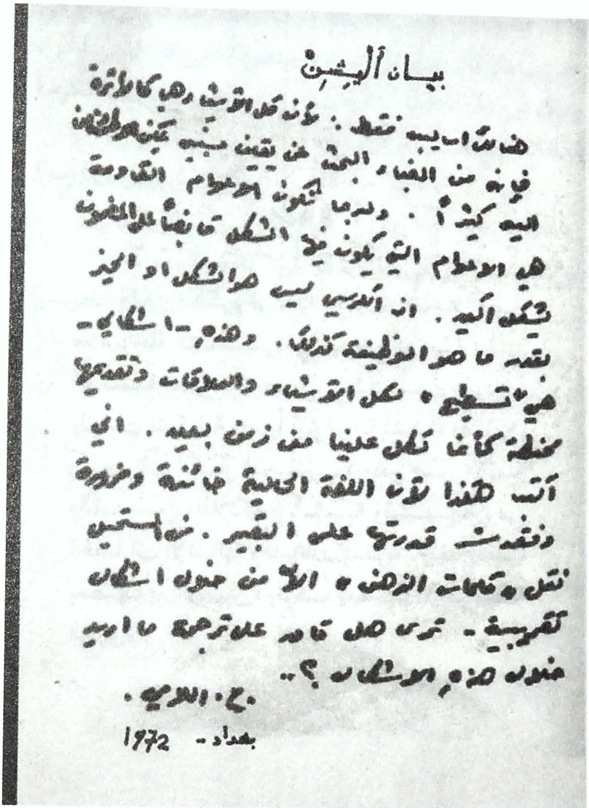

بيان البيضوي

هذه الأشياء نحسها : كونها تمثل الوجود وهي كالأثر
فوق هذا الفضاء . البحث عن حقيقة حسية تكمن وراء الشكل
الذي كنا نلمسه . ولربما تكون الأحلام الكامنة
هي الأحلام التي يكونها الشكل من خلال المخزونة
تشكيله . إن الحرية ليست هي التشكيل أو الخيال
بقدر ما هي المرونة كذلك . وهذه الأشكال
هي تسطيح لكل الأشياء والعلاقات وتقديمها
بصيغة كأنها تطل علينا من زمن بعيد . إني
أتصور هذا لأن اللغة الحالية خائنة وضرورة
وتغييرها قدرتها على التعبير . من المستحيل
نقل مكونات الذهن إلا من خلال الأشكال
التعبيرية . ترى هل قادر على ترجمة ما وراء
هذه الأشكال ؟..

ج . الألاعيبي .

بغداد - 1972

حفريات شخصية
فليفلة والسروط: قصة حب ميسانيّة
(برواية سِلم بن يوسف ـ ١)

أنا سمراء وجَميلةٌ ،
يا بنات ميسان ،
لا تنظرنَ إليَّ لكوني سَمراء ،
لأنَّ الشمسَ قد لوَّحتني .
قبّلني حبيبي عند جبهتي ،
ولم يدعني إلى كوخه القصبي .
(نشيد أنشاد الأناشيد ـ بتصرف)

(١)

«حبل سرّة وليدك مدفون بمقبرة الرضعان في إيشان السروط» .

هكذا قالت العابدة أُمّ المُشُوفة (التي نسي الناس اسمها الأول) لوالدتي ، بعدما دارت بي على دكاكين الحجّامين المعروفين والمضمدين الذين تحولوا إلى أطباء بطريقة غامضة لكنها كانت مقبولة في مدينة العمارة . ولم يفلح أحد من هؤلاء في العثور على دواء يشفيني من ذلك الألم القاسي الذي كاد أن يمزق معدتي وأمعائي .

كان عمري أربع سنوات .

وأخيراً لم يبقَ أمام والدتي غير الطبيب اليهودي الأشهر في المدينة ، أي الحاج داود كبّايَه ، حسب نطق أبناء الريف لاسمه ، ليكون قوله الفصل والفيصل في هذه المصيبة التي حلت بولدها الوحيد الذي رزقت به بعد ثلاثة أبطنة من بنات ولدتهن ميتات .

«دواء ولدك عند عايشة العابدة . مرّي عليها قبل حلول ليل يوم الخميس ، والخير من الله» .

«إن شاء الله يا حجّي» . قالت والدتي للطبيب ، وقدمت له عكّة من سمن محلّي مخصوص .

«هذه للعيد» . قالت والدتي .

«النبي قبل الهدية يا أم جمعة» ، ثم ودعنا حتى باب دارته العتيقة في زقاق التوراة المتفرع من شارع المعارف الذي يفضي إلى الكنيس اليهودي ، وكنيسة يقول الناس إنها أقدم أثر مسيحي في الجنوب ، وبالقرب منها يوجد المسجد الكبير في سوق لا يبعد كثيراً عن حسينية السيد مرتضى القزويني . أما المندي الصابئي فيقع على الجانب الأيمن من نهر دجلة

كان ذلك قبل ثلاث سنوات على (الفرهود اليهودي) في ذكرى (عيد الشفوعوت) ، حيث كان الطبيب كبّاي يستقبل زواره من أبناء القبائل الميسانية والجنوبية في دارته الواسعة ، مع خرافهم ونزاعاتهم العشائرية في أحيان كثيرة ، أو في أيام مواسم حجهم المتواصل إلى المشاهد المقدسة في بغداد وكربلاء والنجف وسامراء .

ولم يكن أحد في مدينة العمارة يستغرب لقب : «الحجّي» ، الذي يبدو أن الطبيب كباي كان سعيداً به . كما أن زواره من قبائل بني لام والبومحمد والسواعد والسودان والبيضان والبودرّاي وكعب

والسرّاي ، وحتى عوائل النيادة المهاجرين إلى طرفنا من نجد ، كانوا يقولون لبعضهم البعض ، إن هذا الطبيب يده مبروكة ، وإن غيابه عن مدينة العمارة في أوقات فجائية في فصلي الشتاء والربيع ، إنما هو فرصة ، يمضيها داود كبّاي الذي يعود أصله إلى النبي العُزَير ، في مجاورة مشهد «غريب طوس» في مدينة مشهد بخراسان .

قال الوجيه الحاج عباس المحمداوي لجلاس حمام عجيل الخشيمي بمحلة المحمودية ، ذات ليلة شتوية بعد أن أنهى حمامه الأسبوعي : «أنا شفته بعيني هاتين» ، ثم أخذ يدير بصره في وجوه رواد الحمام «وأتمنى من الله أن يأمر النمل الأحمر ليأكل عيوني إذا لم أقل غير الحق» .

وأثنى الزاير علي بن مريود السوداني على كلام صاحبه المحمداوي ، عندما كان عائدا من حسينية السيد مرتضى القزويني ، وهو يتوقف قرب المكتبة العصرية بشارع المعارف : «إي ، ججي داود خوش آدمي» .

وعندما غاب الطبيب كبّايه عن مدينتنا فترة طويلة في سنة ١٩٦٠ ، واختار منزلا في عرصة المأمون بكرخ بغداد ، فوجىء بزواره من قبائل العمارة يرابطون في حديقته المنزلية ذات ليلة صيفية . فلم يملك سوى القول : هلا بالخيّرين أولاد الخيّرين .

(٢)

لن أنسى هذه الكلمات الثلاث : «عِشْق فليفلة للسروط» ، التي صارت مثلا . .

كان بنو لام يعيدون تداول حكاية الفتاة فليفلة مع حبيبها

السروط في مجالسهم الخاصة في بادية الطيب على الحدود العراقية مع إيران ، في فصل الربيع عندما يجلون مع إبلهم وطرشهم في تلك البادية التي تتحول إلى سجادة باذخة الخيرات والألوان في هذا الفصل ، أو في خيامهم المنسوجة من أوبار إبلهم ، أو في فصل الصيف ، على جانبي نهر دجلة ابتداء من قضاء علي الغربي ، مرورا بعلي الشرقي والكميت ، وحتى المركب الغرقان شمالي مدينة العمارة .

وتحولت الحكاية العابرة التي رواها رجل مجهول ، إلى أسطورة نتداولها جيلا بعد جيل ، فأنا سمعتها من والدي الذي سمع بها من جدي درويش الراشد ، الذي هو بدوره حفظها ظهرا عن قلب ، عن جده عون ، ثم أخذ الرواة الشفاهيون اللاميون يغالون كثيرا في

نسبة هذه الحكاية إلى قبيلتهم دون غيرها من القبائل العربية المتحالفة مع أجدادهم على رصافة النهر وكرخه.

(٣)

أحبت شابة لامية اسمها : فليفلة ، شابا آخر من غير أبناء قبيلتها اسمه : السروط ، حتى دنفت به ، وجنّ هو بها ، ثم إنهما اتفقا على الزواج ، وأشهدا على ذلك نهر دجلة ، عندما كان ينحرف على شكل قوس كبير عند مضارب بني لام قرب مدينة علي الغربي .

قال السروط : «اشهد يا دجلة ، يا واهب الخير والبركة ، أنا السروط بن غريب المتروك ، أشهد بين يدي الله وأمامك أن فليفلة رفيقة حياتي حتى موتي ، وإن سعادتي من سعادتها معي أو مع غيري» .

وقالت فليفلة : «والله ، واللّي سمّى نفسه الله ، الموت مصيري إذا لم أكن حليلتك على شرع الله ورسوله ومحبة أهل بيته» . واختنقت بعبرتها ثم قالت للسروط : «حتى لو حفر دجلة قبري في أعماقه» ومدت يدها اليمنى إلى حزامه وسحبت خنجره من عند وسطه ، وجزّت خصلة من شعرها وقالت لحبيبها : «هذه شهادتي . خلها معك تحت وسادتك حين تنام ، وحول عضدك اليسرى عندما تستيقظ» .

وهكذا صنع بنولام ، من بين أساطيرهم الأخرى ، أسطورة جديدة خاصة بهم .

(٤)

«فليفلة عشقت السروط» .

وأكملت الجدة حبشة بنت محمد الشاغور ، حديثها مع صاحبتها الماريّة بنت محسن المذكور : «الله يشهد هذا هو العيب بعينه» بينما كانتا في الطريق إلى السوق الكبير على الجانب الأيسر من دجلة ، الذي يشرف عليه ضريح الإمام علي الغربي ، حفيد صاحب الزنج الإمام زيد بن علي (الشهيد) ، بقبته الزرقاء التي يراها العابرون بسياراتهم أو على ظهران ركائبهم ، مسافرين إلى مدينة العمارة أو عائدين منها إلى الكوت وبغداد والنجف وكربلاء وسامراء .

ردت الجدة حبشة : «هبهات . . بنات حافظ من حق وليدات الله . . بَسْ» .

«صَحْ لسانك» . قالت الجدة الماريّة .

وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ بني لام التي يتسرب فيها خبر خطير على هذا المستوى ، ويكون حديثا مهموسا حتى بين رجال القبيلة ونسائها ، فقد تعودت هذه القبيلة الطائية القحطانية على القول المأثور «لسانك حصانك ، إن صنته صانك» . لكن هذا السكوت المبرمج والمسكوت عنه ، انكسر ذات يوم عندما همس أحد الشباب من أقرباء فليفلة في أذن الشيخ ماجد الخشان : «عمي ، فليفلة عاشقة السروط بن غريب المتروك» .

صدرت من الشيخ ماجد صيحة فزع كتمها في صدره على الفور ، ثم عاد إلى الحديث بعد برهة من التفكير : «أسكت يا غازي ، يجب ألاّ أن نفضح أنفسنا» .

«هذا رأيك يا عم» ، قال غازي الصقر ، كاتما غيظه .

«نعم ، يحلها الحلاّل» .

وعندما روى غازي الصقر حديث الشيخ الخشان إلى نفر من أقرب المقربين إليه وهم في رحلة زيارة إلى الإمام سيد محمد سبع الدجيل ، علق أحدهم : «والله عيب يا وليدات الله .نكّست فليفلة عُقلنا في رؤوسنا» .

ولم يقبل عقلاء بني لام ومعمروها بهذا الرأي ، بل إنهم عدّوه العار السافر بعينه ، وقال ماجد الخشان : «ما هكذا تعودنا ربط إبلنا» . ثم سكت لينهي جَدَلاً يراه غير مقبول .

استمع وجهاء القبيلة وشبابها إلى كلمات شيخهم الذي يُعرف بحكيم الشيوخ والشباب باهتمام وتقدير ، إلاّ بعض الشباب الذين عُرفوا بالتمرد فلم يستطيعوا كظم غضبهم ، بعد ذلك اللقاء الذي كان ينعقد تلقائيا في يوم الجمعة من كل أسبوع .

وكان أكثر الشباب غضبا وثورة هو غازي الصقر ، نجل تاجر السمك المعروف ، الذي وضع عينيه في عيني الشيخ : «سنلبس شيلات جداتنا يا عم» .

وقع قول ابن صقر وقوع الصاعقة على رؤوس المنتدين ، لأن مثل هذه اللغة لم تكن معروفة أبدا عند بني لام . ومع ذلك استمر الشيخ ماجد الخشان في تفكيره العميق وتماسكه المتين ، وخاطب ابن الصقر مباشرة : «اسمع يا ابني يا غازي . . .» لا تَكُنْ عَجولاً مُتسرّعاً ، فإنكَ إذْ ذاك تُشبهُ شجرةَ اللّوز التي تزهِرُ قبلَ كلّ الأشجار ، ويُؤكلُ ثَمرها بعد غيرها ، بل كُنْ سَوّياً عاقلاً كشجرةِ التُوت التي تُزهرُ آخر الأشجار ، ولكن ثمرها يَسبقُ كلّ الثمار» .

أنصت الحاضرون إلى مقولة زعيمهم ، ربما لأن فيها لغزاً لم يعرفوا حله في ذلك اللقاء ، لا سيما وأنهم قوم لا يشتغلون في

زراعة البساتين والخضر ، بل إنهم يعتبرون هذه الأعمال ومثيلاتها مجلبة للعار ، ولا يمتهنها إلا الذين يتخذون من المستنقعات والحمادات ملاذات لهم . أما هم ، وليدات الله كما يصفون أنفسهم ، فشغلهم الشاغل تربية الإبل والخيل والبقر والغزو .

استغل الشيخ الحكيم ، تفكّر الجميع في مقولته تلك التي استلها من كتيب مخصوص لديه بلسان رجل من نينوى اسمه الحكيم أحيقار ، ليواصل كلامه «في العجلة الندامة» الذي أكمله ربيبه زيد بن قمندار : «وفي التأني السلامة ، كما قالت العرب في أمثالهم الصحيحة» .

«يا عم . . أُحكم بيننا ، وقل لنا ما يجب فعله» .

«دعوا الأمر لنا» ، قال الشيخ الحكيم .

اختلى كبار القوم في مختصر كبيرهم ، تاركين الشباب في رَبعّة بيت شيخهم . وما هي إلا ساعة حتى برز إليهم حكيم بني لام المجرب . . قائلا : «فليفلة صارت في عقال ابن عمها فيصل الشنيار» .

وكان هذا الرأي مفاجأة للجميع ، فأخذوا يديرون أبصارهم في وجوه بعضهم البعض .

(٥)

استقبل الفتى فيصل الشنيار اختياره زوجاً لجميلة الجميلات ، بسرور بالغ وفرحة عظيمة ، واعتبره تشريفا له وتقديرا من القبيلة . واستمع إلى الحاج السيد كرم أبو دنينة الحسيني ، إمام صلواتهم في ايام الأعياد وذكرى رؤساء الأئمة ، يقول له : «هذه منزلة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم» ، لكن سؤالا موسوساً استمر يفحُّ في أذنه بين

ساعة وأخرى : «لماذا وقع عليَّ اختيار الشيخَ . . . بَسّ؟» .

والفتيان الأغرار(مثل فيصل الذي لم يتعدّ السادسة عشرة) غالبا ما ينظرون إلى حداثة نعمة تهبط عليهم فجأة ، بذهن مشوش وبداهة ناقصة . أما الذين عركتهم الحياة والتجاريب ، فقد رأوا في ما قارفه ماجد الخشان ، خطة لا يبنيها إلا عقل داهية ، لأنها تضع فليفلة وأسرتها أمام قرار لا يمكن رفضه ، لأن الرفض يعني أن جميلة الجميلات متورطة في عمل غير محمود مع ابن غريب المتروك . وهناك من تمعّن كثيرا في هذا الاختيار ، فوجده يضع فليفلة في قبر موحش وحالة من الصمت الأبيد ، فهي الشاعرة والعاقلة والجميلة التي تحترم تقاليد أهلها إلى حد القداسة ، لا يمكن أن تطلق حتى إشارة اعتراض مهموسة على القرار الذي اجترحه الخشان .

ثم كان ما حدث على جانبي نهر دجلة عصر يوم الحادي والعشرين من شهر آذار ، وهو يتفعّى عند جنوب مدينة عليّ الغربي .

***

قالت فليفلة لوالدتها شُوفي يُمَّه . أريد عِرْسٌ ما شافته بِنْتْ قَبْلِيْ»

«من عيني يا بعد عين أُمّكْ» . ردت أمها وهي تتصور عرس ابنتها المقبل .

«أريدْ أزِفْ روحي بروحي» .

وأخذت فليفلة تشرح لأمها تفصيلات حفلها الموعود ، كلمة كلمة ، و خطوة بعد خطوة . وكانت أمها فَذْعَة بنت غِضَب منبهرة من حديث ابنتها .

«فدى عينيك . هذا ما يصير إلا بالجنة»

«بعون الله»

وكان جمال فليفلة ، قواماً وكلاماً ، حديث الركبان من العربان والفرنجة والعرب والكرد والتركمان ، الذين مروا بالعراق وميسان ، لا سيما في أثناء ما كانت تظهر على الناس في الأيام التي يغادرون فيها خيامهم إلى بادية الطيب ، ممتشقة سيفا عربيا ، وفي يسراها درقة من حديد . ولقد تيسر لي أن أعثر على نصوص عديدة تتفنن في وصفها ، لكن الأجمل هو الذي قاله فيها رجل جوال بين قصبات قريات الجنوب ، وجدته في مخطوط قديم :

«هي شابة ممتلئة الجسم ، وقوام جميل ، وخدّان مُفعمان بالحيوية ، وعينان مُشرقتَان . يتوافّر فيها ، إلى جانب جمالها الأخّاذ ، سمو الروح ، مع رهافة الطبع ، وقوة العاطفة ، والحنو على الشيوخ والأطفال والنساء . في فمها يكمن سرُّ الحياة ، ومن أعطافها يعبق العطر والشذا . يكتمل بحضورها السرور ، ويشيع مع ابتسامتها الأمن والطمأنينة في النفوس . وغالبا ما نشاهدها وهي تجوب الحقول بخفّة ورشاقة ، فتتفجّر الينابيع خلفها بالماء والعطاء ، وتُزهر الأرض بالسنابل والنماء» . (١)

***

يزور مدينتنا وريفنا اليوم الحادي والعشرون من شهر آذار في كل سنة ، كما لو أنه لم يغادر منازلنا ابداً . فالعشب الذي كنا قد نثرناه على حيطان المنازل ، تلقفته الجدران مع المطر ، ليتحول بعد حين إلى حدائق معلقة تحت السماء الأولى ، مثل أبسطة من الزهور

---

(١) هذا وصف عشتار السومرية والبابلية ، ورديفاتها في أثينا وروما وغيرهما .

البيض والسود والحمر والصفر ، تتناسل في لحن متصل ، يصل إلى ضفتي نهر دجلة الذي يبلغ أوج جبروته في ذلك اليوم .

وفي مثل هذا اليوم أيضاً ، يعود كثير من الرجال من سفراتهم الخاصة إلى المشاهد المقدسة مشياً على الأقدام ، بينما يصل أبناء العوائل الذين يذهبون إلى المدن القصية ، لبيع منتجات حقولهم وما تدره عليهم أبقارهم من خير عميم .

ألف أهل علي الغربي هذا الاحتفال الطبيعي وتآلفوا معه . أما الزوار الأجانب ، لا سيما من أبناء العوائل اليهودية في الموصل وكركوك وبغداد وزملائهم من عوائل الجالية البريطانية ، فيصلون من تلك المدن قاصدين مدينة القرنة حيث يوجد مقام نبي الله العُزَيز ، وهم يرتدون ملابسهم الإفرنجية الجميلة ، على امتداد خيط طويل من السيارات الألمانية والإنجليزية .

وكان عصر ذلك اليوم في مدينة علي الغربي ، قد أكمل زينته . بوصول السيد محمد خطيب المنبر الحسيني ومغني الريف الميساني ومخترع «طور المِحْمّداوي» الذي ارتبط بهذا الرجل الوقور الذي لم يُشاهد إلا مرتديا غترته الخضراء التي تشير إلى نسبه الحسيني .

وعادة فإن السيد محمد لا يفترق عن قرينه غرير أبو الخشب الذي يُحكى أنه لا يطيب له الغناء الا بعد أن يصرع ثورا ثليثيّاً ، ويكرع سطلا من لبن بقرة ماجد الخشان ، وكان السيد وصاحبه قد افترشا بساطا من الرمل تمَّ تأثيثه بعناية على العبّارة الوحيدة في المدينة ، مثل جفرة الزورخانة التي يشتهر بترتيبها أبناء الكرد الفيلية ، جيران بني لام ، على أنغام موسيقا إيرانية مشهورة .

وهكذا تجمع أهل العريس فيصل الشنيار وأقاربه وأصحابه على

الجانب الأيسر من دجلة ، الذي يجاوره الطريق الدولي الذي يربط بغداد بالجنوب الميساني ، بينما احتشد بنو لام على الجانب الأيمن من النهر الثائر ، وهم في كامل عدتهم الحربية : سيوفهم ورماحهم وعدّاراتهم وإبلهم وجيادهم المطهمة .

وفي وسط النهر ، توقفت العبارة ، وجلس في وسطها السيد محمد بوقاره المعروف ، وبجانبه رفيقه غرير أبو الخشب ، الذي وفد إلى العرس ، من أقصى أذناب قريتي «السودة» و«البيضة» في عمق أعماق هور العمارة .

وعلى جانبي النهر ، كان الزوار الأجانب يتابعون بغبطة هذا الاحتفال المائي غير المعروف في ديارهم ، ويستعجلون بعض حاملي آلات التصوير التقليدية ، لتسجيل هذا اللحظات التي يعتبرونها فريدة وربما لا تتكرر .

***

وقبل ثلاث ساعات على مغيب الشمس ، أشرقت شمس جديدة على ميسان . هكذا قال السفير البريطاني بعد ذلك ، عندما ظهرت العروس فليفلة في هيئة لم تكن معروفة عند بني لام . كانت ترتدي دشداشة سوداء ، على ثوب أحمر ، فوقهما عباءتها اللامية المشهورة ، بعد أن دهنت وجهها بمسحوق من الأثمد والغرين ، فبانت مثل شمس زرقاء ، ينبعث منها شعاع أحمر مصدره النجمة الذهبية التي على وردة أنفها اليسرى .

كان ذلك جمالا مرعبا ، كما وصفه السفير البريطاني في مذكراته ، وكان الأكثر جاذبية وتعبيرا في حضور فليفلة هذا ، وجود علم بني لام الذي يتشكل من قماش مستطيل أبيض اللون ، تتوسطه دَلّة للقهوة ، ترتكز على سيف عربي .

كانت العروس تمسك بالراية من منتصف سارية من خيرزان هندي . وبين الفينة و الفينة كانت فليفلة تهز الراية ، وكأنها تستدعي قدرا غامضا للمنازلة .

وفي الجانب الآخر ، كان العريس فيصل الشنيار ، يتبختر بين أهله وصحبه ، وهو لا يصدق أنه موجود في هذا الحفل المهيب .

وفي طرف قصي من هذا المشهد ، كان السروط يقف متنكرا في زي أحد رعاة بني لام .

***

وكان دجلة غاضباً في ذلك اليوم ، ثم تحول غضبه إلى ثورة عارمة عندما انتهى القوم من صلاة العصر . توجس الشيخ ماجد خيفة ، وعادت إلى ذاكرته أسطورة «عبيد الشط» الذي يعيش تحت جسر نهر الكحلاء . لكن غناء السيد محمد ، الذي يَفْطر القلب ويُفطّر الصايم في رمضان ، كما يقول أهل العمارة ، جعل الشيخ ماجد والناس لا يعيرون بالاً للنهر الهائج ، حتى إن آل الشنيار لم يلاحظوا وجود ذلك الرجل الغريب الذي اخترق صفوفهم بِمَزْوِيَتِه الوبريّة الصفراء ونقابه الأسود .

وحين أخذ غرير يَجْعَرْ ، بصوته الخشن الذي يشبه خوار ثور في أوج هياجه الجنسي ، كما وصفه أهل العمارة ، ثم هزه الطرب فنسي نفسه ومزق دشداشته ورمى بعقاله وغترته إلى الأرض ، ثم أخذ يضرب رأسه الأصلع بالطبل ، خشبة بعد خشبة حتى تكسرت جميعها ، والناس حول المغنين في هياج شامل كأنهم سكارى وما هم بسكارى ، فاختلط حابلهم بنابلهم ، راقصين شيبا وشبانا . وهكذا ذهبت ثورة النهر أدراج النسيان .

كان فيصل الشنيار في ذروة بهجته . ولذلك لم يلحظ وجود

الرجل الملثم الذي وقف بجانبه . أما فليفلة التي كانت تهز راية قومها بيمناها ، وتمسك بيسراها درعا لاميّاً ورثته عن أجدادها ، فكانت ترسل عينين شهلاوين مثل أُنثى صقر عندما تكون قد أطبقت على طريدتها توّا .

توقفت عينا فليفلة عدة لحظات تحدقان بقامة عريسها المنبهر ، وحدقت كذلك وبإمعان في صاحب تلك القامة المديدة ، بقناعه الأسود ، الذي يقف بجانب عريسها . كانت مشاعرها ، الآونة ، مزيجا من الغبطة والحسرة والحيرة والفزع ، فقد كانت ترى في النهر الثائر ما يوجب أن تكون حذرة ويقظة ، عندما تقود قاربها الذي يشبه هلالا في يومه الثالث ، لتصل إلى نقطة الصفر في وسط النهر ، بجوار العبّارة ، للقاء عريسها الذي سيتقدم بقاربه وحيدا نحوها من الجهة اليسرى للنهر .

وكانت فليفلة قد أخبرت أمها حين تكلمت معها عن اختيارها شكل زفافها ، أنها ستقود قاربها بنفسها ، حتى يصل إليها عريسها عند نقطة وسط النهر أيضا ، وهناك ستمد يدها إلى يده وتسحبه إلى قاربها . وهذا ما حدث بعد ذلك تماما ، وسط فرح غامر ارتقى إلى حد الفوضى من قبل جمهور الصوبين .

كان المشهد مرعبا في جماله وفرادته ، حين تقدمت فليفلة نحو العبّارة ، بينما كان فيصل يتقدم أيضا نحوها . وكان صوت غرير حين علا جميلاً وأخاذاً ، معاتبا الله على السماح للأقدار المتوحشة التي تسلب العشاق حقهم في الحب والحياة . لم يسمع الحضور صوت المغني الذي بان الآن أكثر حزنا ، لأن ثورة النهر المجنون كانت تتصاعد مسعورة لتصل إلى ذروة لم تكن مسبوقة من قبل ، لا سيما حين مدت العروس يدها اليمنى التي تمسك براية قومها ، نحو

عريسها الذي كان قاربه يقاتل النهر متجها إليها . وكانت النساء يطلقن الزغاريد والأدعية بسلامة العروسين ، بينما الرجال على الصوب الأيسر وأخيه الأيمن ، انهمكوا بإطلاق الأعيرة النارية ، أو المبارزة بسيوفهم العربية الشهيرة .

كان غرين النهر يهدر بقوة مجنونة ، جارفا معه أشجار النخيل والغرب والحيوانات النافقة وقطعان الماشية الحية . وأخبرني جمعة اللامي في ليلة من تلك الهذيان الذي استمر ست ليال ، أن جده راشد العون شاهد فحل جاموس أسود الشعر يقود قطيعا من هذه الجاموسات المعمرة ذات القرون الطويلة ، العائدة إلى قبيلة المعدان التي تجاور بني لام ، في قتال شرس مع المياه الهائجة ، للنجاة بنفسه وقطيعه ، ويتوجه نحو العبّارة . لكن الماء الثائر كان أقوى منه ، وألقى به قبالة العروسين اللذين التقيا كما أرادت فليفلة .

***

فجأة توقفت الزغاريد ، ونكست السيوف والبنادق هاماتها عندما اصطدم قطيع الجاموس المرتعب بقارب العروسين . ألقت فليفلة بجسدها إلى الماء ، وتبعها عريسها يريد إنقاذها ، غير أن النهر كان أقوى منهما وأكثر سرعة ، فغطس الزوجان متماسكي الأيدي في يمٍّ لجب هدّار ، بينما أخذ الفزع والخوف الناس ، ولم يجدوا أمامهم سبيلا سوى الدعاء للعروسين .

وحده الرجل الملثم ألقى بنفسه إلى النهر ، ليواجه الماء الثائر وقطيع الجاموس المرتعب ، وأخذ يقاتل النهر ، حتى وصل إلى نقطة وجود العروسين اللذين كانا يمسكان بأيدي بعضهما البعض .

عرفت فليفلة أن الرجل الملثم هو السروط بن غريب المتروك ، فخشيت أن يقتله الموج الهادر . وكانت لا تزال تمسك باليد اليمنى

لعريسها ، بينما راية بني لام مثل قارب متهالك يغطس إلى قرارة النهر . كانت تعرف أن فيصل الشنيار صائر إلى موت محتم ، وأن السروط سيلحق به ، فتصرفت على الفور على طريقة بنات قبيلتها عندما يواجهن الأخطار ، ويدعو داعي القوم إلى التضحية .

اتخذت فليفلة موقعها بين عريسها والسروط ، ثم نادت عليهما : «يا اخوة سُعْدي . . كُضُّوا قصايبي» ، وأخذت تقاوم عاصفة النهر القاتل . لكن قطيع الجاموس الهائج كسر وحدة هذا اللقاء الفريد عندما دفع بهم عميقا نحو لجة مياه النهر الكاسرة بسرعة جنونية .

نزل عدد من الرجال إلى النهر لإنقاذهم . لكن الذي حدث أن الماء ابتلعهم ، ودفع بأجسادهم إلى فم الجني المتربص . ومنذ ذلك اليوم أخذ أهل مدينة العمارة يرمون أكياسا من التمر ، تحت جسر نهر الكحلاء . لذلك المدعو «عبيد الشط» ، لكي لا يبتلع الأولاد الذين يسبحون صيفاً في مياه صُفْرٍ خابطة .

(٦)

كان جمعة اللامي يهذي طوال ست ليال شبه غائب عن الوعي ، ممدداً على بطانية سوداء ، في الزنزانة المخصصة لسجناء الأحكام الثقيلة في القلعة الحجرية في سجن نقرة السلمان الصحراوي . كان يتحدث بلغة لم أستطع متابعتها بدقة ، ويطلق خطابا ليس لي قبل به . أما في النهارات الستة ، فكان يبدو لي مثل رجل فقد وعيه تماما .

وكان ذلك قد حدث في الحادي والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٦٤ ، عندما جاء به عناصر إسطبلات «الحرس الملكي» ببغداد ،

الذي تحول إلى معتقل سياسي ، باسم (معتقل الخيالة) في ٨ شباط ١٩٦٣ ، من مكتب التحقيق الذي يشرف عليه «الحرس القومي» . كان مضرحاً بدمائه مثل ديك تم ذبحه من قبل رجل غشيم بسكين عمياء ، كما كتب في إحدى قصصه في يوم لاحق .

وكنت أستمع إليه مأخوذا بأسلوبه في إنشاد حكاية فليفلة والسروط ، فهو يذكرني بطريقة أولئك المنشدين الغامضين الذين كانوا يجوبون قرانا في أيام أشهر رجب وشعبان ورمضان ومحرم ، ذلك الإنشاد الذي سيجعل من أسلوب جمعة اللامي في الحديث إلى نفسه ، لا سيما بعد أن يغلبه الوجد بعيدا عن الناس في بستان «بيت الزبير» بمدينة العمارة ، وبعد ذلك في بغداد عند الضفة اليسرى من دجلة ، أو تحت شاحنة مرت بحي الجوادر بمدينة الثورة ، عندما كان يتلو في المصحف الشريف ، سورتي مريم وآل عمران تحت سعفات نخلة الله مرات ومرات .

أنا أعتذر أمامكم وأنا أقدم لكم صورة من صور رفيقي العزيز الذي خلدني في قصته «السيد ـ أشواق سلم بن يوسف» التي تتحدث عن الحب . حب الخير والجمال والعدالة والسلام ، المتمثلة في عودة البشرية إلى عذريتها الأولى ، حين ينقضي الظلم والقهر ويعم السلام ، ويتآخى الذئب والحمل .

وأعترف بينكم أن هذه اللغة التي أكتب بها الآن ليست لغة اللامي ، وأن هذا الأسلوب غير ما كان يستخدمه اللامي في قصصه ورواياته .

إنه أسلوبي . والرجل أسلوبه ، كما أخبرني اللامي ذات يوم .

ولكل مجتهد نصيب .

(سِلْمُ بن يوسف)

تجاريب سردية

مقال
في السرد

صحّ عند الناس أني عــــاشقٌ
غـيـر أن لم يعلمـوا عـشـقـي لمن
(أبوبكر الشبلي)

القصة والقصيدة والصورة ، بل حتى المقالة ، هذه التي تقرأونها اليوم ، وتلك التي قرأتموها في يوم آخر ، تنادي على مُعبرّها ، كما ينادي الحلم على مُعبرّه أيضاً .

في الكتابة ، في أثناء عملية الكتابة ، ثمة حلم إنْ استطاع كاتب ماهر الإمساك به ، ثم تركه يسير على هواه ، أي على قوانينه الداخلية الخاصة به ، أي حسب حريته ، صار هو ، أي الكاتب الماهر ، موضوعاً لحلمه ، ومُعبّراً عنه تماماً .

يصف أبو بكر الشبلي ، حالة حبه التي هي حلم لا نظير له ، قائلاً : والله ما أعطيت الرشوة فيه قط ، ولا رضيت بسواه ، ولا تاه عقلي فيه .

الموضوع الذي يعني المتلقي اليقظ ، هو : هل أن محبوب أبي بكر الشبلي ، بمثل هذا الضرام والحريق الكوني في حبه أيضاً؟ وسيكون الجواب سهلاً عند القول : «نعم» . بيد أن من لا يرى محبوبه ، ولن يراه أبداً ، سيعرف أن أبا بكر الشبلي ، «السكران»

في الحب الإلهي ، كان «حالماً» بما هو أبعد من كائن ناقص ، مثل الإنسان ، يحلم بما هو مطلق وكلّي .

هذا هو الدلال الذي عرفه الحسين بن منصور الحلاج ، حتى وهو يصلّب .

ثمة قصة للأرجنتيني بورخيس ، عنوانها الآخر ، بناها هذا الكاتب الحالم ، على أحد خيالات الشاعر كولردج ، في رحلته إلى الجنة ، حيث تقدم له هناك زهرة ، فيجعل بورخيس من حلم الشاعر حلمه الخاص ، ولكنه لا يحصل على وردة ، وإنما على قطعة نقد معدنية من فئة دولار .

قصة الآخر تحتاج إلى إضاءة لا يتسع لها هذا الحيز ، غير أن ما يتسع دوماً ، رغم محدودية الكلمات ، هو الحلم ، أي أنك تكتب كما لو أنك تحلم ، أو أنك في الحلم تماماً .

وستكون الأطروحة أكثر قابلية للتفكر ، لو أنها صيغت في عبارة قصيرة من طراز : «أي حلم نحن في نوم كائن ما؟» .

وسواء وافقنا على هذه الأطروحة أو رفضناها ، يبقى حلم الكائن في حاجة إلى معبّر ، وتبقى حياته تحتاج إلى مفسُر ، وتظل حياته ما بعد موته ، تحتمل ما لا قبل للكائن الإنساني به من مصنفات .

ربما يكون المعبّر ، هنا ، سلوى حقيقية . وهذا ما ينقله النص ، أي نص ، الذي نكتبه ، أو يكتبنا ، أو نراه ، أو يرانا ، فهو طريقنا إلى أحلامنا ، وطريق أحلامنا إلينا ، ودربنا إلى غصن أجرد مرمي على قارعة الطريق ، كان ذات يوم شجرة حية تحلم بظلها لتصير غابة الكون .

هذا هو مذهبي في الكتابة .

رسالة

Juma Al - Lami — جمعة اللامي

[illegible]

06-2-19 ... 6.00 ok

الشارقة في ٢٠٠٦/٢/١٨

السيد/ قيس شهاب المحترم
المنسق الاعلامي للفريق الاعلامي بالقيادة المركزية الامريكية
دبي ص ب — هاتف نقال: ٤٨١٢٠٨٨ ـ ٠٥٠

تحية طيبة،

نود ان نشكركم في البداية على رسالتك الهاتفية التي، برغبة النقيب البحري فرانك باكسويل، المتحدث باسم القيادة المركزية الوسطى، وفريقه الاعلامي للالتقاء بي وتداول بعض الشؤون العامة.

ويهمني ان اوضح ان النقيب باكسويل، ضابط في القوات المسلحة الامريكية التي قامت باحتلال بلادي بعد الغزو (مارس ـ ابريل) سنة ٢٠٠٣، وارتكبت قبل هذه العملية الخطيرة وفي اثنائها وبعدها عمليات يعاقب عليها القانون الدولي وادانتها قطاعات واسعة من الرأي العام الامريكي والرأي العام العالمي.

واذا اراد النقيب فرانك باكسويل مقابلتي باعتباره ضابطا في القوات المسلحة الامريكية فان عليه ان يعتذر امامي عن تلك الاعمال التي ارتكبتها القوات الامريكية في العراق خصوصا، ليتخذ اي حوار بيننا طابعا بناءا ويكتسب مصداقية اخلاقية.

اما اذا كان لايستطيع تلبية اقتراحي هذا، فاني اعرض عليه ان نتقابل بوصفه مواطنا امريكيا عاديا مما يتيح لنا تبادلا حرا للآراء والافكار.

شاكرا لكم اهتمامكم

ok

جمعة اللامي

[illegible]

صورة

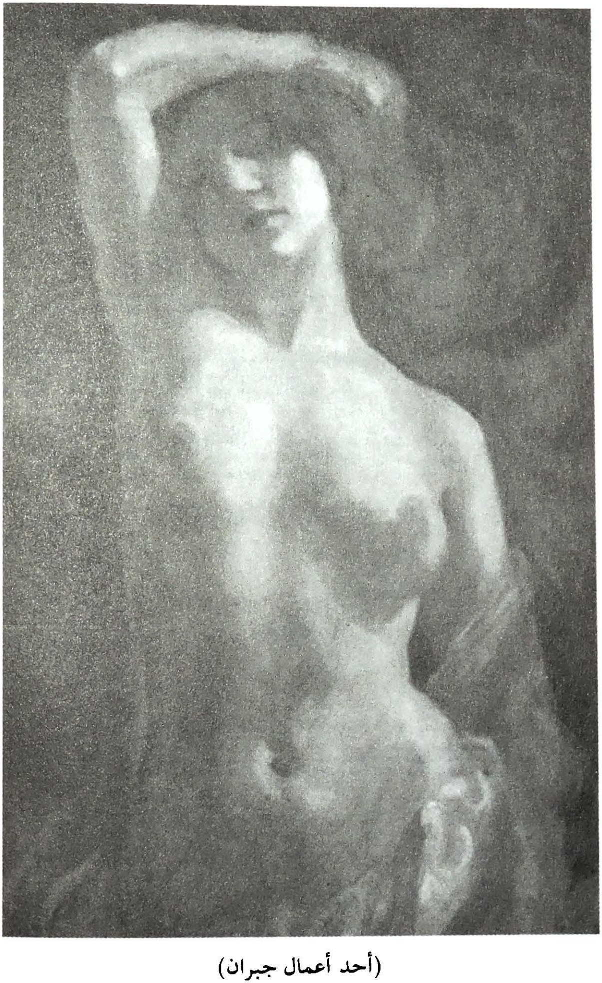

(أحد أعمال جبران)

حديث

بورخيس أليشْني

بورخيس ، الذي يرد ذكره في هذا الحديث ، هو منّان بن وتّان ، الذي من قبيلة أبورخيّص . ثم صار اسمه بالاستعمال اليومي : بورخيّس ، حتى وصل إلى اسمه الأخير الذي عثرت عليه فِي أحد رقائم اليشن (ما بين فليفلة والسروط) تحت هذا الاسم : بُورخَيس . ولقد اعتاد أهل المدينة على تسميته باسمه الأخير ، حتى نسوا اسمه الأول واسم أبيه ، أي منّان بن وتّان .

هذه الكلمات ضرورية ، للدخول في موضوعنا ، الذي يشبه ما كان يكتبه الشُطّار وأهل الكدية في بعض العصور العربية ، لا سيما في زمن كتابة المقامات حين كتب الحريري مقاماته الشهيرة .

ولكل صانع صنعته .

أما خورخي لويس بورخيس ، الكاتب الأرجنتيني ، الذي وصل إلينا في بداية العقد التاسع من القرن العشرين ، نحن الذين لا نجيد اللغة الإسبانية ، ولسنا على اطلاع على طبعات كتبه باللغة الإنجليزية (على سبيل الحصر) ، فهو غير صاحبنا أليشني . وإن اشترك الاثنان في عدد من الصفات التقنية التي تزدحم بها كتبهما ، وعلى سبيل الحصر أيضاً ، استخدام الهوامش ، والحيل على طريقة «أبي زيد السروجي» ، في المقامة الـ«٥٥» من مقامات

الحريري ، التي زينها الرسام العراقي ، الواسطي ، يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطي ، برسومه المعروفة لدى عدد من كبار المستشرقين ، والتي أخذت تعرف بعنوان : المدرسة البغدادية .

والفنان العراقي جواد سليم ، صاحب النصب التاريخي في ساحة التحرير البغدادية ـ وهو لوحة بصرية مادية لتاريخ العراقيين ، منذ ما قبل ثمانية آلاف سنة إلى يومنا هذا ـ هو الذي جعل من مدرسة بغداد في الرسم ، حدثاً عالمياً معروفاً . وكان بورخيس أليشني ، صديقاً عتيقاً لجواد سليم ، وبينهما كانت مراسلات سرية في أقدمية التوقيعات السومرية الأولى على الأسطوانات المعروفة في إيشانَي «فليفلة» و«السروط» ، والتي هي بداية التدوين ، كما يقول عالم السومريات الشهير صموئيل كريمر .

غير أن هذه الإحاطة العجلى تبدو مثل تعليقات على نقوش حميريّة على صخرة كرانيت سقطت من فضاء الأرض فتعبّدها الناس ، إذا لم أخبركم أن بورخيس أليشني ، هو الذي أوحى للأرجنتيني خورخي لويس بورخيس ، بكتابة قصته الشهيرة : التاريخ الكوني للخزي .

والحكاية ملخصة ، كما عثرت عليها قبل عدة سنوات في رقيم أسطواني بين «فليفلة» و«السروط» ، تقول إن بورخيس الأرجنتيني ، المولع بدراسة ألف ليلة وليلة ، وتاريخ العراق القديم ، وقع على رقيم مسماري بعنوان : تاريخ العار في بلاد النفطار ، ومنه نحت عنوان قصته تلك .

وهنا أرغب في إزاحة بعض غموض يكتنف هذا النصّ (النصّ الذي بين أيديكم الآن) ، وهو أنني حين أنجزت كتابة قصة «تاريخ العار في بلاد النِّفطار ، وجدت زميلين اثنين يجالسانني في

غرفة مكتبتي : بورخيس اليشني الذي يشبهني في صفات وأفكار كثيرة ، لا سيما أنه ينتمي إلى قبيلة بني لام التي استوطنت مدينة العمارة ، وانتشرت مضارب كثير من أبنائها بين إيشاني «فليفلة» و«السروط» ، مروراً بـ«خويط السلطان» والحمادات الاخرى بين واسط والعمارة .

والثاني هو بورخيس الأرجنتيني الذي يتماثل تماماً مع زميله اليشني .

وهذه نكتة لا تحدث إلاّ في أحلامي أنا شخصياً ، وأحلام صديقيّ الأثيرين . وحين تباحثت مع جواد سليم في هذا الشأن في رؤيا لي ذات ليلة صيفية مقمرة ، نزع قناعاً على وجهه فصار رابعنا .

١٩٩٩

مَقاصّة

عفران وأختاها والطبري

وإذا هوازنُ جمّعوا فتناشدوا
جَنَباتِهم ، ألفيتني لم أنشدِ
(عوف بن عطية التيمي)

الحمد لله رب العالمين .

فهذه نكتة في القول والكتابة أملاها عليّ في سِنَةٍ من برزخ نومي ، كاتب تأريخ عالم الدنيا ، البحر المحيط اللجب ، الفقيه الرحب ، حامل لواء التدوين والرسائل والخطب ، الشيخ الطبري طيب الله ثراه ، شملنا وإياكم بظاهر علمه وباطنه . قال الشيخ الجليل :

أصبحت الدسكرة على صوت منادي محتسب شيخ بازار التجار يسقط على آذان الناس مثل الرصاص : «يا أهالي عفران لقد جاءت الآلهة برحمائها علينا ومنحتنا بركة منها وتسمّى أحد أبنائنا راوياً : لقد توصلنا إلى معرفة كلمة . . جدل .

وعند هذا القول ؛ ترك الصانع الذي كان يتناول اللقمة الأولى من فطوره طعامه ، وسحبت النفساء ثديها من فم وليدها ، وأطفأ

المجوسي ناره ، وأغلق المندائي كتاب كنزاربّا ، وتوقفت الحية الرقطاء وسط ساحة دار مختار عرصة السوامرة . وبلغ الفرح منتهاه ، فوصل إلى مستوى لم يدونه حمورابي في مسلّته ، ولا إخناتون في برديّاته ، ولم يذكره هوميروس في إلياذته : لقد اتفق القوم على أن دسكرتهم مركز ما عرف بعد ملايين السنين باسم : الانفجار الكبير .

رجعت إلى تصفح مجلدات «أخبار الأمم والملوك» بعد يقظتي فلم أجد في أخبار محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ، وهو المكنّى بـ أبي جعفر : ما يسر الخاطر ويريح البال في شأن دسكرة عفران ؛ بينما استحق الجائزة الكبرى لبحثه حول الزمان حين قال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ؛ وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر خَلْقٍ خَلَق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل .

أقول : لم أجد ذكراً أو خبراً لهذه الدسكرة . وهكذا أخذت أراجع الطعون الكثيرة ، والتلفيقات غير المحدودة التي حفلت بها أوراق الأساتيذ العربية والإسلامية والاستشراقية الضخمة ، لا سيما منها المرتبطة بالحديث النبوي الشريف ، والمعروضة على أنها سير الرجال والنساء من الخاصة والعامة (التي اعتبرها الناس كتاباً منزلاً) ، ما زاد من شكوكي وكرّسها في أصل الحكاية التي نُسبت إلى الطبري .

وأنا في هذا الشأن أعود إلى العقل ، العالم العارف الذي يعتبر العقل حجة بعد الله ، أو هو «الإمام» الذي توجه إليه «التوحيدي»

و«شيخ المعرة» تقدست ليلته الزنجية .

وهكذا قادني عقلي ؛ وأنا أديم النظر في إعادة رسم الكائنات التي ذكر أنها كانت موجودة على الأرض قبل خلق الإنسان ، أن عفران ربما كانت موطناً لهذه المخلوقات العجائبية ، التي فكها الأعلى عند السماء الأولى ، وفكها الثانية عند الأرض الثالثة ، التي نسميها الآن بالديناصورات . وهذا هو الذي وضعني بين مجموعة من الأوابد وجدت ذكراً لها في مرويات عبدالرحمن بن الأسود الطغاري الذي جاء بأخبار «الناس الذين كانوا يعفطون في مجالسهم» .

وهكذا وضعت يدي على ذكر حقيقي لما يمكن اعتباره موطن عفران (انظر ج١ ، ص ٩٨ تاريخ الأمم والملوك) ، ليقودني هذا بعد ذلك إلى اكتشاف أختيها : نفران ، وزفران ، وذلك التنافس بين هذه القرى الثلاث على زعامة الحديقة الأرضية الأولى التي تأسست في الطبقة الأولى من كرسيّ القوة والجبروت والجمال في ذلك العماء الذي لا حدود لحافته .

سينظر القراء الذين يفضلون أن تُوضع المادة الأدبية والتاريخية أمامهم من دون أن يكلفوا أنفسهم أي تعب ذهني أو مشاركة في إعادة القراءة والتخيّل ، نظرة غير مكترثة ، ولا أريد القول مزدرية ، إلى هذه الملاحظة .

أما المختصون المتابعون ، الذين يعرفون ما هو النص في الكتابة الأدبية ، والقصصية منها على وجه التمييز ، فلعلهم عرفوا الآونة أن عفران ونفران وزفران ، هي ثلاث قرى مخترعة على الورق فقط ، حيث إن النص ، أي نص ، هو من مخترعات الكاتب وإن بدا واقعيا لدى كثيرين .

الكتابة الأدبية صنعة وخيال

مقابسة

ما كان وما يحدث بين ضفتَي
أهل الديك الأسود وشقيقه الأبيض

«اعلم أن افتتاح جميع العلوم الحقيقية ،
هو في معرفة الإنسان نفسه»
(إخوان الصفا - الجزء : ٣)

اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن أمر الديك الأسود ، وأمر شقيقه الأبيض كذلك ، أمر ذهني ، أردت به المقاربة ، والمقارنة ، وتبسيط الصعب ، وتسهيل المركب ، ففي ذلك صلاح الفكرة ، وسلامة النيّة . ومتى ما صلحت الفكرة ، وسلمت النية ، اكتمل بنيان المقال جسماً وجوهراً .

وهكذا دواليك في ما يتعلق بدوينق بن فليس الشّيقلي . فهو- كما شرحت ذلك بين أيدي الملأ ، ومن قالوا : بلى ، ومن قالوا : لَعَمْ - مخلوقنا الذهني الذي جسدته في كلمات ، أردنا به تصوير الطاهر وتمييزه عن الخبيث .

ونبدأ بحمد الله سبحانه وتعالى .

ونستتبعه بالصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين . ونصل هذه الصلوات والسلام بذكر صحابته

النجباء الأخيار ، وعباده الصالحين ، والدرر المكنونة من أهل العلم الذين لا يخلو منهم يوم من أيام الله أبداً .

ونبدأ الكلام قائلين : جمع دوينق بن فليس الشيقلي ، أهل الشاطئ اليمين ، وأهل الشاطئ اليسار ، في مدينة السروط وخطب فيهم : أريد من أهل الشاطئ اليمين الكرام ، وأهل الشاطئ اليسار الكرام ، أن يتخيروا ديكين : أسود وأبيض ، ليتهارشا باسميهما ، ومن يحالفه الفوز من الديكين أكتب لأهل شاطئه ملك أهل إشان السروط .

واعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن أهل الشاطئ اليمين اختاروا ديكاً ذا لون أسود ، وأن أهل الشاطئ اليسار اختاروا ديكاً ذا لون أبيض . وعندما بدأ هراش الديكين ، علا هياج الناس وانقسموا إلى طائفتين ، حتى تعاركوا في ما بينهم ، بينما دوينق بن فليس الشيقلي ، تهتز أعطافه من شدة الضحك والبهجة والسرور .

ثم اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن دوينق بن فليس الشيقلي ، وقد عرف نهاية الهراش بين الديكين الأبيض والأسود ، أعلن على الملأ : الجولة الثانية من الهراش ستكون بين الديك الفائز في هذه الجولة ، مع الديك الآخر الذي سيلي المهزوم في مواجهة الفائز .

واعلم أيدك الله بنصر منه على جميع أعدائك ، وأبعد عنك شرّ حُسّادك ، أن دوينق بن فليس الشيقلي ، قد عزم على أمر كان بيّته مع نفسه ، هو أن تبقى ساحة هراش الديكة مفتوحة أمام صراع أهل الشاطئين ، وأبناء العمومة ، بينما هو يبقى يضحك ، ويضحك ، ويضحك ، على ذقون القوم .

٢٠٠٧

خبر

اعتقال ثور هائج بتلّ سفيّح قرب مقام عون بن علي

تل سفيّح (اليشن) : ٢٦ - ١٠ - ٢٠٢٥

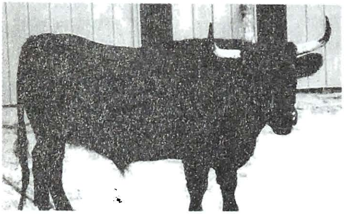

تمكن مخفر شرطة بلدة تل سفيح إحدى بلدات محافظة ميسان الجنوبية ، بالتعاون معَ عدد من الأهالي وآليات دائرة الأشغال والخدمات العامة ظهر اليوم ، من ضبط ثور هائج بالقرب من مبنى مسجد المدينة ، بعد أن فرّ من صاحبه المدعو يرون من قبيلة مالك بن الأشتر .

وقال شهود عيان إن الثور الهائج نجح في الهرب من المواطن «يرون بن داوج» على ما يبدو لشعوره بدنو أجله وهام في عدد من الشوارع ، ما تسبب في إثارة الخوف والهلع بين الأهالي ، فضلاً عن إلحاق أضرار مادية في ممتلكات شخصية وعمومية .

وفي أعقاب محاولات عدة تم إلقاء القبض على الثور بعد أن صدمه أحد الأهالي بسيارته صدمة خفيفة أفقدته توازنه وذلك بالقرب من مبنى قبر عون بن علي ، حيث تمّ وضعه في إحدى

المركبات لنقله إلى المجزرة

مصادر شرطة تل سفيّح ، أكدت حدوث هذه الواقعة الطريفة التي تكررت للعام الثاني على التوالي ، حيث كان تمّ إحكام السيطرة على ثور آخر هائج اجتناه جندي بريطاني دخل إلى المنطقة مع قوات التحالف الدولي قبل عقود من الزمن .

(اليشنستان ـ الأرشيف المحلي)

المُتـون

آدمُ وإيف

لمْ يبقَ في الحانة الاّ أنا وهي .

«ومن أين أتيتَ . .؟» .

كانت تقف في مركز دائرة غير حسنة الإضاءة ، في صالة تعج بالسكارى وفتيات الهزيع الأخير من الليل ، تغني منذ ما قبل منتصف هذا الليل . وبين أغنية وأخرى تجلس لتدخن لفافة أمريكية ، أو تواصل شرب حُقٍّ من عرق «أوُزو» الجبال ، عند أرباض مظلمة خلف ستارة شفافة تعزل البار عن الصالة الكبيرة .

«شكراً على الدخان» . قالت إيف .

«هل ترغبين حقاً في مشاركتي نزهتي في الفجر القادم؟» .

«دعني أفكر في عرضك»

. . . واستغرقت في ضحكة طويلة ، ثم توقفت فجأة لتنظر إليَّ كما لو أنها تتحراني للمرة المائة . أخذت جرعة متواصلة من فم قرعة حمراء تحتفظ بها في جوف حقيبتها الخوص .

كانت وجنتاها حمراوين مثل تفاحتين من بساتين ديالا ، مثل تنورتها القصيرة التي تبين فخذين سمراوين أزغبين ، كأنهما صبّا بأصابع أوغست رودان . وكانت إيفا سكرانة في هذا الوقت الذي أخذ يدخل في وقت جديد . وكنت أديم النظر إليها أيضا متفكراً بجمال هذا الصوت العاري ، والصدر العاري ، والحزن المباغت العاري الذي يلفّها الآن .

«المرأة الغجرية جميلة وساحرة عندما تسكر أو تحزن . أما حين تضحك المرأة الغجرية ، فذلك هو الألم والضياع الكاملان في صورة إنسان» . هذه هي خلاصة بحثي الطويل عن صاحبة صدى تلك الأغنية المفقودة .

بقينا معاً وحيدين ، أنا وهي ، في هذه الحانة المنسية التي اهتديت إلى مكانها بعد بحث متعب ليلي طويل ، تطلب مني أن أجول في شوارع وعرصات هذه المدينة التي يبدو أنها لم تشاهد شمسا أبداً . وحين كان يهدني التعب بعد أي عملية بحث عن حانتي المرتجاة ، ويدعوني يأسي للدخول إلى أقرب حانة أصادفها ، ونسيان ذلك الصوت الجميل الذي كان يأتي إليَّ من بُعد سحيق ، أسمع أيضاً أغنية تأتي إليّ من وراء جدران وبحار وجبالٍ ونيران وحروب :

«عَرفتُ أنني قتيلة /
فَتّشوا المقاهي والمقابر والمساجد /
افتحوا الآبار والخزائن المنسية . . .» .

«لماذا فـعلت مـا فـعلت ، يا آدم . من دلّك على الحـانة؟» .
سألتني إيفا .
«عليكَ بالطّار» .
سرنا . إيفا تتأبّطُ إيف ، وآدم السومري يتأبّطُ طارهُ .
وكانت إيفا لا تزال تغني :

«عرفتُ انني قتيلة ،
فتّشُوا المقاهي والمقابر والكنائس ،
فَتَحُوا البراميل والخزائن .
ولم يعثروا عليَّ .
ألمْ يعثروا عليَّ؟ .
نعم ، لم يعثروا عليّ ؟» .

كـان الحـارس السـري على الحـانة المتنكر بثيـاب راهب ثقـيل الظل قد قبل هديتي : لفافة دخان ، وقطعة من سـمكة مجففة ، ثم أخذ يراقبنا عن كثب كما لو أنني هبطت على هذه المدينة من عالم بعيد ومجهول . وكـانت إيفا غير معنية ولا مكترثة بذلك الحارس ، فقالت واثقة : «لن يعثر المسوخ عليكَ ابداً» .

«المسوخ؟» .
«نعم . المسوخ الحمر والصفر هنا تحكم» .
«أنا غريب وتائه ، إيف» .
«سـمـعـتك تقـول لـي : أنا داري قلبـي ، ولكـن أنا . . مَنْ أنا . .
أين قلبي وداري يا آدم؟» .

كانت مكشوفة وواضحة أمامي الآن، مثل نفسي تماما، ولذلك سمعت نفسي تغني لكلينا معاً:

«أُجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِيَ.

دعني يا مليكي أدخل إِلَى حِجَالِك. لِنَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ معاً.

أَنَا سَوْدَاءُ وَجَمِيلَةٌ يَا بَنَاتِ الغجر، كَخِيَامِ قِيدَارَ، كَشُقَقِ سُلَيْمَانَ. لاَ تَنْظُرْنَ إِلَيَّ.

أنا سَوْدَاءَ، لأَنَّ شمس الحب قَدْ لَوَّحَتْنِي. فصرت نَاطُورَةَ بساتين الْكُرُوم كلها.

أَمَّا كَرْمِي فمن هو يا آدم حديقته الأزلية؟».

كان صوت إيفا يختنق، ورأيتها تهشم كأسها بكفها اليمنى، ثم نزعت قميصها في هذا الفجر الثلجي، وأخذت تُشرِّط مفرق ثدييها بكسرة من زجاجة كأس مهشمة.

«إيف»!.

«يا صديقي، في حجرتي خمر حار، وقلب راعف بالمحبّة، فتعال إلى حجرتي».

وهكذا، معاً، يتأبّطُ بعضنا بعضا،

سرنا عاريين، نحو مخيم الغجر الذي تتراقص أنوار سراجاته خلف أفق لا نهاية لحافاته..

صوفيا: ١٩٨٥

مَرْيُوم

قُبيل غروب الشمس بقليل ، تشرق مريوم من حيث لا نعرف ، وتتقدم إلى حيث يعرف محمد فلك الزمان ، ناطور البرج المشرف على آخر لسان صخري لجزيرة العرب الذي يندفع باتجاه بحر العرب والمحيط الهندي . تقف البنت بشعرها الأشعث ، قبالة غرفة الناطور ، وتبدأ بإطلاق نداءات مبهمة . فتظهر رشيدة خاتون .

لم تتخلف رشيدة خاتون ، أو الخاتون ـ كما هو اسمها ـ عن مَرْيَم ، في موعدها المسائي . ما إن تبدأ البنت بالمناداة بتلك الأصوات المبهمة حتى تظهر الخاتون جرياً نحوها ، ثم تلتصق بساقها اليمنى ، وتموء .

كانت الخاتون حبلى ذات يوم ، لكنها لبت نداء صديقتها الصغيرة . وكان برفقتها طائر الببغاء الأفريقي حمودي ، وهو ما أثار عاطفة محمد فلك الزمان ، الذي قال للرجل الذي لا وصف له سوى أنه رجل متشرد : «الخاتون حُرْمَهْ شَريفَهْ» . قال الناطور . ثم عاود كلامه : «أقسم بمحمد وعيسى وموسى إن مريوم هي التي سمت محمدا «حمودي»»! .

وفي مساء آخر ، كانت الخاتون تتقدم نحو مريوم منهكة . «رشيدة ولدت ثلاث بزّوْنات» . قال محمد فلك الزمان . وكان حمودي يرافقها . وفي مجلس المساء المعتاد ، يتدارس الناطور والحلاق

الهندي ورجل آخر ، لا وصف له سوى أنه متشرد ، في شأن الطفلة مريم وقططها وطيورها . فلقد كبرت الجراء الثلاثة ، واستضافت قططا وجراءً أخرى . وأغرى حمودي سرباً من الغربان الهندية الحذرة جدا في علاقتها مع الطير والبشر ، لتلتحق بطيور مريوم وقططها .

«مريوم مبروكة» ، يقول الناطور . وأيده في ذلك ساكنو المبنى كلهم : نعم ، البنت مبروكة ، بعدما تدخلت لفضّ عراك بين أفعى ظهرت بغتة عند الحديقة المجاورة للعمارة وحمودي . وتمكنت من ربط حبل ودّ بين الأفعى والببغاء الأبيض والقطة الأم .

جاءت الحية ، مسترخية جدا ، والتفت على الساق اليمنى لمريم ، حتى صارت مثل حجل متعدد الحلقات . حبسنا أنفاسنا . وحده الحلاق اتجه نحو الشمس الغاربة ، وأخذ يتلو وِرْدَاً باللغة الأوردية ، وعندما توقف عن الإنشاد ، انسلت الحية نحو طاسة اللّبَن التي كانت أمام مريوم ، واخذت تتقلب ظهرا على بطن في السائل الرائب . وهنا سمعنا مريم تقول للمرة الأولى في حياتها : «ما . . . ما» .

هذا هو المشهد الأثير إلى نفسي ، الذي لا أتخلف عن حضوره يومياً ، عند قاع البرج الذي أقطنه . هو يواجه البحر ، ولا يحميه من ظهره إلا رمال ممتدة طالما كان بصرك قادرا على عدم الرمش ، وأنت تديم النظر في عمق البحر ، أو في عمق الرمل .

مِن هناك ، أشار الحلاق إلى عمق البحر . وقال : مريوم . . أتت من هناك . ثم قال ذات يوم : مِنْ هناك . وأشار إلى عمق الرمل . طفلة في العاشرة من عمرها ، شعثاء شعر الرأس ، بملابس خلقة ، لا تجيد سوى إطلاق نداءات مبهمة وغامضة ، لأصدقائها من الطيور والقطط والحيات والعناكب والسناجب والأسماك .

بعد أن ذهب مساء أحد الأيام ، تبعتها حتى الساحل ، ثم اقتربت منها وهي تدخل في مياه البحر ، لأرى فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، تطير بجناحي ببغاء إفريقي أبيض ، إلى حيث لا أعلم ، وخلفها أسراب من الطيور ، وقطعان من القطط والأفاعي ، ومئات أسماك القرش والحيتان تتقافز حولها .

ثم خيل إلي أني كنت أشاهد الرجل الذي لا وصف له سوى أنه الرجل المتشرد ، يطلع من بين الأمواج المتلاطمة . وحين أدمت نظري فيه ، وجدت وجهه يشبه وجهي تماما .

١٩٨٥

مظلة السيدة بينلوبي

منذ ثلاثة أيام (نحن الآن في أواسط شهر تموز) ، كما يحدث منذ رأيتها قبل خمس وعشرين سنة ، وشاهدها غيري قبل عقود كثيرة ، فردت السيدة ديفي مظلتها ، فهربت حميدة خاتون ، قطة صاحب صالون الحلاقة ، إلى زاوية قصية في الشارع المقابل ، بينما ظهر عندليب شجرة التين المحاذية لصالون الحلاق ، وفرش جناحيه وأخذ يغرّد : بينـــلوبـــي . .إيثاكـــا . . . ديــفي . . . مكـــة .

هدلت الحمامة الباكستانية : «آمنة . . . . . . آمنة» ، وقال الحلاق الهندي «كابور» لمعاونه «كابور- ٢» كما أسميه تفكّهاً : «ستمطر السماء» . غمغم كابور-٢ ، برقبته ، على عادة الهنود . وتمتم كابور كأنه يصلي : « Oh ، rain. rain»

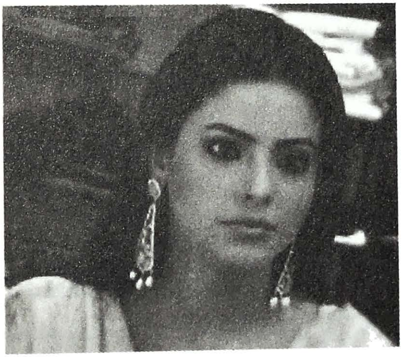

وفي ساحة الحديقة المشمسة ، بجوار سوق العرصة ، حيث تقف حافلة كبيرة تنقل أناسا ذوي سحنات شقر وحمر وسود وصفر ، نادت الطفلة صيدون ، ذات السنوات الخمس على أمها ، من على شرفة شقة أسرتها : «ماما ، ماما ، شَتِّتْ ، ليحفظك المسيح» . أمطرت السماء ، الآن ، والشمس طالعة . بل مستقيمة ومتعامدة في كبد السماء . انفتحت قِرَبُ السحب ماء . ثم رأيت السيدة ديفي ، والنقطة البنفسجية على جبهتها تفور ماءً ، تفتح حقيبتها الشخصية ، وتخرج مرآة مدورة صغيرة ، وأخذت تتزين تحت مطر غزير ، وفضاء مشمس .

منذ ربع قرن . نعم ، أنا متأكد من هذا الذي أراه ، وأنا أسميها : السيدة ديفي ، لكن الآنسة «آمنة شريف» - كما يعرف ذلك جيدا أهالي مقاطعة بنجلور ، ويشاركهم في هذا الاعتقاد أهالي إيشان «أم الهند» كذلك ، ممثلة هندية مسلمة ذات سمعة واسعة الانتشار ، ويتعشّقها هؤلاء الشباب الهنود والباكستانيون والأفغان والبلوش والعرب ، الذين يداومون على مشاهدة أفلامها التي تعرضها صالة خربة في عرصتنا .

في الشريط ، على الشاشة ، كانت السماء تمطر . نعم ، أردت القول : «كان الماء يسقط من السحب التي في سقف الصالة» ، وثمة الآنسة آمنة شريف تنشر مظلتها (**هامش** - يبدو أنها تجسد دورا للسيدة المقدسة ديفي) ثم تخرج مرآة من حقيبتها الشخصية ، وتأخذ تتزين . كأنها تنتظر حبيباً طال غيابه . ثم ملأت الأفق بأذرعها االتي لا عدد لها . هكذا هو المطر في اليشن .

منذ ثلاثة أيام ، عندما رأيت السيدة ديفي في الشارع تنشر مظلتها فوق جسدها كله ، قلت لحمامتي الباكستانية الهادئة :

«ديفي خرجت إلى المطر» . قالت الحمامة ، أو آمنة كما سميتها ذات يوم ، وهي تدرج فوق القفص الصغير : «يا صاحبي ، أنت دائماً تنسى . إنها بينلوبي» . ثم نشرت آمنة مظلة جناحيها ، واصطفقت في فضاء مشمس وسحب ماطرة . صارت الحمامة دَرْيةً من خيوط بيض في سماء بيضاء .

«ولم يكن ثمة سُحبٌ تحت سماء إيثاكا . السحب تُسقط الماء الآن . انتظرنا هذه اللحظة منذ ألف وأربعمائة وأربع وأربعين سنة . الطوفان . سيأتي الطوفان» . قالت آمنة قبل أن تطير .

«المطر ، ها هو المطر ، يا رب مكة وبيت إيلياء» . وكانت السيدة بينلوبي تطوي مظلتها ، الآن ، وتحل شعر رأسها ، وتصرخ بلغة عربية واضحة لا عجمة فيها . ومن الجهات كلها ، من نقاط قوس الأفق ، كانت حمامتي البيضاء تهبط عند قدمي ديفي وثمة هاتف يلبي : «لبيك بينلوبي» ، . .

وأخذت السيدة بينلوبي تفتح حقيبتها الشخصية لأسراب الحمام ، بينما دَرْيَتُها بخيوطها البيض ، تحلّ نفسها بنفسها .

٢٠٠٨

حانة الآنسة شكيلا

كان يؤجل تنفيذ كتابة نهاية قصة حمدون القصار .

نعم (تلك نهاية شنيعة جداً) ـ على وفق أولئك الذين قرأوا أفكار سيجموند فرويد من الصفحة الأولى في طبعات باللغة العربية ـ شهرا بعد آخر ، وعقداً بعد عقد ، حتى وجد أنه ضجر تماماً من هذا التأجيل الذي يقود إلى تأجيل جديد . فاختار ملابسه بعناية على غير عادته (كان الوقت يقترب من منتصف النهار) ، وغادر منزله الكائن في «شارع ـ ٦٠» ، ومن هناك يمم وجهه شطر «شارع النخيل» ، حيث الحانة الفلبينية (هذه تسمية غير دقيقة حقا) التي تديرها ثلاث فتيات غير دميمات . وقد اكتشفها الكاتب قبل سبع سنوات ، عندما كان يبحث عن مكان يفتح أبوابه على مدار الساعة .

كان قد انتهى من استعادة نهاية فكرة قصته العتيدة للمرة المائة ، ربما . ومرق في ذهنه شبح إرنست همنغواي ، وهو يذخّر بندقية الصيد ذات الماسورتين . وضع أوراقه الملونة وأقلام الحبر والرصاص داخل حقيبته الجلدية السوداء . ثم علق ذلك الكيس الذي يستخدمه الموسيقيون في حمل آلاتهم ، على كتفه اليمنى ، وهو ينتوي وضع حد لهذا التأجيل المتواصل ، لا سيما بعدما انتهى من معرفة نهاية العريف حمدون القصار ، شخصية هذه القصة : «هو رجل في العقد السابع من عمره ، هاجر من ريف قضاء المجر إلى

اليشن ، وبقي يبحث عمَّن يستمع إليه ، ليروي قصته بين يديه . تلك القصة التي سنعرف من تفصيلاتها ، مشكلته بعد عودته من الحرب يحمل جرحا عميقا في روحه . لكنه فشل في تحقيق هذه الأمنية» .

حمدون أكبر منه بخمس سنوات ، وهو ربع القامة أيضا . لكن هذا الفارق لم يمنعه من القول في سره : «نحن متشابهان يا حمدون» . ردّ حمدون : «نعم ، يا صديقي العزيز» .

وحتى قبل منتصف هذا النهار ، استمر الكاتب (عرفه أهل اليشن مراسلا لجريدة في بلد غير معروف ، أو هكذا تقول إحدى الشائعات التي تزخر بها عرصة مدينتهم الصغيرة) يسأل نفسه : «والان ، ماذا بعد هذه الحفلة ؟» .

دلف الكاتب إلى الحانة (بعدما ابتاع وردة جوري حمراء من الدكان الصغير المجاور) عبر الباب الصغير الخلفي ، المخصص للعاملات في هذه الحانة العربية التي استحالت مقراً لفتيات فلبينيات ، وشباب روس ، والهنود الذين يديرون محل صغيرة للطباعة ، وعدد من المتسكعين الذين لا جنسية لهم ، أو هكذا خمن ذلك ، وتوجه إلى زاويته الشرقية القصية المعتادة ، بعدما حيا العاملة الفارسية الصغيرة : شكيلا ، التي كان ينادي عليها في سره : «يا وردة أصفهان ، (لاحظ أن كتاب : منطق الطير ، لا يزال مطروحا بين يديها ـ عرف ذلك من صورة تخطيطية شائعة للشاعر فريد الدين العطار) ، بتلك الكلمات التي لا يعرف معناها» .

ارتبكت شكيلا قليلا وهي لا تزال جالسة إلى الآلة الحاسبة . وردت سينثيا مرحة : «هلا وَيْنْ مايْ تُوْ آيزْ» . ثم أكملت مرحها بجملة شائعة صارت سمة من سمات شخصية أهل اليشن ،

«شاكو ماكو ، حياتي !» وانفجرت ضاحكة .

ابتسم لها مرة أخرى بعد أن تناول الإناء البلاستيكي الصغير الذي امتلأ حتى الربع الأخير منه ، بقهوة أمريكية تشبه القار . «سينثيا ، لقد اتخذت قراري الأخير» . خاطب الكاتب الفتاة . كانت تتجول بين الطاولات ، فبادلتها الثانية ابتسامة مرتبكة ، بينما كانت الزميلة الثالثة ، وربما كان اسمها بيانكا ، تكتب شيئاً على ورقة بيضاء من اليمين إلى اليسار .

سألها بنظراته : «بيانكا . أنت تكتبين من اليمين إلى اليسار . صرت عربية ؟» . حسب أنها قالت له : «نعم . سيدي الكاتب ، أنا بدأت أتعلم كلمات عربية . أنت تعرف أننا أندلسيون نغرق في تفاصيلنا غير الإسبانية ، وربما ننغمر في التاريخ العربي لعارنا ، حيث ثمة في بلادنا من يقتل بالسيف ثورا منغمرا في وحدة قاسية ورهيبة» .

(. . وكانت وحدة حمدون تلازمه في ضميره ، وتتحرك معه إلى كل الأمكنة ، كلما يتذكر تلك الليلة التي هرب فيها من الخدمة العسكرية ، تاركا بندقيته في حفرة على الربيّة الجبلية) .

استغرب من فصاحة بيانكا ، لكنه أيضاً انتبه إلى سينثيا التي كانت تدور حول طاولات الزبائن بسرعة نحلة الجبال ، تقول له : «سيدي الكاتب إنك تعيد إنتاج بيانكا وشكيلا ، وتحاول أن تكتبني كما تريد ، بينما أنت منغمر في نهاية فكرة قصتك (**هامش** : ـ استخدم حمدون بندقية صيد قديمة» يسميها أهل اليشن : كسريّة «كانت موجهة إلى صدغه الأيمن في ليلة شتوية) ، التي شغلتك منذ عقود وتؤجلها يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، وشهراً بعد شهراً ، وسنة بعد أخرى» .

«اتخذ القصار قراره ، أخيرا» . قال لها هامسا . وكان قد انتهى من آخر مرة رفع فيها قهوته إلى شفتيه ، فبان التلوث في قعر الفنجان . حسب أنه ربما سيلوث فكرة غير شائعة بين العامة من الناس ، وهي غير جديرة بالتلوث حقاً . إذ إنه سيبدأ بعد لحظة ، أي عند الدقيقة الثانية من بعد منتصف نهار يوم ٢ كانون الثاني سنة ٣٠٠٠ ، بإعادة قراءة تاريخه وتاريخ مدينته ، وتاريخ بلاده من الصفحة الأخيرة لكتاب «الإمامة والسياسة» .

كتب بخفة ومن دون توقف ، بقلم حبر أزرق على صفحة بنفسجية اللون ، حتى انتهى إلى هذه العبارة : «بصق حمدون القصار في جوف الإناء البلاستيكي ، وخاطب نفسه : هذا التاريخ القذر» . ثم توقف عن الكتابة . أحس أنه يحلق في أعلى السموات ، ومن هناك رأى الوردة الجورية الحمراء ، لا تزال ترقد مرتاحة فوق الراحة اليمنى لكف شكيلا .

والآن ، وهو في ذروة سروره العاصف ، استمع إلى شكيلا تنشد :

«العاشقُ يُشعلُ النارَ/ في كُلِّ بَيدَر ./
الوردةُ كاشفةُ أسراري .
وعُشْقُ الوَردة أفقَدني حَياتي
كفاني : ما يَكْمُن بالرأس مِنْ عُشْقِ الوَردةِ
كفاني : أن تكون معشوقتي هذه الوردة» .

توقف الكاتب عن الإنشاد الهامس ، وأرسل بصره نحو شكيلا (رآها وردة جوري حمراء) ، ثم غرق في تأملاته . اضطربت شكيلا (. . . وسقطت وريقة حمراء من على كرسي وردة الجوري) ، وقامت على حيلها ، ثم ندت عنها صرخة مكتومة ، بعد أن هزّ صمت الحانة صوت انطلاق رصاصة .

١٩٨٨

الحرب

كانت بدور ذات السنوات الثلاث مستمرة في البكاء ، حين قبضت المرأة بكفيها الاثنتين اللتين تزين أصابعهما محابس من فضة وورشن ، على قطعة اللحم الحار بين فخذيها . أحسّت أميرة أن عددا مهولاً من السكاكين العمياء تُشَرِّح حوضها ، فصرخت «علي ، أدركني يا علي» .

ضمَّ علي ابنته الثانية الباكية أيضا إلى حضنه ، وأدنى فمها من صدر والدتها . تشمّمت سعاد صدر أمها بعينيها المغمضتين ، واجتذبتها رائحة حليب رائب من ثدي امها الأيسر . «قَرِّبها مِنّي أكثر» . قالت أميرة متوسلة ، بينما كانت تغطس في بحيرة من عرق ووجع وأمل .كان علي بن تراب أوقف عربته الخشبية التي يجرها حماره الوحيد ، بجوار ساتر ترابي على يمين الشارع الأغبر ، حين كان يقود عربته العجوز فوق آثار عجلات ناقلات الجند الروسية المُتَّجه نحو ديزفول والشوش . «علي ، . .بعرضك يا علي» . كانت أميرة ، تنادي للمرة الثانية ، فعاد زوجها يضم ابنته الثانية إلى حضنه : «ما تْخافي . أنا وَيّاك» .

حدث هذا عند منتصف ليلة النصف من شعبان ، وكان علي الصبّي قد أنهى الكلمات الأخيرة من صلاته ، واستغرق في إغفاءة شاهد من خلالها الراية الحمراء التي كان يراها في أحلامه ، تخترق فضاء اليشن في ليل فضي لم يشهد له شبيهاً من قبل .

وكان كوخه الوحيد في الطرف الشمالي للسلف ، يواجه النجم القطبي ، على حافة «كود الصَّبَّة» ، كما تعود أن يسكن أجداده المندائيوّن منذ دهور سحيقة . والناحية الآن بعيدة ، والدنيا ليل بهيم ، والحرب تسير على عجلات في كل الدروب . لكنْ لا خيار آخر أمامه الآن ، فإما أن يغادر كوخه ومعه عائلته إلى هناك حيث القابلة المأذونة ، أو تموت أميرة بما تحمل . ارتدى ما صادفه من ملابسه المعتادة ، وحمل سعادا ذات السنة الواحدة في سلتها ، وقاد بدوراً ذات السنوات الثلاث نحو عربته الشائخة .

وأخذت العربة العجوز تهتز على درب وعر ومترب ومظلم ، وصوت أميرة ينادي : «علي ، علي» . كان علي الصُّبّي يشجع حماره الشائخ على المشي بأقصى ما يستطيع في هذا الليل البهيم ، فأخذ الحيوان العجوز يطلق زفيراً مسموعاً ، شبيهاً بنخير بعير يتم ذبحه الآن من رقبته بسيف أعمى . «إن شاء الله ، نُوْصَلْ» . طمأن علي أميرة .

«علي ، مْرُوُّتكْ يا علي» . وعلا صوت الأُم للمرة الرابعة أو العاشرة . كانت تردد : «علي ، علي ، يا علي» ، تحت هذه القبة الظلماء ، اللهم إلا من أصداء أصوات مدفعية ثقيلة مصدرها الجانب الآخر من الجبهة .

وحده في الظلمة ، إلا من طفلتيه وزوجته وعربته ، توجه علي بن تراب نحو النجم القطبي وتمتم بكلمات لم يسمعها سوى النجم الأحمر ، فشاهد كوكباً يسقط من بُعْدٍ سحيق كأنه يتوجه نحو عربته .

«بَعْدنا ما وَصَلْنا ، يا علي ؟» .

«وَصَلْنا . والله وصَلْنا» .

أخـذ الكوكب ينشطر الآن إلى عـدد لا يحـصى من النجـوم والأقمـار والشهب ، فتحـول ليل برية اليـشن ، إلى نور فضي باهر ، وحينها صرخت أميرة : «علي ، أدركني ، يا علي» .

ثم كفَّت عن الحركة .

١٩٨٧

تاريخُ العارِفي بلادِ النِّفْطار
بـرواية سلطان الخالدي الشهيـر بـ«نزيل الجلالي»

«النّايُ في كُمِّي ، والرِّيحُ في فَمي»
(جنّي من تلّ سْفَيّح)

﴿ا ل م ب د ع﴾ . . . ذات عصر ، من نهار سحيق ، دخلتُ في النوم ، ورأيتُ كأنني أمسكت بقلمي الرصاص وأخذت أكتب : «من عتمة الفجر إلى عتمة الغروب ، في السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر ، كان ثمة فهد يرى بعض الألواح الخشبية . . . .» .

« . . . وكنت أَنْزَلِقُ تحت العصر ، كما ينزلق القارب الذهبي (حين يتوجه إلى دير براثا ، عند أقدام مقابر قريش ، قرب دار السلام) فوق سطح مياه تلك البطائح المسكونة بالجِنّ والعَنافيش ، والبَرْبَرَة أهل الدَنْدَرَة ، والصيادين من السُّواعِد الغَرَيْريَّة والمُطَيْريَّة ، والمِعْدان ، والمكُارِيّة من السادة البْخات ، وطيور أُمْ سكّة والخُضَيْري ، ونبي الله العُزَيّر (عليه السلام) ، وشيخ الجن : خْفَيْظ (أيَّدَه اللهُ بِكلماتٍ منه ، لِيَرى) ، الذي سيراه صاحبي[١] ، بنصفه العلوي الآدمي ، ونصفه السفلي الذي مثل ما يلي الرقبة من خنزير بري ، فكان له ما أراده في كتابه الذي حمل عنوان : أَلْيشِنْ .»

« . . . أقول إنني تحت عصر ذلك اليوم ، حين كنت أراجع

قراطيس أحوال هؤلاء الأغراب الذين سيبنون معْراجَ الحَفَّارَةِ ، وأرسلوا أساساته في عمق تلك الأرض الرخوة ، فجعلوا حْفَيْظ يجفل ويخرج من مكمنه السومري الحصين ، رأيت الطيور الحديدية العملاقة في كبد السماء . والرماح النارية العابرة للبلدان والأمصار فوق ذؤابات الجبال والغابات والصحارى . والفرقاطات المعبّأة بالجند من كل الملل والنّحَل ، تتجه من بحار الدنيا وشطوطها نحو بلاد اليشن ، وكأن هدفها هو «إيشان أبو ذهب» ، في خريف سنة ٢٠٠٣ ميلادي»(*) .

حدث ذلك في أحد أيام سنة ١٩٣٧ميلادي ، في منطقة صغيرة ومهملة يقال لها الْعَلاة(**) ، التي ستصبح بعد سنوات قليلة جدا ، أقوى مركز استقطاب للأُمم ، والنموذج المثالي لتبادل الأدوار بين الحكام والولاة والمطاوعة والملالي والحُجّتيّة . وفي حينها سيقول أجدادنا الذين كانوا ذات يوم مواطنين أحرارا في «إيشان أبو الذهب» الذي يقع جنوبي مدينة «اليشن» التي لا أزال أحتفظ بخرائط بُناها التحتانية «رأينا نقطة باء البسملة في صور لبنان سنة ١٩٨٢ ميلادي» .

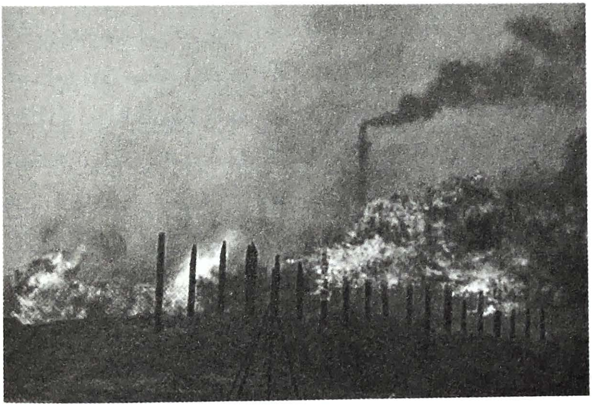

«وأخبرني النوخذة حَوَش السِرْهِيد (وهو من سلالة نشأت بالقرب من «واحة ينبع» في جزيرة العرب ، ثم هاجر أبناؤها إلى أرض يقال لها ألْيِشِنْ ، حبًّا بِنُقْطَةِ بَاءِ البَسْمَلَة) أنه كان عائدا بسفينته «عَمْشَة» من قرية «السُودَة» في عمق دَسْتمَيْشُون ، حين صفنت الريح ، حتى كان بإمكانه أن يسمع أصوات استغاثات الموتى وهم في قبورهم ، وأصوات أنين الجن وبكائهم وهم في الأصفاد ، فصرخ الملاح جاسب أبو رغيف : «وُلْكَمْ هذا دَاحِي البَاب» ، فلما أدرتُ بصري إلى حيث أشار الملاح المرتعب ، رأيتُ الهور وقد انشقَّ نصفين ، وبرز منه «بَلَمْ عجيب» ما شفْتُ مثله في حياتي ، فَكلَّهْ ذَهَبْ علي ذَهَبْ ، مِنِ الصَّدِرْ إلى الأَخِير ، والمَلاليحْ ذَهَبْ ، والمِجاديفْ ذَهَبْ أَصْفَرْ ١٨ قِيراطْ ، وعلى اليمين وقف شيوخ العرب وسط طراريدهم . أما على شمال البلم فقد اصطفت الآفات والثيران باجنحتها العملاقة . وعنْد الصَّدِرْ وَقَفْ رَجَّالْ رِبْعَة ، عَمَّمَ راسَهْ بِعْمامَهْ سُوْدَهْ ، وَكِلْ هْدُومَهْ خُضْر ، فَصَدْ إلى ما بِيَنْ عيوني وقال : يا ابن السِرْهِيدْ . . بَلِّغْ عني : اذا ما اكتمل في الزوراء بناء جُسُورها السَّبعة ، وَغيضَ ماءُ البطايح ، وَضُرِبَ وادي السلام برماح النار بأمر من حاكم الزوراء ، فإن حرب بني الأحيمر والأُصَيْفِر قد ظهر نابُها علي شعب اليِشِن .

قلت : سمعا وطاعة يا مولاي .

وهنا رأيت «فَدعة الزّيْرْجيَّة» ، وقد لفَّتْ عباءتها على يمناها ، وتطلق أبيات شعرها الشهيرة :

عالِي مضيفْنَهْ وشْحَلاتَهْ
أوْ رُوسِ الحَراثِي أمْوافْجاتَهْ

أُخُـوِيْ الثَـلاثَـهْ إمْـرافْـجـاتَـهْ
أَلْكَرَمْ ، والْمَراجِل ، والْصُـمـاتَـهْ
أخُـــوِيْ جـــاراتِّـهْ خَـــواتَـهْ
اخُـوِيْ ، الْعَـبِـدْ والْضَـيْفْ أغـاتَـهْ

وهو أيضا ما سينقله إليّ صاحبي ، رفيقه : سلطان الخالدي ، الكاتب الْمِنْ مُزُونْ ، الذي عاش ما بين ضاحية «يبد» وعرصة «الشبانة» ، بقوله وهو شبه مغمى عليه : «هيهات منّا الذلّة» .

«وعندما قصّ الخالدي ، عليّ في وقت سابق ، أي بعدما نهض من لحده الرملي للمرة الأولى سنة ٦٢ هجرية ، حكاية والده[٢] وهو يستعد للانتقال إلى «أيشان أبو الذهب» ، تبيّنت القيمة غير القابلة للتلف ، التي تربّى عليها صبي ولد في أعالي الجبال السود (ويعرف أهل الجبل الذين استوطنوا قرب حصن الجلالي [٣] ، «اقرأْ في كتاب : تحفة الأعيان في تاريخ عُمان ، للإمام النعمان اليعربي ، ففيه ذكر كثير لهذا السجن الكبير» أن من يدخل إلى تلك القلعة الحصينة والموحشة ، لن يخرج منها أبدا) ، إلا ما حدث لوالد الخالدي - وتلك حكاية عليّ أن أرويها كما سمعت بها من الناس أو كما قصّها علي سلطان بعد ذلك ، ونحن نراقب وحدة من الجيش الإسرائيلي في الخطّ المقابل لقرية «السّموع» .

«في ظهيرة ذلك اليوم الربيعي من سنة ١٩٦٨ميلادية» . كان الخالدي (الذي عرفه أهالي بلدة النبطية منذ بداية عقد الثمانينيّات من القرن العشرين الميلادي ، بأنه رجل مصاب بصدع في قاع جمجمته ، وبصداع عند سقفها) قد قضى شهيدا عندما كان يتصدى لثلاث دبابات إسرائيلية (وكان وجهه قمر إيشان أبو

الذهب في ليلته الرابعة عشرة) حاملا قدرا مملوءة بزيت الزيتون المغلي ، وهو ينادي (هيهات منّا الذلة)» .

«وكان ذلك مفاجئا لي ، فطوال السنوات التي أمضيناها معا ، في الجزائر وظفار أو كاتنجا ، وحتى في إيشان السَيّد سْفَيّح(٤) ، لم أسمعه يطلق ذلك النداء ، أو ينتزع قناعه» .

«كان ذلك بعد سنة ١٩٨٢ميلادية ، وستعرف شعوب جنوب العالم خصوصية هذا العام ، ما رآه خورخي لويس باسترناك(***) ، لأن نيزكا صغيراً ، سقط على مستوطنة المطِلَة ، فقال حاخام الأشكيناز ، فلاديمير جابوتنسكي : حدّوا السكاكين ، اقترب ظهور (صادوم العراقي)» .

«أما في مدينة كربلاء المقدسة ، فقد ظهرت نُقَطٌ من دم عبيط (رأيت النقطة من الدم الزكيّ ، مثلما يرى الناظر إلى النيران في بصرى الشام وبابا كركر) على مقبض بوابة الضريح الذهبي ، ثم تحدث الناس بروايات شتى ، إحداها أن الحُسَيْن بن علي ، شوهد قائما على حيله داخل ضريحه ، فتقدمت منه» .

«وكانت تلك هي المرة الأولى التي رأيت فيها الإمام ، الحُسَيْن بن فاطمة ، شُبَيْر شقيق حَسَن ، يتشحّط في دمه ، (هذا وَصْفُ وَضْع مَنْ بَاعَ جُمْجُمَتِه لله) أو يَتَبَطَّح قرب نهر العلقمي (فقلت من فوري : يا أخي لِمَ تركتنا عند المقلّدين ؟) فقال الحُسَيْن : لم يحدث هذا أبداً ، يا أخي جمال الدين(٥) . وإنما تركت فيكم ما يضجُّ من صوت الرضيع حين يسقط من أمه : أشيعوا حكايتي مع حكاية النفطتار» .

«وقبل أن يقترب من الميركابا ، ناولني الخالدي كراسا صغيرا ملفوفا بما هو مغزول من صوف ميساني ، في داخله هذه الضَّميمة ،

ثم خاطبني : «الآن ، وقد اخترت أن أختار أسلوب موتي ، أنا الذي لم أختَر يوم ميلادي : يا صديقي العزيز ، أنشر هذا المتن ، وهذه المقالات وتحتها توقيع «متعب المطرود» أو «شايع الشرقي» أو حتى «جمعة اللامي» إنْ شئْتَ» . يا أخي هذه الاضمامة وديعة العمر .

«لم يداخلني أي شكّ ، لأنّني كنت حقا سأكتبُ مقالات وأذيّلها بأحد هذه التواقيع ، وربما بتوقيع آخر ، بعدما ترفض نشرها الصحافة الحزبية وتلك المنفلتة (هما وجها دينار الذهب ، كما سيقال في مقاهي اليشن ، بعدما يرجع المشيعون من إيشان أم الهند ، حيث يدفن الأطفال ، كما سيعرض صاحبي لذلك في قصة : «أليشن - يوم من تاريخ مدينة منسيّة») . والسبب في ذلك أن اسم «مِتْعِب المَطْرود» يدلّ - فعلا - على تهكم فريد حيال الصمت الذي اختاره أجدادنا الأحرار في حضرة ميشون ، حيث يتعلم الأطفال الحكي المنتظم ، مع قطع قُلَفِهم ، ولذلك كان صاحبي يقول : ولدنا وقد فسدنا تماما ، مثل إحدى مقامات الحريري ، التي جرى الاشتغال عليها مرات ومرات ، حتى غدت نصا بثلاثة أبعاد .»

«وربما يقتضي الإنصاف بعض الإيضاحات ، وهذا ما أزعم أن المقامات المضافة ، التي أعطيتها أرقاما أخرى مستقلة ، هي ايضا مقابسات .

«حكايات ومقابسات : سَرْدٌ في سَرْدٍ وَمِنْهُ ، وسَرْدٌ عَليي سَرْدٍ وَفِيْهِ» .

تلك هي الكتابة . .!

مقامة: ٥٦

«المقابسة الأحيقارية»

«أحْصِ أقوالَ فَمِكَ ، ثم أطلقها نصيحةً لأخيك . إنَّ دمار الفم ، أشدُّ خطراً من دمار الحرب» .

«إنَّني ذُقْتُ الحنظلَ وكان طعمهُ مُرّاً قاسياً ، ولكنْ لا يوجد أكثر مرارة من الفَقْر» .

«رَفَعْتُ الرَّمْلَ ، وحَملتُ المْلحَ ، فلمْ أجد أثقلَ من الدَّيْن» .

كأنه خطاب علي بن أبي طالب . وكان أحيقار أحد الهرامسة . وأنت تعرف هرمس الهرامسة ، هكذا قال الخالدي ، بعدما ارتدّت إليه يده بيضاء .

غير أن هذه النصوص المُستلّة من صحائف الحكيم الآشوري : «أحيقار» ، تحيلنا إلى وحدة العقل والضمير في ثقافة مجموعة من الحكماء تزخر بأسمائهم كتب الحضارات البشرية ، من شرق هذه الكرة إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها .

وهي ، إنْ نحن ذهبنا مع نظيراتها في صحف هذا الحكيم الذي كان من نينوى ، سوف نتوقف أمام لافتات ورايات كان العالم القديم يزخر بها ، بينما هي في الوقت ذاته البناء الفوقي لكتلة اجتماعية ونظام اقتصادي وشكل من أشكال السلطة السياسية .

إن المدونات المُرحّلة إلى أيامنا هذه من فترة حكم الملكين الآشوريين : «سَنْحاريب» و«أسَرْحَدون» ، بتوقيع الحكيم «أحيقار» ، تكاد تكشف عن جذورها الممتدة عميقاً في بابل وأور وميشون ، وكذلك عند الكنعانيين .

إنها من مدوّنات إيشان أبو الذهب .

بيد أن حكمة «أحيقار» الآشوري الذي تعرف إليه بعض أبناء

الصفوة السياسية الكلدو-آشورية ، لا تزال كأنها موجهة إلى أبناء ما بعد القرن الحادي والعشرين الميلادي ، لأنها ذات طابع غير بشري كذلك . وهو ما كان يرتاح خلف قناعي الأبدي .

إنها صياغة مُعادة ، ولكن باللغة الآرامية ، لكل إنجازات حضارات وادي الرافدين في عهودها الموغلة في القدم ، وهي أيضاً مرادفات أخلاقية للنصوص المنزلة على أصحاب الرسالات الإلهية التوحيدية ، قبل أن تنتهي عند ابن عبدالمطلب . (**لاحظ : هنا تحايل مكشوف على الخفير الإعلامي**) . لأن الحديث ـ لكي يكتسب طابعه التاريخي العلمي ـ عليه أن يتوقف عند «ماني» و«أنكيدو» حيث يتذكر الناس أصحاب الأسماء الحسنى ، الذين منهم سلطان الخالدي .

وهناك من يقول إن «أحيقار» كان أمين مكتبة الملك الآشوري : «أسَرْحَدون» ، وهو ما يحتمل التصديق ، لأن ملوك العراق القدماء كانوا يتخذون من الأدباء المبرزين والشعراء المتفوقين والحكماء الجهابذة ، مستشارين لهم يرافقونهم في حلّهم وترحالهم ، أو يعكفون بالقرب من عروشهم . وهناك من يقول إنه «النبي» غير الظاهر ، لـ«رسول» قائم في أيامه ، كان مخفياً .

والمسألة الأثيرة في هذا المشهد الغامض ، أن هذا التقليد ألْيِشنِي القديم جداً ، كان شأناً عراقيا ، خصوصاً في عهد خلفاء بني العباس : قال نقيب الطالبيين ، الشريف الرضي ، في حينه : لهم كرسي الإمارة ، ولنا إمارة كرسي القدرة .

ونقل علماؤنا أن الحكيم «أحيقار» ، هو الذي قال قبل سقراط : «أعرف نفسك» ، «وأعرف النفطتار ، تعرف عدوك» . وشاهد كلامي ، أن المواطنين أليشنيّين أحوج الآن ، وكما كانوا في أيامهم

الماضية ، أكثر من أي وقت مضى إلى الإنصات إلى حكمة أحيقار . لأنه لا منجاة لهم من ويلات حاضرهم ، إلا بمعرفة أنفسهم .

أبو علي (حسن) الماجدي
٣٠ حزيران ١٩٢٠

مقامة: ٥٧
هجائيّة ٩ نيسان ٢٠٠٣

ستحتفلون على طريقتكم العربية التقليدية بذكرى احتلال «أيشان أبو الذهب» ، كما احتفلتم ، وكما ستحتفلون أيضاً ، بكل إخفاق من إخفاقاتكم ، وكل هزيمة من هزائمكم ، وبكل نصر ـ أو ربع نصر ـ منذ أربعة عشر قرناً ، بكلام كثير ، وطحن من دون طحين ، وعجيج من دون تراب .

هل سقط «أيشان أبو الذهب» يوم ٩ نيسان ٢٠٠٣ ميلادية بوقوف دبابتين أمريكيتين عند حافة اليابسة البعيدة عنه لدقائق معدودات ، أم إن هذه الكارثة الضخمة ، هي تتويج لمجموعة من الكوارث توالت منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة؟

وهل سقط أيشاننا يوم دخل الجنرال «مود» ، عاصمة بني العباس سنة ١٩١٧ميلادية؟ أو حين وضع الجنرال «غورو» حذاءه العسكري على قبر صلاح الدين الأيوبي؟ أو ساعة احتُلَّت القدس ، وضُمت الجولان؟ أو حين دخل الجنرال شارون بيروت ونصّب من يريد رئيساً على لبنان؟

أم إن إيشان أبو الذهب سقط ، لحظة احتقرتم العقل ، وساعة قدّستم الأصنام ، ويوم قَتَل الناسُ الناسَ على الهوية ، وحين اعتبرتم

الناس كفرة يستحقون القتل ، بوجود الفرقة الناجية الوحيدة؟

لم تتوصّلوا إلى جواب حين اغتُصبت فلسطين ، واحتلت القدس وبيروت وهُدّدت القاهرة . ولم تعرفوا الحقيقة عندما كان يتحكم بمقدرات بلداننا وشعوبنا ضابط مغامر أو مملوك لا يعرف كتابة الرقم (٥٥) .

وحتى هذا اليوم ، لم تقدموا خطاباً سليماً ، وصحيحاً ، ومفهوماً ، وبغير رطانة ، يقول للمواطن العادي ، وللأكاديمي ، وللرجل المريض ، ولعابر السبيل ، . . . . ما هي الممهدات التي سبقت سقوط أيشاننا الحبيب ، وليلة سقوطه ، وما بعد سقوطه . . .؟!

أنتم ، الأنظمة الحاكمة ، أحزاب المعارضة ، شعراء المناسبات ، ليبراليو واشنطن ، شيوعيو موسكو السابقون ، أنصار الخميني ، رجال حسن البنا ، خلفاء عبدالناصر ، تلاميذ بن باديس ، من فوق سطح الرمل إلى ما هو أدنى من قاعدة بئر نفط في بلدان يحكمها الإمام عبدالله بن عبداللاّتي البتروليتاري ، أخفقتم في معرفة سبب هزائمنا ، وفشلنا في تحقيق نصر واحد ، أو ربع نصر ، أو جزء من «دانِق» نصر .

وحين قدم لكم سلطان الخالدي ، نصره المحقق والمعترف به من قبل عدونا ذاته ، قلتم : لا نريد نصرا من رجل أصله من بني كندة ، يعتمّ عِمّةً سوداء .

لا حرب علينا في ديارنا أو خارجها ، إلا والنفطتار سببها الأول والأخير .

تْفوووو . . . . . !

متعب المطرود

٨ شباط ١٩٦٣ميلادية

مقامة: ٥٨

الرصاصة ما قبل الأخيرة

ابْتَسموا .

لم ـ ولن ـ يفارق ذاكرتي منظر «الهندي الأحمر» ، وهو يقف في مواجهة جيش من الغُزاة المستوطنين البيض ، بعدما أرْدي قتيلاً : كانت سبابة كفّه اليمنى تضغط على زناد مسدسه الحربي ، والرصاص ينطلق ، واحدة بعد أخرى ، حتى انطلقت آخر رصاصة من مسدسه ، فكفَّ عن الحركة ، بينما كانت ابتسامة ترتسم على شفتيه .

كان ذلك مشهداً في فيلم أمريكي قديم .

قبل زمن ، ابتسمت سيدة هندية ، بينما كانت تسير ببطء مُتَوكِّئة على عصا من خيزران : امرأة في الثمانين من عمرها ، يغطي جسدها لباسها الوطني ، يقول أسلوب سيرها إنها مريضة . ومع ذلك ابتسمت بوداعة كأنها تقول لي : «في خاطري حركة أخرى لم أجرّبها بَعْدُ ، ولم تجرّبها بَعْد» .

وتجاوَزْتُها مبتسماً .

وعندما احتلَّ الأسطول الملكي الكاثوليكي ، مملكة «الأنكا» في أمريكا اللاتينية ، كما تُعْرفُ الآن ، وتراجع السكان الهنود أمام نيران الجنود الغزاة ، حوصر أحد أمراء المملكة في قصره . وفي النهاية وقف أمام قائد الجيش الغازي مبتسماً .

سأل قائد الأسطول الكاثوليكي : «لِمَ تقاتل وأنت تعرف أنك ستموت؟» .

ردَّ الأمير الشاب : «كيف ستتصرّف إذا ما كنت في موقفي؟» .

وسكت أمير البحر الغازي احتراماً لرجل لا يملك إلاّ ابتسامته وسط الشدّة .

وأخبرني صديقي الراحل سامي أحمد العبّاس : «كنّا في «قصر النهاية» عندما فوجئت بـ«صدام حسين» أمامي . قال صدّام : لِمَ لا تعترف يا سامي . كل مجموعتك اعترفوا ، حتى كبيركم؟ فقلت له : ماذا ستفعل لو كنت في مكاني؟

حينها غادر صدام غرفة التعذيب» .

وفي أصعب لحظاته ، كانت الابتسامة لا تفارق وجه صديقي العزيز الراحل «أبي وميض» .

وأمام «أسد بابل» التاريخي ، صَوَّبَ جندي أمريكي بنْدقيته الحربية نحو وجه الأسد الحجري ، الذي كان يبتسم في وجه جندي غازٍ .

وقال ضابط أمريكي اسمه العقيد «جون كولمان» ، كان رئيس أركان القوة الأمريكية التي دخلت مدينة الحلّة ، بعد أيام على بدء غزو العراق ، إنه على استعداد للاعتذار للعراقيين عن الأضرار التي تسببت بها قواته للمدينة التاريخية العريقة .

ولم يكن «العقيد» يبتسم . كان «أسد بابل» لا يزال يبتسم ، كما هو منذ قرون ، بينما عراقي نبيل يتحسَّس جيبه ، حيث رصاصته ما قبل الأخيرة . وكأنه يتكلم مع إيلوار :

ابْتَسِمُوا .

ابتسموا ، كما ابتسم عطا الميساني[(٥)] ، وكأنه كان يُنشد :

« . . . على مخبأي المهدوم/على مناراتي المنهارة/على جدران سأمي /اكتبُ اسمكِ

على غياب بلا أمل/على الوحدة العارية/على درجات

البيوت/أكتبُ اسمكِ/ على العافية المستعادة/على المخاطرة الضائعة/على الأمل بلا ذكريات/أكتبُ اسمكِ
بقوة كلمة
أستعيدُ حياتي
وهلْ وُلدتُ إلاّ لأعرفكِ وأسميّكِ
يا حُرِيّة . . .»(٦)

ابتسموا ، فثمة سومري في إيشان أبو الذهب ، سيهوس بوجه جنرالات أمريكا ، بينما سبابة يده اليمنى تشير إلى سُرَ مَنْ رأى :
أكْحَيْلْ أمْصَلْصَلْ مِنْ عَمَّه أُوْخالَهْ

شايع الشرقي
١٥ شعبان ١٤٤٤

هذا بيان للناس
لم يقرأ قومُ اليوم ، ممّن يدّعون أنهم على غرار أولئك المهندسين ، والشعراء ، والبنّائين ، والمحاربين ، والسيّدات اللاّتى كُنَّ خلف الشباب السّعديّين والأشراف الحَسَنيّين ، والبربر أيضا ، والذين قدّامهم كذلك ، وصانعي الآلات الموسيقية في جنوب اسبانيا ، سرديات (أيشان أبو الذهب) . أمّا أفراد «القوات الخاصة» الذين يرابطون في غرف الفنادق ذات السبع نجوم ، تلك الفنادق التي نبتت فوق أرض بلدان العار مثل الفطر ، في بلدان النِّفْطتار ، فلا علم لهم بتلك السرديات ، أو تلك المقالات ، وإن ادّعى بعضهم أنه أخفاها في صناديق أعراس أمهاتهم . تلك فِريةٌ كبرى .
أما سلطان فقد كان يتذكر جده .
كان سلطان قد كتب رسالة ، على غرار ما كان يكتب جده أبو

إسحق يعقوب الكندي ، جعل لها عنوانا : «مَفْهُومُ الشَّنارِ وَشَقِيقُهُ العارِ في بلدان النِّفْطتار» . . ، سيلفتكم فيها النص التالي :

«أحْصِ أقوالَ فَمِكَ ، ثم أطلقها نصيحةً لأخيك . إنَّ دمار الفم ، أشدُّ خطراً من دمار الحرب» .

«إنَّني ذُقْتُ الحنظلَ وكان طعمهُ مُرّاً قاسياً ، ولكنْ لا يوجد أكثر مرارة من الفَقْر» .

«رَفَعْتُ الرَّمْلَ ، وحَملتُ المِلْحَ ، فلمْ أجد أثقلَ من الدَّيْن»

«كان هذا بياناً بيّناً إلى الناس .

غير أن المفاجأة كانت أنني لم أجد كلمات من قبيل «كتاب الرمل» ، أو «الخطاب ما قبل الأخير للساموراي الأخير» مذكورة في تلك الرسالة ، كما هو غير مذكور هنا . لقد وجدت عددا من المصطلحات والعنوانات و«المانشيتات» ، التي كانت مقروءة لدى أجيالنا الحاضرة ، من قبيل : (ما يفلّ الحديد إلاّ الحديد) ، (نَفْطُ العَرَب للعَرَب) ، (نُريدُ خُبْزاً لا رَصاصاً) ، (بِلادُ العُرْبِ أوْطاني ، مِن الشَّام لِبُغْدانِ) ، على غرار قيادتهم الدراجات النارية السريعة فوق طعوس الرمل .

هذا بيان للناس

يا أهل اليشن ومزون وطبرق ونجد وعبدان وجرجوج وداس :

ستأتي عليكم أيام سمانٌ تأكل أيامكم العجافَ ، ويطاردُ بنيانكم أعنَّةَ السموات ، فترقبوا علامة في السماء ، في ليلة حمراء ، تأكل فيها الأم وليدها ، وتبول عامتها في تالياتها على علمائها ، وتكون الكلمة فيها للنفطتار .

يا لُحَمَتي : زرعتم فأكلتم .

سلطان ، كان يتحدث عن فقْه الثروة . الثروة وليس الفلوس .

الفلوس هي الفلوس ، أما الثروة فهي الإنسان . وفي حقيقة الأمر فإن الخالدي عندما رحل إلى لبنان ، كان يريد حلّ معادلة : (الفلوس ـ الإنسان) . وأكيد ، أنا صاحبه الذي سأحمل جسده المائت إلى مطيّة الإسعاف التابعة لتلك المنظمة الصحية غير الحكومية ، إن سلطان كان يكتب تاريخ قلبه الذي نبتت على حافاته أدغال كثيفة ، كانت بداية صمته الصاخب ، وهو يستمع إلى حكاية جدته «خديجة» حين كانت تهبط من الجبل الأسود ذات شهر امتلأ رعبا وقحطا» .

قالت خديجة : «من عتمة الفجر إلى عتمة الغروب ، في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر ، كان ثمة فهد يرى بعض الألواح الخشبية . . . . الخ» .

اعترضتُ أنا قائلا : «يا سلطان . . هذه بداية السطر الأول ، من المقطع الأول» ، من قصة : «الجحيم ، ١ ، ٣٢» تماما . وإنه لمن المفيد لأولئك الذين يريدون معرفة أسرار هذه «الحكاية الرمزية» ، حسب وصف بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمداني (إن شئتم ذلك ، وهو أمر هيِّن) ، أن يعودوا إلى قراءة كتاب خورخي لويس بورخيس : «مختارات الفانتازيا والميتافيزيقا» .

ثم قال ظِلُّ سلطان ، بعد حقب ، وهو يتقنَّع بقناعه ما قبل الأخير : السرد سيّد نفسه ، وستقرأ مقامات لصاحبك ، سيكتبها تحت عنوان : «ذاكرة المستقبل» ، ليقول لك : لا تَجْنيس في السرد . . .»

ثم نهض سلطان الخالدي من قبره الرملي ، أو أنه استيقظ بعدما كمن دهرا في منابت الجبال السود(٧) ، ليقول : «يا جمال الدين أبا يسار ، يا صديقي ، أنا ، بينك وبين بورخيس ، ومع

صاحبك ، أتَهكَّمُ ، وأتَهكَّمُ ، وأتَهَكَّمُ ، لأقول في نهاية المطاف : «الشجاعة تقود إلى النجوم» . وأدنى كفه اليمنى من وجهه .

قُلْتُ : سُلطان ، تبدو مثل الحُسَيْن .

– أنا الحُسَيْن ، يا أبا يســـار . . .!

ثم عاد الخالدي إلى لحده الرملي ، بعدما نزع قناعه .

وحين هبط المساء ، رويدا ، رويدا ، على خط الأفق البعيد ، حيث اصطبغت مياه البحر بلون كحلي خالص ، وأطل قمر ميسان على أيشان أبو الذهب ، وبينما كنت أكتب على أديم رمل ذهبي بين اليابسة والماء ، عند خان العرب ، هذه الكلمات : «من عتمة الفجر إلى عتمة الغروب ، في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر ، كان ثمة فهد يرى بعض الألواح الخشبية . . . .»

استيقظتُ . وأدركت تماما أنني خرجت من جوف ذلك العصر البعيد .

– (*) : رأيتُ محواً في بعض من سطور المخطوطة ، فهي تبدو عتيقة جدا ، وجرى تداولها بين أيدي كثيرة . وقد يكون ذلك أدى الي إبدال في أرقام بعض التواريخ . وأرجِّحُ أن السنة المقصودة هي ٢٠٠٣ ميلادية .

– (**) : (العَلاةُ هي لبُّ المشكلة) .

– (***) : سيتضح لاحقا ان المقصود هو : بورخيس .

(١) « . . . يبدو أنني أُشير ـ أو هو كذلك فعلا ـ إلى أن الراوي ، أو الحاكي ، أو السارد ، الذي سيُظهر هذه القراطيس على الملأ ، سيكون الكاتب جمعة اللامي ، لأن «الْلّيشِنْ» سترتبط به من ناحية «فقه الكتابة» ، من دون خلق الله . اذْلم ـ ولن ـ يسبقه كاتب إلى اكتشاف إقليم ميساني بهذا الاسم ،

وبتلك التفاصيل ، كما سيوضحها في كتابه الموسوم : أآلِيشِنْ ، الذي ظهرتُ فيه أنا ، كما لم أظهر من قبل ، في قصة : «كيف أُغتيل جمال الدين أبو يسار» .

«وكما ظهر في كتب اللامي اللاحقة ، فإن أبا يسار ، أحد أقنعتي ، تماما كما هو يسرد بعض حكاية الّنْفطتار ، استنادا إلى تلك المنطقة المهملة ، التي سَيُسَمِّيها أهها : «العَلاة» أو «الرُّمَيْلَة»

(٢) وتلك «أشهر من نار على علم» ، بعدما ورد ذكرها في «حكاية بئر ذات العلم» للمحقق الفقيه حجة الإسلام الإمام أبي الكلام الماجدي ، حيث أثبت بالدليل القاطع ، والبرهان النيِّر الساطع ، أن «باءَ البَسملة» هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وأنه ـ عليه أفضل الصلوات والتسليم ـ كسر «باب ايشان ام الهند» (وطارد الجن والعنافيش والآفات ، فكسر شوكتهم ، وأخذ منهم العهد والطاعة لرب العالمين ، والتصديق بنبيه عليها أفضل الصلوات والتسليم ، وأخَّر نفيرهم إلى اليوم المعلوم ، بعدما تحين ساعة ظهور القائم بأمر الله في آخر الزمان) .

٣) تلك حكاية يشوبها بعض الغموض . تماما كما هو غامض أمر هذه المياه الزرقاء التي تَتَبَطَّحُ ، بجوار دجلة ، بُعَيْدَ كور واسط ، جنوبا ، باتجاة دَسْتميسَان والمَذار ، حيث الكائنات المسوخ المربوطة في أغلال من قار وحديد . فَمَنْ سيطرَ على هؤلاء الجن وحبسهم تحت مياه أيشان أبو الذهب ؟ هناك من يقول إنه الملك سليمان عليه السلام . وثمة من يزعم : لا دخل لسليمان النبي في هذا الأمر ، وإن والد سلطان الخالدي (وهذه حكاية غامضة أخرى أيضا ، لأن والد سلطان الخالدي ، من إقليم صحار العماني . ولعل الانجازات العلمية ستخبر أحفادنا ذات عصر ، بأن أهوار ميسان كانت مثابات لأولئك المطاردين الناجين من قلعة الجلالي) هو الذي طارد الجن والعنافيش بين أجمات القصب والبردي ، حتى تمكن من دفعهم إلى ذلك اليِشَان الترابي ، وهناك خيَّرهم بين الهلاك وبين العيش في حكم ذاتي . ونقل هؤلاء روايات غير مكتوبة ، بل منقولة عن رواة

قَبَلِيَّن ، أن والد سلطان الكندي ، قال : قَبِلَ أكابرُ الجن وكبراؤهم بمقالتي ، واختاروا الخيار الثاني ، ولكنهم عرفوا بعد مدة وجيزة أنني لم أكن سوى إنسيّ من طين ، فلم يجدوا ما يفرج عن كربتهم إلا البكاء الذي يسمعه كل من يمر بجوار أَيْشَانِهِم .

وهذا ما سجله حفيده أبو إسحق .

قال أبو إسحق ، والله خير القائلين ، إنني رجل جعلت من العقل إماماً على كل شيء ، وفي كل شيء . وصدق الشاعر حين قال :

كَذِبَ الظَّنُّ ، لا إمام سوي العقل

مُشيراً ، في صُبْحهِ والمساء

وعندما أعملت عقلي في مسألة أيشان أم الهند ، كما تقول به العامة ، عن غزوة أيشان أبو الذهب ، حسب جدنا الأول ، وجدته شأنا لا يستقيم مع العقل ، وإن العامة الذين يطرحون كل مشاكلهم على غيرهم ، صدقوا اختراع ذلك الجد الذي اكتشف اللعبة مبكرا ، فأراح واستراح .

ولبّ الحكاية ـ يقول أبو إسحق الكندي ـ هو قضية الذي سيعرف بـ : «النفطتار» ، في آخر الزمان .

٤) إيشان السَّيِّد سْفَيِّحْ : على الطريق بين العمارة والكحلاء ، يقع تل سْفَيِّحْ . وهناك أيضا مرقد السَّيِّد سْفَيِّحْ (قدس سره الشريف) . وأخبرني الناشط الماركسي أبوهارون موسى ، الذي تحول إلى شيوعي بعد ذلك ، ثم طرد من الحزب قبيل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، تحت تهمة : «ميوله القومية العربية ـ وتطلعاته البتي بورجوازية» ، أنه أسّسَ ومجموعة من الفلاحين من أبناء ريف العمارة ، وبإشراف المبلّغ الشيوعي يوسف سلمان يوسف (فهد) ، ما عرف في حينه بـ«جمعية أصدقاء الفلاح» التي أشاعت الفكر الماركسي بين صفوف الفلاحين والمدرسين والجنود ، في ريف الماء الميساني .

وفي تَلّ سْفَيِّحْ هذا ، صنع جمعة اللامي إطار شخصية «حكمة الشامي» ،

عندما التقاه هناك وكان عمره عشر سنوات ، فقال له حكمة الشامي : وأنت أيضا ستكون من ضحايا «ونسة» بنت الصياد جَبّار القُصَيْرُون ، في محلة الماجدية بمدينة العمارة .

وثمة حكايات أخرى عن تل السيد سفيح ، إحداها أنه من اختراع أحد الملحدين ، وهذه قصة طريفة . فقد جاء في خبر تلك القصة أن شابا سكيرا لا تعرف مدينة العمارة أصله وفصله ، وقف على التل ذات يوم ، وخاطب الناس : تقولون إن هذا السيد ، له شارة تعبر شط العمارة ، وأنا أقول إنه لا توجد له شارة ، وهو لا يستطيع العوم في شبر ماء من شط العمارة . فهاج الناس وماجوا ، فما كان من ذلك الشاب (عرفت بعد أن اسمه غريب المتروك) إلا أن يقول : ها إني أبول على قبر السيد سفيح ، فإذا أصاب حشفة (زاء باء ياء) أي احمرار ، آمنتُ بتقوى هذا السيد .

ولم يجد زوار الضريح المقدس ، أي احمرار على حشفة أيْ . . .ر ذلك الشاب ، عندما فتشوه وهو فاقد الوعي ، في إحدى نوبات سكره . والله وحده العالم ، والمطلع على خفايا الأمور .

(٥) هو جمال الدين أبو يسار . و لمزيد من الضوء تُراجَع مجموعة «اليشن/ قصة : كيف أُغْتِيلَ جمال الدين أبو يسار» .

(٦) عطا الميساني : شهيد مدينة العمارة المعروف ، قتل برصاص أحد العملاء الحكوميين السريين في أثناء إحدى المظاهرات التي شهدتها المدينة ، قبيل إطاحة النظام الملكي سنة ١٩٥٨ ، وقد شهدت عملية اغتياله بعيني الاثنتين ، فقد انبثق من بين مجموعة من الطلاب ، وأخذ يهتف : يسقط الوصي ، يسقط نوري السعيد ، ثم انطلقت رصاصة من مسدس الشرطي السري جاسم الرَّطان ، الذي يعمل سائق عربة نقل الراقصات في ملهى العمارة الكبير ، ليلا . . . ثم نشغت الطالبة الفَيْليّة خلود الملاّ زيارة : سُودَةْ عَلَيَّ غِدْرَوا بعطا .

غير أن المثير للتفكُّر هو القدرة الكبيرة التي يمتلكها جمال الدين أبو يسار ، على

استبصار المستقبل ، فيسجل مقطعا من قصيدة بول ايلوار : «أسميك الحرية» ، التي كانت تاج المقاومة الفرنسية ضد الغزاة النازيين الألمان لفرنسا ، وهو في ذلك العالم البرزخي البعيد جدا عنا .

وتلك مسألة تمثل الخرزة الوسطى في كشوفاتي الشخصية .

(٧) الجبال السود : موطن قوم سلطان الخالدي ، ويقال لها رؤوس جبال الشحوح والعرب ، وتُعْرَف بأنها أوكار العرب . ولمزيد من المعرفة أنصح بقراءة كتاب : «النصيحة الذهبية في معرفة بلاد الشحوح» للبحاثة البريطاني إدوارد كامبل .

٢٠٠٨

الطربوش

كان الطربوش يهز ذيله المتدلي على جبهة الرجل الذي يفصله عني شارع ضيق ، ثم نافذة نصف مضاءة ، حين غادرت فندق «الحياة السعيدة» ، قاصدا ساحة السوق الكبير في مدينة مراكش ، بعدما كنت على موعد مع أحد الحواة الذي استدرجني إلى سكيك فرعي ضيق ، حيث قام بنزع طربوشه التقليدي من على رأسه ، فبان وجهه أمامي مثل رأس أفعى . «خُذ . . هو ينتظرك» . قال الحاوي .

في اليوم الثاني من زيارتي تلك ، مررت بالقرب من النافذة نصف المضاءة ، فشاهدت ذيل طربوش أحمر يتحرك يميناً وشمالاً ، ولا أحد غيري في هذه الساعة من هذا الفجر ، يمرق أمام واجهة الدكان الذي يعرض أنواعاً من الطرابيش العثمانية . «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» . رفعت كفي اليمنى نحو الطربوش .

في اليوم الثالث ، وحتى اليوم الأخير ، كان ذيل الطربوش يتحرك يميناً وشمالاً ، إلى أعلى وإلى أسفل ، ويعود ينسدل على جبهة الرجل ، حين أكون على الرصيف قبالته ، أو في منتصف الشارع الضيق الذي يقودني إلى مسجد الحي وخمارته ، فأردّدُ في سري : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» .

وفي اليوم الرابع ، عنّ لي أن أرتاد خمارة الحي ، حيث أستطيع هناك ، بين أناس لا أعرفهم ، ولم يروني أبدا ، إعادة ترتيب أوراقي

بصدد كتابي الجديد «التاريخ السري للحاوي الأول» ، الذي كانت فكرة كتابته تعود إلى صديقي الأثير «عمران العمراني» ، الذي كان حاويا محترفاً ذات يوم ، ثم عدل عن هذه الحرفة ، بعدما فقد طربوشه الأحمر ، حين كان يرتاد خمارة لا يعرف فيها أحدا . وهكذا حين دلفت إلى داخل الحانة ، فاجأني الظلام الشفيف في جنباتها ، وذلك الصمت المريب الذي أحاطني من الجهات كلها . اخترت زاوية قصية في ذلك الفضاء المستطيل ، وجلست تحت لافتة مكتوب عليها «ممنوع الغناء بأمر مدير شرطة الآداب» . جلست وجاء النادل ، فطلبت كأس نبيذ أحمر محليا ، ثم حانت مني التفاتة إلى اليسار قليلا فشاهدت هيئة رجل لم أتبين منه سوى طربوش أحمر فوق رأسه . أومأ الطربوش بكفه اليمنى مرة ، ثم أعاد حركة كفه اليمنى مرة ثانية ، ثم أومأ بكفه اليمنى للمرة الثالثة ، فتأكد لي أنه يشير إليَّ . أنا لا أحبذ أي دعوة من شخص لا أعرفه ، لا سيما في الخمارات المحلية ذات الطابع الفلولكلوري ، فقررت مع نفسي أن أغادر هذا الفضاء غير حسن الإشاءة . وما أن خطوت خطوتين حتى سمعت صوت الطربوش ينادي عليَّ «على راحتك . ولكنك لن تهرب مني أبداً» . استدرت إلى الخلف بسرعة فلم أجد أي أثر للرجل صاحب الطربوش ، ولكنني شاهدت ذيل طربوش أحمر يمرق خاطفا ، وثمة صوت يقهقه في أذني «لن تهرب مني» . وهذا ما كان فعلا .

ثم حدث ما حدث في اليوم السادس . استيقظت على صوت إمام المسجد ، ينطلق من مكبرات الصوت في المنارة التي تشرف على الخمارة : «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» . وجدت جسدي يقابل جسدي الذي تظهره المرآة الكبيرة أمامي ، أقولُ :

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» . أعدتُ النظر في هيئتي التي قبالتي في المرآة . كنت لا أزال في بداية يقظتي ، كأنني أواصل رؤية حلمي الذي لم ينفك يرافقني ، طيلة هذه الأيام الستة في الغرفة رقم ١٢ في فندق «الحياة السعيدة» المراكشي الأشهر .

والآن ، أنا أكتب ما شاهدته في يقظتي أيضا ، وليس في حلمي المتواصل فقط . كان ثمة في أبعد نقطة في عمق المرآة ، رجل قصير ، بل قصير القامة جدا ، يغطي طربوش أحمر جبهته ، ويتوقف عند حاجبيه ، يتقدم نحوي هادئاً ، متزناً ، يتوكأ على عصا ، ويرسل نحوي بصراً كليلاً . عَبَرَ الرجل حاجز المرآة ، وهبط على أرضية الغرفة رقم ١٢ في فندق «الحياة السعيدة» الفلوكلوري ، وتقدم نحو سريري ثلاث خطوات ، ثم توقف تماماً ، وأخذ ينظر إليَّ ، رافعا كأسه بكفه اليمنى ، مثل الشخص الذي تهيأ لي أنني رأيته في خمارة البلد ، منشدا كلمات لسعدي الشيرازي ، وثمة صوت خفيض ينطلق من بين شفتيه هامساً : «يا صاحبي الكاتب . . ماذا فعلت بحياتنا؟!» .

«حياتي هي كأسي وخمرتي» .

«أنشد» . قال الطربوش

«ما أنا بمنشد» .

«كلماتي طوع قلبك» .

أحسست بكيان مثل قبة حمراء عملاقة يغمرني تماما ، بينما أخذ لساني يسابق ذاكرتي :

« . . لا سُكْري يَضيقُ بِيْ ، ولا ضَجري يختارُ هجراني
لا نُوري ، لا دَلالي يفارقني ،
وأكواني لا تَستطيع نِسياني .

وحَدْي ، حيثُ لا أحدَ سواي ، في كلٍّ أزماني
أُهاجِعُ مَللي لينساني .
فتعالَيْ ، يا خَمْرتي ومائي
نذوبُ في الكأْسِ .

كأْسِي الأرضُ وخَمْريَ الماءُ ،
وها أنا ، حيثُ لا أَحَدَ قبلي ، أو بعدي ،
وردة فوق سُرّتكِ يا عَرْشي ومائي ،
أحْلُمُ بِكِ ،
وأمزجُ . . الخمرَ بالماءِ» .

تقدم مني الطربوش خطوتين ، ثم دخل جسمه في جسمي ، مثل ما كان يحدث في أحلامي جميعها . تلك الأحلام التي سردت عليكم أحدها في هذه الرحلة إلى تلك البلدة الصحراوية التي لم أعرفها أبداً ، ولم أزرها أبداً .

الشارقة

الزَّرْقاء دُنْيازَاد
حِكايَةُ الكاعب الحسناء والمَوْلَى العَاقِب مُحَمَّد الكاتب

«حين ناولني عصاه تنفس العماء ،
فأوقفني بباب كوخه ،
وقال : أنت المتن والهامش والعنوان» .
(أنوش)
٢٠ ديسمبر ٢٠٢٠

﴿طاء هاء هو الذي كتب بالقلم وعلمني ما لا يعلمون﴾ .

لم يكن أحد غيري في الصالة : فراغ مستطيل موحش ، مثل رفٍّ في ثلاجة للموتى في نهايته يبدو شاهد قبر . وكنت وحيداً . غير أن شبابي لحني ، الآونة ، فرأيت نهراً صغيراً يخترق الصالة من منتصفها ، فقلت إنني وحيد ، وإنني أحلم ، وهذا النهر ليس سوى جرح صغير . . . (وأي جروح خلّفتها السجون والحروب في قلب أنوش حين يتذكر ليلة المسوخ في خارج كوخ دنيا إيف) وفي ذاكرتي .

لقد أهملت هذه الذاكرة

غير أن شجرة صفصاف طلعت من منتصف النهر الصغير الساكت . الصفصاف لا يثمر ، لكن الشجرة الصغيرة الظليلة قدحت حصاة دقيقة داخل جمجمتي . قلت : ثمة من يسحبني

بنعومة من شغاف قلبي إلى عماء لا شيء فيه سوى الصمت ، فرأيت شاباً يشبه شيخوختي (عندما نادى أنوش عليّ ، بينما كانت دنيا إيف تسحب إلى المذبح الذي . . .) يدلف إلى الصالة من خاف ظهري ، ثم يتقدم كما لو أنه لا يريد أن يراني ، متجهاً إلى الشجرة .

توقف ، هناك ، أعني عند الصفصافة . أخذت حبال رفيعة تطلع من تحت أظفار قدميه وتنساب ، حبلا بعد حبل ، إلى قاع النهر . انتبه النهر إلى صمته ، وعندما نظر إلى الصالة ، رأى شَجرتَي صفصاف ، وشخصاً وحيدا يتحول إلى شجرة صفصاف ، تغور جذورها في أعماق أرضية الصالة ، بينما المسوخ الحمر والصفر اجتمعت على جسد دنيا إيف وهي تفحّ ، وثمة من يتقدم لاغتصابها .

هو كان يراني ، النهر ، شجرة ثالثة . لا بأس . هذا أمر جيد أن أتحول إلى شجرة . راقتني الفكرة ، فشاهدت جسدي يغادر روحي ، ويقف بجوار شَجرَتَي صفصاف .

عندما نظرت إلى النهر ، رأيت غابة ظليلة . غابة خضراء ، تشرق من وراء أفقها البعيد نجمة زرقاء ، تطل على كوخ كأنه مستخلص من بستان في جنة آدم .

***

كان فضاء الصالة أزرق

«سيدي ، أتطلب شيئا؟» . . رأيت نفسي تكلم جسدي .

«سيدي المبجل المواطن ميم ، هل تشتهي شيئاً تشربه الآن ؟» سمعت الصوت واضحا في ذاكرتي : وشعرت بكف تلمس كتفي اليمنى . «ماذا تقولين؟»

«أتريد شيئا تشربه . . سيدي؟» .
تلك غابة سمراء مثل جسد دنيازاد .

«سيدي لا نقدم الكحول في هذه الحانة»

«أشتهي البيرة في المساء . أشتهي الآن فنجان قهوة من فضلك»

«بسكَّر ، حضرة المبجل المواطن محمد الكاتب ؟»

«قهوة أثيوبية» بعد لحظات من الصمت ، تذكرت عددا من شخصيات أيشان أريغا . نعم أريغا ، فقلت : «افتكرت مع نفسي» . «الشامي ، حكمة الشامي . نعم ذلك الكاتب الذي من أريغا ، قاطعتني الشجرة الحبشية بصوتها الرخيم .» «نعم ، سيدي المبجل . ربما يأتي بعد ساعة» .

وضعت مدونتي على الطاولة ، أمامي ، واستغرقت في بذخ من الألوان . . . . .

وغابت الصفصافة (كنا على يقين أن نُدل مقاهي أليشان وخاناتها وحاناتها جنود في هيئة الاستعلامات الوطنية) ثم عادت تحمل صينية في حوضها كوب صيني وقدح فيه ماء . رأيتُني أرى طاولتي مكتظة بأشجار صفصاف صغيرة ، تتدلى من أغصانها أجهزة دقيقة .

قالت الشجرة : «نحن جميعا هنا في خدمتك» .

«أنتم ؟» . سمعت صوتي يسأل .

«السيد الرطّان ، وأنا ، وموظفو المقهى» .

نظرت إلى الصفصافة مرة أخرى ، فرأيت أمامي شابة سمراء ، ربما لم تتجاوز السنة الثامنة عشرة ، ترسل إليّ نظرة مبتسمة . «نحن في خدمتك» . اتسعت ابتسامتها . وفي البار السري ، كنت أرى شبح أنوش حزينا قبالة شبح السيدة دنيا إيف ، خلف أهراءات المدينة البترولية ، مثلما أرى الحبشيات مع أطفالهن في حانة سيدوري . كل حبشية بمائة درهم . وفي الهزيع الأخير من الليل تقول الحبشية الأخيرة : خذني معك إلى شقتك ، لا أريد غير النوم .

أومأت الشجرة الحبشية إلى بقية الأشجار ، على ضفتيّ النهر وفي القاعة أيضاً ، فسمعت أصوات أبواق ضخمة : هووو . . . . . انتهت الحرب ، هووو ، هههوووووو . لا شيء غير أصوات انفجارات في قلبي الجريح ، وذاكرتي المهملة ، وفي بقية جروح روحي ، كأن السجون والحروب لا تريد أن تفارقني .

ذهبت الفتاة ، رأيتها تخترق النهر من منتصفه وتخوض في

مياه زرق ، وتتحدث إلى امرأة ورجل معهما طفل . المرأة تبدو في الرابعة والثلاثين ، والرجل ربما جاوز الستين .(استيقظتُ الآن) . إنه والدها . هكذا أخبرتني الفتاة السمراء (رأيتها تشبه تلك المرأة الزرقاء التي لا تغادر أحلامي) ، وهي في تلك المنطقة سحيقة البعد في ذاكرتي ، حين رأيت آثار جرح غائر على خدها الأيمن . «ماذا فعلت بك السجون والحروب ؟ ماذا فعلت بك دنيازاد؟» همس جسدها لروحي .

حملت صينية القهوة من فوق المنضدة ، وتركتني إلى طاولتي . ثم رأيت الشابة السمراء تجلس إلى طاولتي الأبنوسية .

«انتهت نوبتي في العمل ، وأنا ـ الآن ـ حرة» .

كان عنوان الكراسة واضحا ومشرقا . «أهلا بك . ربما تجدين سلوى في هذه الكراسة» .

وأشرقت النجمة الزرقاء مرة ثانية في ذاكرتي ، فرأيت أني دعوت الشابة السمراء إلى مائدتي . نظرت إلى الساعة المدوّرة التي يحيط حزامها الجلدي رسغي اليمنى ، فلم أرَ العقربين (كانت تشدّني إليها ، وتلدغني عند منحري هامسة : «ادفعه كله» ، لأجد سمكة تلبط تحتي) .

«أين أنا ؟»

«بين ذراعيك» . لفح سنا تنفسها وجهي . رأيت الانفجارات ، وسمعت الأشجار مضرجة بدمائها (ورأيت النهر الصغير الساكت على خد الفتاة الزرقاء)

* «من أي الأشجار أنت ؟» .

«أنا دنيا إيف» .

(رأيت دنيازاد تقفز على طُوف دارنا ، وتتقدم إلى فراشي الذي بسطته على حوش المطحنة المهجورة . التوت مثل أفعى ، ثم تأوهتْ : «سَوْني مثل الفرس اللّي تُعْبُرْ الشَّطْ» . جذبتها نحوي . همست «خَلّينِيْ أَدهْنَكْ بْمَرْهَمْ القَرِنْفِلْ والهِرشْ حَارْ» . دَهَنْتُهُ . (قلت : يا بنت الجنيّة) . اتقدت حمم الجرح الذي تحت عانتها . ثم دارت برأسي الأرض في مشهد من الانفجارات التي لا عدّ لها) من الأصوات .

«من جاء بي إلى هذا المكان؟» .

«أنا» .

ناولتني دنيا إيف سيجارة من علبة فضية : تفضّل (قالت دنيازاد وهي تدخل يدها إلى عمق جسدي «لفْني لَفَّة الجكاره» كان جسدها ضاجًا بملمس مسحوق المسك ، ومبهّراً بروائح الدارصيني والكركم والهرش حار وجوز الهند والحبّة السوداء

«مشكورة» .

* I am sorry sir

رأيت جسد دنيازاد يغادرها ، بينما بقيت واقفة شابة سمراء .

yes sir. can I serve you ?

كأنني رأيت هذه الفتاة ، «دنيا إيف» ذات السحر الحبشي ، في حانة الرطّان ، حيث كان شبح أنوش ، بعدما عدت من حلم طويل ، طويل جدا) .

«هذا المكان قبر ، زنزانة ، أم خندق ؟» ، سألني صمتي .

«مقهى ، يا سيدي . «مقهى الذاكرة» لصاحبه ، الوجيه المحسن ردّام الرطّان» .

«لكن ردّام الرطّان ، هو كبير قوادي صاحب «ملهى الفردوس» في أيشان أبو الذهب» .

وكأن الفتاة لم تسمعني : «إنه بطلنا ورمز عزتنا (ونادى عليَّ صوت من بعيد : شاجور إيْجِرْ شاجور) . «هو لا غيره ، الأكثر حماسة لتأييد المعتوه» مغموم بن مجَيِّد «في حربه على محلة أبو الذهب» ، بعد أن عقد حلفا مع مسوخ بني الأحيمر وبني الأصيفر (وسمعت قلب الفتاة يرعف خوفا ، ثم رأيت كابوسي الدائم يتقدم نحوي من تلك الليلة البعيدة) أسرعت «دنيا إيف» راكضة ، ودلفت إلى غرفة مستطيلة عبر باب مستطيل ، عبر الجدار . سمعتها تتحدث إلى رجل بدين ، ثم خرجا معاً . اتجها نحوي . جلست الفتاة على كرسي يقابلني ، وبقي الرجل البدين واقفا .

«أيها السيد ، من الأفضل أن تغادر المقهى» . (سمعت صوته خشنا) ، ثم أردف بنبرة زاجرة ، «أنت تثير ذكريات زبائننا» .

وقفت الفتاة السمراء بجوار الرجل البدين : «سيدي ، الطفل مذعور» .

« لماذا؟» .

«ألا ترى جروح وجهك ؟ . رأيت إلى الرضيع الذي زحف نحوي ، فارشا ذراعيه :

«يا ابنتي ، هذه شجرة سدر أيضا» ، قال أبوها .

«ماذا؟» . سألت الفتاة هلعة .

التقطت ذاكرتي من السجن ، من الخندق ، من القبر ، أو من عمق النهر ، ثم باغتني صوتي القديم :

«دنيا إيف ، بَيْنَ عَيْنَيَّ ، في كُلِّ الاتجاهاتِ ،
أرى ذكرى ابتساماتكِ على ردن قميصي ،

فتعودينَ من سفركِ الطويلِ ، كما أنتِ مِثلَ بُلْبُلٍ أخْرَس . . .
ها أنا أراكِ ،
أمينة مثل مِقبضِ بابِ حُجرتنا» .
كانت أشجار الصفصاف قد اتخذت أمكنتها على الكراسي البيض ، تستمع إليّ وأنا أنشد لنفسي :
يا بُستانَ شَيبتي وضَوءَ عُتمتي
يا عَصايَ في شيخوختي
أنا بُلبلك الأعمى ،
أطير نحو كوخنا بِجناحيَ الواحدِ ،

الهزاران والقفص الذهبي

٨ أبريل ٢٠٠٣

أتذكر ذلك الصباح الذي قال شيوخنا وسحرتنا وأعياننا إنه لن يأتي إلى مدينتنا أبداً . لكنه عبر جسور المدينة السبعة ، ووصل إلى حجرة نومي ومكتبتي في داري ، (حين تُسْدل أستار النوافذ ، ويفتح الحارسان الخراسانيان باب القفص الذهبي الصغير) ، ليطير العندليب ، أو ليُسحب الوعْل من قرنيه الأبيضين ، نحو آلة الذبح الميكانيكية .

أنت ، الذي اسمه : العاقِب ، ستسجّلَ في مذكراتك المسائية ، أن العندليب طار من قفصه الصغير نحو برزخ النوم الطويل . أو أنه سجل صراخات قلبه ، بينما اثنان من الحراس الخراسانيين ، يحملان جثته إلى المسْلخ .

لكن . لا قدرة لديّ الآن على الإتيان بذلك الذي قال إنه أنوش ، لأجعله يعيد قراءة مذكراته المسائية بين أيديكم (مذكراته

المسائية صنفان . الأول : حديثه مع نفسه . وهذا ما نتج عنه ما وصل إليّ وسميته : نشيد الخطايا . أما الصنف الثاني ، فهو حديثه مع إيفزاد . ومن العجب أن هذه الأحاديث نُسِبَتْ إلى أصدقائه أو صحابته . وبعضهم لم يروه أبدا ، بل زعموا أنهم عاشوا في أيامه - «جمعة اللامي») لأنه ذهب إلى برزخ اللاعودة . كما أنني لا أقدر على مقاومة الحارسين الخراسانيين ، ليس لأنهما قويّان ، بل لأنني لا أستطيع حراكاً .

لقد هَيْمنَ الظلامُ على المكان الذي كان مضيئاً قبل لحظات ، بعدما أسدلت الستائر ، ومشت الخادمة الحبشية على أطراف أصابعها ، بينما كنت أقبض على ذيل آخر شعاع من نور ينزلق من موق عيني اليمنى .

كنت الآن عندليباً خارج القفص الذهبي الصغير ، ولقد كتبت في «سجل القفص» : «إنني عندليب أعمى» . . هذا صحيح من زاوية ما . بيد أنني لم أكن أعمى . ولست داخل القفص أبداً . لكن الظلمة خارج القفص لا تريد أن تمنح نفسها امتياز استقبال ذبالة من نور ، من أجل أن تتأكد أنها هي مُعْتمة فعلاً ، مثل قفص العندليب الذي تحول إلى عتمة صارمة ، بعدما سحبوا من داخله جثة العندليب المُبْصر .

حدثني رجل ما ، هو حسب المواطن ميم العاقب ، رجل ما . لكنه بالنسبة لي هو العندليب والقفص ، فقال : «وضعوا ستارة سوداء على وجهي ، بينما حشوا عينيَّ بقطن طبي مبلول . سمعت نهْنهةً ، ثم تناهى إليّ صوت مطمئن : «الحمد لله رب العالمين» .

تصاعدت قرقعة سلاح ، ثم سمعت صوت رصاصتين . «قتلوني» . قال العاقب . «مَن قتلك ؟» . قال العاقب للعاقب :

صحابتي . هَدأتُ قليلاً . . كانت الظلمة مفزعة ، وجسدي ينقذف داخل تنور لا قـــرار لـه . وفي تلك اللحظات التي لا يمكن أن تُستعاد ، ولا حتى أن توصف ، سمعت مَنْ يُخاطبني . . . «كثيراً ما يَغْفو قلبُ الفانين في قشرة ميتة كالبذرة النَّبيلةِ ، إلى أن يأتي أوانه» .

هذه هي حالة (ما بعد التعذيب) .

وكان ثمة بلبل آخر . شائبٌ . يطل عليّ من قفص رحب ، بمنقار أسود . كان وجه البلبل يشبه وجهي أنا العندليب ، أو البلبل الآخر ، وهو يقول لي ، أو كأنما يخاطب نفسه : «ألا مرحباً بك عندئذ ، يا هدوء عالم الظلال! إنّي لَراضٍ ، وإنْ لمْ يَصْحَبْني عَزْفِي عَلى الأوْتَارِ ، فَلَقَد عشْتُ ذاتَ مَرَّةٍ ، كالآلهةِ .

أنا سليل أنوش ، ابن الآلهة

كنت خارج القفص أستمع إلى شبيهي الآخر داخل قفصه ، وهو يغني . «أعرف تماماً ، معنى أن يكون العندليب داخل قفصه ، أو خارجه» ، ولم يكن العاقب يسمعني . كنت وعلا شيخا نبت له قرنان أسودان طويلان معقوفان نحو الأمام ، استطاع النجاة من المسلخ الوطني ، الذي تتحكم بمرافقه هيئة الاستعلامات الوطنية .

نَشيدُ الخَطَايَا الذي للمواطن محمد الكاتب

٢١-٢٢ سبتمبر ١٩٨٠

بلاد تسير على أربع .

هذه ليست فكاهة اجترحها رجل أنوَكُ . إنها حكاية زمن مشخص ومعيش وواقعي صار جزءاً من تاريخنا الوطني . لقد استقر الوطن على أرجله الأربع . واستفاقت الجغرافيا من رقدة

القيلولة ، ذات يوم رطب وقائظ ، على زعيق الموسيقا العسكرية ، وشعر القرن الأول من جاهلية العرب ، يلقيه على الشعب من الراديو الحكومي ، شعراء مملكة أنوش وكتابها .

تَسيَّسَتُ الجُغرافيا وَتَعسْكَرَت . صارت القدمان الأماميتان ، جنوداً نظاميين وميليشيا سمّوها جيش الشعب . وتحولت القدمان الخلفيتان إلى ما سميناه في ما بعد : «هيئة الاستعلامات الوطنية» ، بعد أن أدت «لجنة العلاقات العامة» مهمتها في تصفية الرفاق الأقربين ، والرفاق الحلفاء ، والإخوة المسلمين ، بينما العجيزة صارت فيلقاً مجوقلاً لقوات تدخل سريع .

أما الرأس ، فقد تمّ إفراغه من تشكيلاته الداخلية ، ووضعوا في داخله جهاز تسجيل متطوراً وسهل الاستخدام ، يذيع أغنيات وخطباً عن معارك الماضي ، ليسدلوا ستاراً من الفن على الأصوات والضوضاء المنبعثة من صالات التعذيب ، وهي طبعاً غير تلك الحجر المقذوفة في عمق أرضية باحاته الغامضة!

ذيل الوطن لم تكن وظيفته طرد الذباب عن دبر هذا الوحش . إنه سوط : امتداد من مسامير صغيرة وشفرات مدى ، قناني سموم وكبسولات للتنويم الفجائي ، خراطيم امتصاص مياه الرجولة ، قالعات الأظافر وقاطعات الأثداء ، أحواض من ماء النار والأسيد ، مقصات لبتر الأذن ، وجدع الأنف ، وبتر أيور الرجال ، آلات عملاقة لهرس جثث البشر تنتهي خراطيمها الطويلة الضخمة عند بداية أحواض الصرف الصحي المطلة على النهر التاريخي . هذا الذيل الخرافي ، بزواياه وغرفه السرية ، يطال كل شيء في الوطن . يطال الرأس . يطال القدمين الأماميتين . هيئة الاستعلامات الوطنية . يطال الذي لا يطال ، لأن فيه مجمع الاتصالات التعبوية .

مجمع الاتصالات التعبوية : شعراء عموديون . شعراء تفعيلة . شعراء قصيدة نثر وزجالون . نقاد . تشكيليون . رؤساء أحزاب سياسية . أمناء عامون لأحزاب مؤتلفة . رؤساء عشائر ، . رؤساء طوائف . أبناء عمومة . رؤساء نقابات ، رؤوس تكايا لضرب الدّرباشة . جنرالات ، جنود ، مخنثون ، عاهرات ، دلالات ، دعاة ، رسامون ، منبريون ، معرفو قبائل . أمّا رئيس مركز الاتصالات التعبوية ، فهو رئيس هذا الكيان .

برز رئيس الكيان من وسطنا . كان يضمر في نفسه شراً مستطيراً . لم يكن قوياً ، ولم يمتلك أسباب القوة ، لكنه عرف أسرار ضعفنا شخصاً بعد شخص وطبقة بعد طبقة ، فوضع يديه عليها ، وبدأ في وضع أولوياته علينا ، هيئة بعد هيئة ، وطبقة بعد أخرى ، وبيتاً بعد بيت ، حتى توصل إلى جعل كل واحد منا يخاف على نفسه من صاحبته التي تؤويه وزوجته التي تعاشره أو ابنته أو ابنه . حولنا بالخوف إلى مجتمع مرعوب لا يملك سوى التصفيق والكذب .

فكيف أعود إلى هذا البلد ؟ بل . . لماذا أعود إليه ؟ وهل هو ، فعلاً ، وطن أنوش لأعود إليه ؟ وإذا كان هو وطني بالجغرافيا . . فهل هو ـ الآن ـ وطني بالحقوق والواجبات؟ تلك أسئلة مشروعة ، ومن حقي إطلاقها ، عندما يتم تحويل الوطن إلى «شيء» يسير على أربع أرجل : كيان جغرافي ، حفرت فيه التكنولوجيا الروسية والألمانية واليابانية والأمريكية والكورية ، دهاليزا للتعذيب ، وتكديس الذهب ، وتدجين السباع الضارية .

لكننا لا نزال نرسم وطننا ، الذي هو عِرق الحياة كما نقول ، على هوانا العاطفي ، كما لو أنه «جنة عدن» . ومن أجله عاد بعضنا إليه بعد رحلات طويلة إلى مناف بعيدة ، حتى من دون نداء ، أو مع مجموعات صغيرة من مقاتلين أغرار لتغييره من الجبل المطل على السهل الكبير .

المواطن «م» عاد إلى الوطن ، بعد أن أنهى تخصصاً في الفيزياء النووية ، فعرضوا عليه العمل في كتيبة المخابرات . والمواطن «ص» فضل أن يمضي إجازة الصيف في مسقط رأسه ، أي أنه أراد أن ينفق مدخراته داخل الوطن بأرجله الأربع ، فساوموه على أن يمضي إجازة الصيف القادم ، في إحدى غرف ذيل الوطن ، إذا لم يقبل العمل في سرية الحراسة المجوقلة .

المواطنة «ك» وجدت نفسها على رأس تنظيم «إرهابي» لأنها رفضت فكرة موظف في إحدىّ غرف ذيل الوطن ، بأن يقضي معها وطراً . والحال أن «ك» فتاة ليست جميلة قطعاً ، كما هي ليست ميسورة الحال . ولكن لأن ذلك الموظف قد تأقلم مع واقع الظلام في غرف ذيل الوطن ، لم يعد يفرق بين الجميل والبشع ، وصار يتصرف كما يشاء ، ينقذ هذا ويقتل ذاك . وهذا ما حصل للمواطنة «ك» .

تبقى قضية المواطن «س» الذي جاء إلى الوطن من بقعة مجاورة شقيقة . فقد ذهبوا به مباشرة إلى رأس الحيوان . وبعدما قذفوا بجهاز التسجيل خارجاً ، أمروا «س» بأن يتحدث ، لا كما يشاء ، وإنما كما يشاؤون .

وإلى هذه اللحظة ، يتحدث «س» لا كما يشاء ، وإنما كما يشاؤون .

وإلى هذه اللحظة يتحدث «س» لا كما يشاء .

وإلى هذه اللحظة يتحدث «س» .

وإلى هذه اللحظة .

وإلى هذه .

وإلى . . . !!

و!

. . دخلت البلد على مرأى ومشهد مما كان يحدث في ساحة مدينتنا : أي بالتصفيق والخطب الحماسية . ثمة جمع من الناس يصفقون . بعض الرجال مثل نسانيس صغيرة ، كانوا يتسلقون أعمدة معدنية طويلة . وكان هناك مطبلون ومزمرون ، غجريات وريفيون وحراس مبانٍ سود يرقصون «الهَجَع» على صوت طبلة صغيرة ، يضرب على جِلدتها وزير الثقافة في مملكة أريغا ، محاطاً بدمى طوطمية تمثل مسوخ بني الأحيمر وبني الأصيفر .

التحقت بكل هؤلاء ودخلت الوطن من بوابته الشرقية ، ويا لهول ما رأيت . كل شيء غلط : الأنهار تجري من الجنوب إلى الشمال ، والنخيل ينمو باتجاه الغبراء ، والبنايات محفورة في الأرض ، والناس يسيرون على أربع . تمنيت على الله أن ينقذني من هذا الوطن ، لا سيما بعد أن رأيت الذبابات الأربع في مواقعها

الجغرافية ـ الفلكية . توزعت الذبابات شمال الوطن وجنوبه وشرقه وغربه . لكل ذبابة عدد غير منظور من الأجنحة . فوق كل هذه الأجنحة وتحتها عشرات الكاميرات والتلسكوبات وأجهزة التنصت على القلوب .

وأنا أتمنى على الله أن ينقـذني من هذا الوطن ، دق قلبي بعنف ، فاكتشفت ذلك إحدى الذبابات . وما هي إلا لحظات حتى رأيت الذبابة الغريبة تنقض عليّ . وبالقسوة ما حدث . كان على صدري جبل ضخم جداً . وكانت الذبابة ترسل إلى قلبي ، من خلال فمي ، سلكاً مزوداً برأس صغير . كانت الذبابة تبحث في قلبي عن شيء ما وتريد استئصال ذاك الشيء توا . رأيت قلبي يخرج من صدري ويركض في الأزقة . وكانت الذبابة تطارده من زقاق إلى زقاق . وانضم إليها كلاب صيد وعجول مسمنة وخنازير محلية وغربان مستوردة ، لكن قلبي كان سريعاً في الجري . . ودقاته سريعة جداً .

« . . واستيقظت على دقات قلبي السريعة جداً» . كنت انتهيت من مراجعة هذه المخطوطة الموجودة في مكتبة جدي منذ قرون وقرون .

كوخ الجدة دنبا إيف

(١)

«وهبتكم إراكا» .

وبقي مستقيماً على عمائه مخلفاً كرسيّه حوله وقال «أنا أريغا يا أنوش . أنت وإيف رسالتي إلى إراكا» .

«إيف؟» .

«بلى هي» .

واستمر يتقدم نحوي آخذاً جسدي إليه فرأيت أريغا يشرق من قلبه وقال«كذلك أنت . هذه لك ولشعبكما يا أنوش لا تفريق بيني وبين إراكا» . وأخذ العماء يتصاعد حتى غمر فضاء غرفة مكتبتي .

«صرتُ العماء وأريغا» . سمعته يتحدث إلى وحدته .

ثم رأيت ما رأيت بعد أن رايته يلتفت إليَّ

(٢)

غِيض العماء في غرفة مكتبتي حتى بانت أرضيتها مثل ياقوتة حمراء ، فرأيت امرأة تندفع من سرتها وتقف بين يديَّ وقالت «أنا إيف» . واقتربت مني حتى التصقت سرتي بسرتها فرأيت نور أبي فيها .

«تعالي نلعب» . قال أنوش .

قالت إيف «لا أعرف» .

«قبليني» .

قالت إيف «لا أعرف» .

أمضى آنوش نهارين متتالين ، يعلم إيف أسرار العناق والتقبيل والجماع ، وهي في حالة لم تعرفها في أي يوم من أيام عمرها الذي بلغ يومين بعد بدء الأزل .

قالت لآنوش : من علمك هذا كله؟ .

«هو» .

«من هو؟» .

«الذي خلقك على عينيه فسواك فبعث بك إليّ» .

عرفت إيف أنها بدأت تعرف أشياء لم تكن تعرفها . لقد اكتشفت قرية كبيرة في قلبها ، لها ألف باب ، وكل باب ينفتح على ألف باب ، فدارت حول نفسها ، ورأت جسدها جميلاً ومطواعاً ، يستقيم في أعلاه رأس كحلي اللون ، على رقبة عنقاء ، ترتاح على كتفين بضتين ، يبزغ من صدرها نهدان كاعبان ، تطلان على بطن مخسوف ، ينتهي بعانة تهيمن على جرح طولي . ومن الخلف تبدو تفاحة عجيزتها مثل ياقوتة حمراء ، ينساب تحتها فخذان عامران .

وكان جسد إيف يصرخ بها : تعال إليّ يا حبيبي .

قال آنوش : سأبني لك بيتاً

نطقت ايف : أشتهي له قاعدة وسقفاً وجدراً بنوافذ تلعب بها الشمس .

وبلفتة منه ، انوجدت أرض مكورة وسماء مرفوعة .

(٣)

هذا بيتك . قال آنوش ، ثم أكمل : احذري مسوخ بني الأُحيمر وبني الأُصيفر . ثم توقف أنوش عن الكلام ، وبانت عليه أمارات التفكير مختلطاً بالذهول والغضب ، وقال : «يا إيف . .لا تقربي تلك الشجرة» ، وأشار إلى شجرة وارفة في أقاصي حديقة البيت .

انعقد لسان إيف ، واستمرت صافنة تطيل النظر في وجه عشيرها الذي رفع رأسه نحو السماء العالية ، فقالت له : وهل هذا اختبار محتوم .

«نعم» .

«إذن ما جدوى وجودي ، آنوش» .

«تلك حكمته وهو أدرى بها» .

وذات يوم أخذ جسد إيف يضطرم بسعير نيران لاهبة ، ثم

وجدت جسدها يتحرك نحو تلك الشجرة ، حيث توقفت تحت أغصانها الشبيهة بشعر رأس مخلوق لم تشاهده من قبل . كان برد خفيف يلاعب شعر عانتها ، فشعرت إيف بخدر في حلمتي ثدييها ، وسعير في جرحها الذي عند عانتها ، فرمت بجسدها على الأرض المعشوشبة ، ثم رأت مسخاً عملاقاً يهيمن على جسدها كله . كانت خائفة ، لكن السعير الذي في جرحها كان يدعوها إلى أن تفتح فخذيها بينما المسخ العملاق يرسل عضوه التناسلي إلى كل مسامة في جسدها .

وفجأة شعرت دنيا إيف بقطعان شبيهة بذلك المسخ تحتل جسدها كله ، وتطوق بيتهما الجميل ، فقالت لآنوش إنها لم تعد تبالي بما سيحدث لها قابلاً ، فيكفيها أنها عرفت الآن كيف تقاوم قدرها المحتوم .

«يا دنيا إيف . . هذا هو الاختبار العظيم» .

«قبلت به» .

«أنت اختيارك وفعلك» .

أنصتت باهتمام وتفكير إلى عشيرها ، ثم رفعت رأسها نحو سماء لا متناهية ، وأخذت تنشد :

«يا حبيبي ليكن كرشك مملوءاً على الدوام
وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب مساء نهار
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم بالماء
فهذا هو نصيبك من حياتك» .

توقفت دنياإيف عن الإنشاد ، وأخذت ترسل نظرات ناعمة نحو أنوش الذي أمسك بست حصيات ، وأخذ يرمي بها في فضاء محصور بين يديه .

«أنوش ، ماذا تفعل ؟» .

« أبعده عنك» .

«من هذا الذي تبعده عني ؟ أيوجد غيري وغيرك في إراكا؟» .

«نعم» .

«من هو؟» .

«شيخ بني الأحيمر وبني الأصيفر» .

شعرت دنياإيف برهبة في قلبها ، تحولت إلى رغبة مكتومة في معرفة ذلك المسخ الذي كان يمتطيها الآن .

«هو أنت من دون غصن توت ؟» .

ثم خطت ثلاث خطوات ، معطية ظهرها لأنوش الذي شاهد المسخ العظيم يضاجعها في كل مسامة في جسدها ، بينما أخذت إيف تجري في حديقة واسعة من الرغبة الممزوجة بلذائذ يتماهى فيها الخوف والفرح والضحك والبكاء .

اما أنوش فأخذ ينادي عليها : إيف . . لقد انهدم كوخنا الصغير ، وفسدت حديقتنا الجميلة . يا إيف . . تدمر صرح إراكا ، وهبطنا إلى حانة الرطان .

١٩٨٢

يحدث في الإسطبل الملكي

كان صوت المؤذن في ذلك الفجر الذي وقع في أحد أيام شهر آذار، يصل إليَّ من مسجد غير بعيد عن إسطبلات الحرس الملكي، بينما كان حارس شاب يرتدي بدلة عسكرية خضراء، يواصل فحص ماسورة بندقية (البورسعيد)، أمام ثلاثة جنود حفاة ومن دون أغطية على رؤوسهم. كان الجنود شباباً أيضاً، يتحركون كما لو أنهم هائمون في بيداء، بينما كان الحارس الثاني يشرب سيكارته الأخيرة في هذه الساعة من فجر يوم الحادي والثلاثين من شهر آذار سنة ١٩٦٣. كان الشابان يبدوان بهيئة طالبين جامعيين، يضع كل واحد منهما على عضده اليمنى تلك الشارة الخضراء التي تميزهما عن الجنود النظاميين.

وكان هناك جندي آخر اسمه جمعة اللامي يتابع حركة طابور الجنود الثلاثة الذي أخذ يقترب من محبسه الانفرادي في الغرفة رقم - ١٣ في الأسطبل الملكي، عبر كوّة صغيرة في باب محبسه. انا لا أعترض على قيام والدة ذلك الجندي، تسمية ابنها الوحيد (وهو وحيد فعلاً) باسم يشبه اسمي (أنا الولد الوحيد لأمي أيضاً)، فأنا أحمل هذا الاسم أيضاً، منذ منتصف العقد الرابع من القرن العشرين. لكنني في يوم أعتبره مشهوداً في حياتي، وحتى في مسيرتي الأدبية لاحقاً، تسمّيت باسم جديد يشبه اسمي. تسلمت الورقة الشريفة الزرقاء الرقيقة برقة وفرح، ثم دسستها في

قفا ياقة سترتي العسكرية بعد أن طويتها ، عبر جرح رقيق وصغير ، لا يفطن إليه سوى الذي تعود أن يكون قلبه صندوقاً للأسرار .

حسناً ، سأسرد الآن ـ باختصار شديد ـ لِمَ قبلت باسمي الجديد (وهو يناظر اسمي المسجل بدائرة الأحوال المدنية بمدينة العمارة تماماً كما أخبرتكم قبل لحظات) ، عندما كنت في حضرة المقاتل السابق في الجيش العراقي : أبو علي حسن الماجدي ، في ذلك اليوم الذي صادف النصف من شعبان . دخلت في بستان النخيل الذي يحرس بيتنا الكبير بمحلة الماجدية ، وجريت خبباً إلى القلعة الطينية المهجورة (كان الناس يسمونها قلعة السيد عاشور) التي كانت مخبأي المفضل في سنوات طفولتي ، حين كنت أخلو إلى نفسي بعدما يعود والدي إلى منزلنا من المطحنة الوحيدة في الجانب الآخر من المدينة . وهناك وجدت الماجدي ينتظرني . «هذا يوم تعميدك» . ثم قبلني بين عينيَّ . كنت شاباً دون السن القانونية لحمل لقب «رفيق» . كان الاسم الجديد الذي يناظر اسمي الحقيقي من اختراعي أنا ، وهو لا يزال ينام آمناً في أرباض ذاكرتي .

«اعترف . اسمك الحزبي؟» .

«جمعة اللامي» .

رفع المقدم داود الجنابي ، عصاه في وجهي كأنه لا يريد أن يصدقني . «كل الجنود اعترفوا بأسمائهم الحزبية» . رفعت رأسي «هذا هو اسمي الحزبي» . قلت للمقدم الذي كان ماهراً جداً في الرفس وتوجيه حربته العمياء نحوي . وكنت أرى جسدي مطعوناً بعشرات السناكي ، يجري فوق أرض معشوشبة زرقاء ، عبر النافذة المستطيلة في مكتب ضابط استخبارت الفرقة المدرعة الرابعة

بمعسكر الحبانية ، وفي الأرباض غير البعيدة ، عند منابت السور الكونكريتي للإسطبل الملكي ، خلف الجنود الشبان الثلاثة والحارسين الشابين ، كانت تبدو أشباح أضواء زرق أخذت تتكسر على العشب الأسود ، عندما استدار الحارس الأول متوجهاً صوب غرفتي ، وتوقف أمام باب الغرفة رقم ١٤ .

عدت إلى زاويتي التي أتابع منها حركة فأرين أبيضين صغيرين في أرجاء الحجرة ، وسط ضوء أحمر خافت يرسل به مصباح كهربائي يتدلى من سقف الغرفة الواطىء والكالح ، بينما استقر الجنود الثلاثة داخل الغرفة المجاورة . عرفت ذلك من الصمت الذي أعقب توقف صوت ارتطام أحذية الحارسين الشابين بأرضية الحجرة التي كانت تستخدم كورشة لترميم أحذية جنود لواء الحرس الملكي .

وعندما توقف صوت المؤذن ، سمعت ضوضاء سحب أقسام بندقيتين نصف أوتوماتيكيتين ، وكان صوت أحد الجنود الثلاثة يتوسل «أنا الأول» .

«ابن القحبة» ، أخذ أحد الحارسين (وكان اسمه قتيبة) يضحك منتشياً بعد إطلاق شتيمته ، بينما كان رفيقه الثاني (وكان اسمه عمرو) يسخر منه «لَكْ قتيبه ، مُوْ قَحبَهْ وِحْدَة وبَسْ . بابا هاي تعادلْ كلّجيَّهْ بحالها» . سباب . ولم يكن ثمة أي سباب في تنور النار الطويل الذي كان يستخدمه جنود الجنرال تشان كاي تشيك في قتل الشيوعيين الصينيين . عادت إلى خاطري حكاية التنور الطويل التي سجلها أندريه مالرو في رواية (جيل القدر) ، حين كان الرفيقان الصينيان ، في ظلام لا نهاية له سبق عملية شَيّهما . كانا شابين يتسابقان في ما بينهما ليفتدي أحدهما رفيقه الآخر .

«الله يرحم والديك ، أنا الأول» ، تناهى إلى سمعي صوت جندي من خلف الجدار . أطلق الحارس عمرو مرة أخرى صلية شتائم بصوت عال ، بينما كان الجندي الثالث يستعطف الحارسين الشابين «بحق النبي عليكم ، أنا الأول ، لا «محمد» ولا «محمود» . أنا المسؤول . اسمي جمعة اللامي» .

عندما اقتادوني من زنزانة عسكرية في معسكر الحبانية ، ووضعوني في هذه الغرفة التي كانت معدة لتستخدم كصالون لتزيين ضباط الحرس الملكي ، كان هذا المشهد يتكرر مع صوت المؤذن الذي يدعو لصلاة الصبح . ولم يكن ثمة صلاة . في «قصر النهاية» ، كان الطلبة الجامعيون الذين انتظموا في تشكيلات الحرس القومي ، يفضلون الاستماع إلى أغاني أم كلثوم ، في أثناء حفلات التعذيب ، أو عند عمليات القتل . إني أتذكر ذلك الآن . أتذكر . كان نحو ألف من الطلبة والجنود والحرفيين والشعراء والمدرسين والصحفيين والأطباء ، يحشرون في غرف وقاعات هذا المعسكر الذي كان أغلبه مخصصاً كزرائب لخيول «لواء الحرس الملكي - سابقاً» ، وجرى تحويله على عجل إلى معسكر اعتقال ، بعد أربعة أيام على نجاح حركة ٨ شباط ، ليكون مكتب تحقيق خاصاً بالشيوعيين .

عاد صوت المؤذن ينادي «حي على الصلاة» ، بينما انطلقت ثلاث رصاصات في الغرفة المجاورة . هرب الفأرن الأبيضان الصغيران من خلال الفتحة الضيقة في الزاوية اليمنى للجدار الملتصق بجدار يشبهه في الغرفة المجاورة .

وهذا ما حدث كذلك مع حلول فجر أمس . كانت البداية ثلاث إطلاقات ، ثم ثلاثاً أخرى ، ثم ثلاثاً للمرة الثالثة . والآن في

هذا الظلام الأزرق انطلقت الصلية الثانية ، وتبعتها الرشقة الثالثة ، وكان صوت محمد ومحمود وجمعة اللامي يتردد متوسلاً في الحجرة رقم ١٤ : «أنا الأول ، أنا الأول ، أنا الأول» .

ولا يزال صوت مؤذن آخر ينطلق من مسجد جديد غير بعيد عن «ملعب الكشافة» يتردد داعياً لصلاة الصبح ، مختلطاً بصوت النزيل الجديد في الغرفة رقم ١٣ ، بمعسكر آخر في بغداد .

ويا لها من مصادفة ، فاسمه الأول يشبه اسمي الأول ولقبه يشبه لقبي .

بغداد ـ ١٩٦٩

الفُرقانُ في قَرآنِ فُليفلة والسكّران

«يا سُلطانَةَ الزُّهُور :
إنّني غَريبٌ في هذا البَلدِ ،
ولمْ أَجِد ، بَعدُ ، خانَ العَرَبِ»
– ابن حافت ـ

﴿ك ن﴾

. . . . «وكان السكران فتى غريباً ، كما عرفت من حفرياتي الخاصة في التلال التي يربو عددها على المائة في بطائح ميسان وحماداتها . هذا المجهود الشخصي الذي رافقني منذ سنة ١٩٥٦ ، عندما اصطحبنا مدرس مادة «الرسم والأعمال الجميلة» بمدرسة الماجدية عيسى باش آغا رحمه الله ، إلى موقع السروط ، حيث رأيت ما جعلني أعود إلى هذه أليشن بعد سنوات عدة (أنا الذي أعتبر نفسي ابن النهر) ، وأترك وظيفتي في دائرة جمارك ومكوس مدينة العمارة ، وأقيم في صريفة من قصب الهور وبرديّه ، كان الجوّال البريطاني ثسيكر ، قد أعجب بمثيلة لها في هذه البطائح (حيث سمع بحكاية سِدرَةِ السَّكْران ـ حسب تسمية مفضلة عنده) ، بعد زيارته للأهوار سنة ١٩٥١ ، مدفوعاً بأشواق خاصة إلى التعرف إلى مملكة ميسان ، أو بلاد ما بعد جنوبي بابل ، كما أخبرني في إحدى زياراته لمدينة أبوظبي في سنة ١٩٨١» .[(١)]

***

. . . . وحدثنا ابن قريتنا ، المعروف لخلق مملكة ميسان باسم : «المواطن ـ ع» . أو «شايع الشرقي ، كما هو معروف عندي (وعند المشتغلين بصناعة الكلام والتدوين) ، أنه قال : كان أبي رحمه الله ، يسألني من دون أن يَكلّ أو يَملّ من إعادة طرح سؤاله الأثير عليَّ : « . . وهل بقي في السروط من يعرف المبرقع السكران ، ويتذكر حكايته مع السِّدرَة؟» .

«بلى . يا والدي ، . . . أنا وربعي» . يقول أبي : «الخير في أمثالكم إلى آخر ساعة في الزمان . فلا تقوم لليشن قائمة ، ولا يستأهل رجل مُعَقَّلٌ عقاله ، ولا يبقى معنى للحج والصلوات والصوم والزكوات والجهاد والعدل ، إذا ما نسي شباب قرانا شيوخها وأشياخهم» .

صدق والدي ، تغمده الله برحمته الواسعة . فهذا الرجل الذي عرفه جدي في صباه حق المعرفة ، ، (وتحرَّيتُ حياته ، واطلعتُ على المخبوء من أسراره) ، لم يسقط اسمه من ذاكرة شباب هذه الأيام من أبناء مدينتنا الذين تزدحم بهم الحانات والبارات والخانات والطرقات والمارستانات والبازارات والمنديات والمساجد والصوامع والزوايا والتكايا والكنائس والكُنُس .

أنا أكيد من هذا ، مثلما أنا على يقين من أن القلّة الباقية من الشعراء الجوالين ، يعرفون سُروط السكران ، أو «مجنون فليفلة» ، كما يطيب لبعض الشباب تسميته . فلم نكن نعرف (نحن الفتية الذين كبرنا كما كانت تنهض أنهار مملكة ميسان في فصل الربيع) أي مهنة معلومة بعينها يمتهنها مثل بقية أبناء بلدتنا . فهو صياد سمك وجاني أفاعي وعنافيش حيناً ، ومربي جواميس وتاجر جلود أحياناً ، ومروّض خيل ومضمِر نياق وعاطل عن العمل مرات ،

وطاوي مسافات وعابر أنهار من أجل حل مشكلات الناس مرات ومرات ، وصديق للمطربين الشعبيين والمطاريد والحرامية التائبين في أحيان كثيرة . ولكن المأثور المشهور عنه في قريتنا بأنه المشّاء الجوال الذي يقتفي أثر الصقور بين بساتين النخيل والبوادي مترامية الأطراف ، ومطاردة قمم الجبال وذرا الأشجار في البلدات النائية .

كان الناس ينادون عليه «يا بو غايب» ، حتى كدنا ننسى اسمه الأول . وعندما يتوجهون إليه بتلك الكنية ، كانوا يتصرفون معه كأنهم يعرفونه ، أو يطلبون منه ما يعتقدون أنه مُجاب مسبقاً . تلك هي هيبته ومهابته ووقاره ، حتى عندما يكون في ذروة رقصته الفريدة التي لا يجيدها غيره . بل إن سلطة مخفر الشرطة كانت تبدو متواضعة أمام حضور اسمه أو ذكر حوادثه بين الناس ، رغم أنه ليس من أهل الثروة والجاه . وكانت أي أنثى ميسانية تتعرض إلى ضيم ، أو تتصور أنها مُضامة ، تشهر ذراعيها ، وتضع أصابع كفيها في عيني الذي يقصدها بالأذيّة ، قائلة : «للمخفر ما أروح . أنا شِيَلْتِي بِعْقال بوغايب»!

أما الشباب الذين كانوا يقعون في الحبّ (وتحول بينهم وبين من يحبون أسباب عائلية واجتماعية ، وما أكثرهم في قريتنا في زمانه) فإن الواحد منهم كان يقصد سروط السكران .

«صبري قرَّب يخلص ، يا سكران» .

«اصبر . بلى . . اصبر ، ثم اصبر . . يا وليدي» .

«حالي في هذا الحين مثل شاة بيد قصاب !» .

يلتفت السكران إلى صقره الحُرّ الفضيّ ، الذي لم يره أحد من دون برقعه (حتى حدث ما حدث بعد تلك الليلة الشباطية) ، ثم يستمر في حديثه : «أو تخشى الغزالة من سلخ جلدها بعد أن

يتخثّر دمها في عروقها بعد أن تطاردها كلاب الصيد؟» .

«نَشَفَ دمي» . يقول العاشق ثم يواصل ملتاعاً : «طاح حيلي ، ويبست عروقي» .

«ومحبوبك ؟» ، فيرد العاشق : « ساكت . آخ من سكتة المحبوب يا سُروط» .

«يا وليدي ، اسمع مني هذا المقال : إذا سكت المحبوب فهو في قمة الشقاء . وإذا ما تكلم كان هو وجهنم سواء بسواء . فهل تريد له زيادة في الشقاء وهو في عزّ جهنم الحمراء؟» .

«حاشى لله» . ويمدّ الصقر رقبته قليلاً ويفرد جناحيه الأشهبين ، فيقول سُروط : «زين . عليك قبول شقائك وسعادة محبوبك» . كان السكران يعرف كيف يجعل الفتى العاشق يختار في حبيبته ، الحب الذي يعجز الكلام عن وصفه أو الإحاطة به ، حتى ينسى نفسه تماماً ، ولا يعود يرى سوى الحب في شخص المحبوبة . وكان يعرف كيف يتغلب على أي مشكلة تواجه أي إنسان يقصده .

بعد صلاة المغرب (يقول والدي) ، حيث تبدأ بيوتنا الاستعداد لوجبة العشاء بعد صلوات متصلة في ذيل صلاة المغرب ، وتخمد رويداً رويداً نيران تنانير أمهاتنا ، ويعود الرعيان من مربعانياتهم ، ويدخل صوت «بَنانَة المدّاح» إلى زقاقنا المعتم ، في إطلالاته القليلة التي لا موعد محدداً لها ، كان ابن سكران يجتاز الباب الخشبي العريض لداره المطلة على نهر المشرّح ، بعد أن يلتفت نحو صقره المبرقع ، وهو في زينته الكاملة ، كما لو أنه في اليوم الأول من العيد الصغير ، بدشداشته العتيقة النظيفة ، وعقاله الذي من كور ذي قار ، وكوفيته الدستميسانية التي كان قد ابتاعها من قَمّاش

ديزفولي ، والتي تهبط نهايات مقدمتها على حاجبيه مثل برقع ، ومركوبه النظيف المصنوع من جلد شاة ، ومَزْوِيَّته العباسية السوداء (المأثور بهذا الخصوص أنها منسوجة من وبر بعير أسود ، كان يهيم في حَمادات خُوَيط السلطان ، ملقياً الرعب في قلوب البشر والحيوان ، فنفر إليه سكران اللامي ، وحيداً فريداً إلاّ من طيره الحر الذي كان يرافقه وفالته التي لا تفارقه ، ثم تفرس في وجه البعير الهائج ، وحرك شفتيه كأنه يهمس بكلام لا يسمعه سوى البعير ، ((عرفت أن هذا النوع من الطيور هو المحبوب لدى أحفاد الشيخ حافظ اللامي ، الجد الأشهر لسروط من بين أجداده الذين لا يعرف النسابون تعدادهم بالتمام والكمال)) من دون أن يشهر فالته بوجهه . فلزم البعير مكانه ، وأخذ يتشمم الأرض المبرقعة بالطِرْطَيع والحلفاء والعاقول . بعد ذلك رفع رقبته عالياً ، ثم أرغى وأزبد مثل فصيل تم ذبحه تواً ، وخفض رقبته قليلاً قليلاً ، حتى برك على الأرض وأرسل برطمبه إلى حيث قدمي سكران اللامي - «الكاتب») .

تناقل الركبان ما سمعوا به من هذا العجبان في حينه ، فقالوا : «نهض الصقر ، وعرض صدره المهيب المزين بريش أشقر لامع لشمس الظهيرة ، ثم انطلق نحو البعير الأسود ، وحط فوق هامته ، وطفق يصطفق بجناحيه برهة ، ثم أطلق صيحة تشبه صهيل حصان يستعد لتقفيز أنثاه بعد حبسه عن الفرس ثلاثة أشهر متصلة . ومنذ تلك اللحظة ، لم نرَ في حمادات المملكة أو في خُويط السلطان بعيراً أسود» . وعلى هذا المنوال كان السكران يتعامل مع منازل الناس الذين يقصدهم . ينقر سروط بسبابة كفه اليمنى على باب الدار نقراً خفيفاً ، فيهرع رب البيت إليه وخلفه

آله ، ثم يسير الجمع إلى الرّبعة . يجلس على سجادة لاميّة ، ويستل مكواره من حزامه المربوط إلى نطاق من قماش سندي عند خاصرته اليسرى ، بينما يركن فالته السومرية إلى الجدار خلفه ، فيعرف أهل الدار أن السكران قصدهم من أجل مشكلة ينبغي أن يجد حلاً لها .

«تهون يا وليدي ، سبحان ربي العظيم الجميل» . تلك هي اللازمة التي ينطق بها لسان ابن سكران ، نقلاً عن جده ، بعدما يتربع على السجادة ، ويسلم على الرسول وآل البيت ، ثم يختتم بالمأثور المنقول عنه : «الدنيا دِنِيَّة ووسخة ، وروح الآدمي تعاف الوساخة» . ثم يتطلع ناحية مِركاز صقره ، الذي يحرص على اصطحابه معه في مثل هذه الزيارات .

وبعد أن يشيع جواً من الطرافة على الحاضرين (فهو يحتفظ بمرويات كثيرة لا تخلو من مسرات لطيفة غالباً ما تكون ابنة لحظتها) ، يروي حكاية قديمة ومعروفة أصبحت على طرف لسان كل امراة ورجل في قريتنا ، لكنه يعيد سردها حسب مقتضى الحال ، عن تجواله بين اليشن المائية ، وتطوافه بين فِرجان بيوت الشعر والطين عند اليابسة في عيلام وديزفول وباكسّايا ، أو حين ضرب في حمادات أهله والقبائل الأخرى حتى وصل إلى المحمَّرة ، عند ذَنَايِب شط الكرخة ، حيث التقى بالصفران والحمران والشقران والسودان العائدين من بلاد يأجوج وماجوج وخراسان والهند ، عابرين الصحارى والبحار والقرى والبساتين التي لم يسمع بها أحد غيره في قريتنا . ثم يترنم ببيت من الشعر ينسبه إلى غيره بينما هو من قصيده ، يفصح عن حال أحد العشاق الذين تعرّف إليهم في تلك الأيام ، ويربط أطرافها بحكاية تختص بشاب أحب

فتاة ، إلا أن قوة غاشمة كأداء تقف عقبة في طريق زواج الشاب بها . ثم يستمر في سرد الأوجاع التي يتعرض لها العاشقان ، ويستنجد بقصص الصالحين وأخبارهم ، أو يسترجع قصص العشق في الأيام التي عاشها أجداده ، أو سمع بها من أفواه أصحابها ، ثم تتحرك شفتاه هامساً :

ولوْ أنّني أسْتغْفرُ الله كُلّما . .
ذكرتكِ ، لمْ تُكْتَبْ عليّ ذنوبُ

وفي لحظة من ساعات تلك الجلسة التي ربما تستمر إلى ما بعد منتصف الليل (هكذا أخبرني والدي) ، وفي العتمة المضاءة بسراج تتغذى فتيلته على زيت السمسم الذي يبتاعه من اليهودي ساسون الذي يتخذ من «دار النبي إسحق» في سوق العلافين مقراً لتجارته ، تطفر آهة حرّى من عمق صدره ، فيسود الصمت ، ويريم السكون على الرّبعة ، ذلك الصمت الذي لا إشارة إلى نهايته سوى حركات من أصابع كفه اليمنى وهو يلاعب خرزات مسبحته الكرمانيَّة ، ليعرف القوم وأضيافهم ، أن سُروط السكران جاء يطلب منهم جواباً .

«أنت تأمر ، ونحن على السمع والطاعة ، يا بو غايب» .

«الإنسان قول وفعل» .

بعدها ، ينهض سروط فتبدو نهايات كوفيته وقد غطت عينيه (لم يتحدث أي من الخلق أنه شاهد عيني السكران ، إلا أن همساً يدور بين الناس مفاده أنه أصيب بمرض الجدري الذي ضرب ميسان في سنة الجدري المعروفة في سنوات ما بعد قدوم المشعشعين) ، وتنتصب قامته المهيبة عابرة طوف الربعة حتى تتلاشى في ظلمة البرية ، ثم يبسط عباءته على بساط الرَّبعة ، ويقتبل بيت الله ،

فيعرف أهل الدار أن سُروط السكران يرغب في تناول ما قسمه الله من زاد «التحتومة» عندهم .

وعندما تُشرقُ هلهولة ميسانية من بيت في محلتنا في تلك الآونة ، كان الخلق يعرفون أن طلب ابن سكران قد تمَّت الاستجابة له . كان ذلك كله يحدث ، وغيره الكثير ، قبل أن يغلق ابن سكران بن الشيخ نصيري بن الشيخ إِرْحمة بن الشيخ براك بن الشيخ حافظ اللامي ، باب دار أجداده ، ولينطلق صقره الذي لم يره أحد من دون برقعه ، بعد تلك الليلة التي من شهر شباط اللّبّاط .

مرة واحدة ووحيدة (هكذا سجّل كاتب هذا النص) ، لم يُجب الجار جبار بن سيد كصب المكاري ، طلباً لابن سكران . ولو أتيح لك ، يا من تقرأ هذه القصة ، أن تزور قريتنا في تلك العقود ، وتسأل أحد السابلة : «رحمة الله على والديك ، أريد بيت جبار بن سيد كصب ؟» ، لردّ عليك في الحال : «ما عندنا مثل هذا الاسم» .

وكان باب دار والد سُروط بن سكران اللامي ، يقابل باب بيت «أبو فليفلة السدرة (وهي سدرة مباركة كما كان يصفها الناس ، فلها أيام معروفات بين المحرم والمحرم من السنة التالية ، تظهر فيها على الخلق في البرية ، تشخص حال زينب بنت علي بن أبي طالب ، في اليوم العاشر من شهر محرم الحرام . وهناك ما هو منسوب إلى قابلة بلدتنا المعروفة بين القاصي والداني باسم معصومة خاتون . قالت الخاتون «نزل الطلق على العلوية خديجة بنت السيد أحمد أبو تريكات وهي في الطريق لزيارة باب الحوائج موسى الكاظم ، فجلست على حافة ترعة صغيرة ، ونادت بصوت موجوع : «العون ياجدي ، الغوث الغوث» ، فهبطت من بين فخذيها رضيعة مغسولة بماء الورد الجوري . ذهلت العلوية أول الأمر ، لكنها عادت إلى وعيها

بعدما شاهدت نفسها تجلس تحت أغصان شجرة سدر ضخمة)» .

هذه هي الحقيقة ، يا قارىء كتابي . فقد نسيت قريتنا اسم جبار ، واسم أبيه سيد كصب الرّادود المنبري المشهور في نواحي ميسان ، (والمرافق لجنازات موتانا من ميسان وخُويط السلطان مروراً ببادية السيد أحمد الرفاعي في واسط ـالكوت حتى نصل إلى النجف الأشرف) بعدما طاف اسم ابنته فليفلة وسدرتها على بيوتنا كلها ، والناس تتابع سنة من بعد أخرى ، تفصيلات واحدة من أكثر قصص الحب نبالة في تاريخ مملكة ميسان العتيدة .

عشر سنوات مرت على هذا المشهد الذي تبدّى لسُروط مثل حلم في فجر يوم صيفي (هكذا أخبرني ويلفرد تسيكر ذات يوم ـ «الكاتب») ، جمعت بين هاتين الروحين . لم يقل أحد إن سُروطاً التقى السدرة خلسة . ولم يخبر شاب رفاقاً له ، أنه وقف في بستان «بيت النِيادة» الذي يقود إلى نهر الكحلاء ، ورأى السكران يتبع أثر قدمي فليفلة ، وحيدة أو مع رفيقاتها ، أو عائدة إلى دارها وفوق كتفها اليسرى مصخة الماء . وعند ذلك يعرف الناس ، أن المغني

سوف يعيد على السامعين ، حكاية شاب شهم أحب فتاة نجيبة حباً ملك فؤاده ، واستولى على كيانه . لكن أحوال هذه الدنيا الدنيّة حالت بينه وبين حبيبته ، فرضي بسعادة محبوبته حيثما تكون .

لكن الناس كانت تعرف ، أن السكران ، يحضر حفلات أعراس المدينة ، وأنه في لحظة من اللحظات النادرة في حياته يرفع برقعه إلى أعلى نجمة تحت السماء السابعة ، عندما تجتمع الزوجات والبنات فوق سطح منزل صاحب الدار ، فهو متيقن أن السدرة هناك حتى بعدما تقدم بها العمر ، والتصقت أمعاؤها بقفاها . عندئذٍ يتقدم إلى المغني الذي يحيي حفل العرس ، وهو لا بد أن يكون من بين أصدقائه ، ويسرّ في أذنه اليسرى بضع كلمات .

قال والدي (أسكنه الله فسيح جنانه) : «يُكَفِّن بوغايب في تلك اللحظات التي تدوم حتى اقتراب أذان الفجر ، كيانه كله بعباءته ، منحنياً ببرقعه حتى نكاد نحسب أنه سيسقط بين قدميه ، بينما يكون قلبه على راحة كفه اليسرى» . وهكذا كان صوت بَنانَة المدّاح ، (في موعد قدومه المفاجىء) حين كان يطوف على بيوت مدائن ميسان وقصباتها ، وهو يعيد رواية قصة الحب التي جمعت بين المقداد بن الأسود الكندي والميّاسة .

أما فليفلة السدرة ، لا سيما بعد أن كفت عن تشخيص مصيبة زينب في ذلك اليوم الحزين ، فوق سطح الدار بين صويحباتها وجاراتها ، بعدما تقدمت بها السنون إلى ما بعد الستين (فهي تجاوزت الثمانين ، بعد أن اختفى السكران عن بريتنا ـ كما يقول جدي) ، فكانت تعرف أن المغني يذكرها بلسانه ، ولكن بقلب السكران ، ولو طرى باله اسم حَمدَة ، أو ورد على لسانه اسم زينب أو وَرْدَة أو هَيْلَة ، أو زهرة ، أو مَصِر ، أو مَايْهِن .

وعندما يبلغ المغني قمة المصيبة ، حيث تذكر الحكاية رفض والد الفتاة القبول بالشاب زوجاً لابنته ، يتقدم سُروط السكران إلى مجلس المغني وعازف الكمنجة وضارب الطّار ، ثم يضع عقاله حول رقبته ، ويلف عباءته على ساعد يده اليسرى ، ويسحب مكواره بقبضة يده اليمنى من عند خاصرته اليسرى ، ويبدأ ينود مثل أعجاز نخل خاوية تتقاذفها ريح صرصر عاتية ، تميد به ذات اليمين وذات الشمال . (ولله في خلقه شؤون ، إذ أن الشائع إلى أيام الناس هذه ، أن أي حفلة عرس في قريتنا ، يعقبها كلام ترويه شفة إلى أذن ، عن فانوسين يشرقان مثل نجم الثريا في فضاء الحفل ، يرى الناس في زجاجتيهما صورتي وجهي فليفلة والسكران) .

ولا ينتهي هذا المشهد إلا حين تُكبِّر مئذنة مسجد قريتنا ، فيسقط «بوغايب» مغشياً عليه ، وقد غطت كوفيته صفحة وجهه كله ، فيبرد جسده ، ويتوقف نبض قلبه ، ويفوح تفاله الأبيض من فمه ، فنعود إلى وصيته التي عرفها الشباب والشيوخ من دون أن يعلنها أحد لصاحبه : نوجه رأسه المغطى بغترته نحو بيت السدرة ، ثم يمرق بيننا شبح مُكَفَّن بعباءة سوداء . (تقول النساء : تنحني السدرة في تلك الأثناء على روحها ، وتفكّ عقدة من جديلتها التي تصاحبها ، ثم تقرّب ذؤاباتها من خشم سُروط السكران ، الذي يأخذ وعيه بالعودة إليه نفساً بعد نفس ، حتى يرتاح أخيراً عند أقرب عمود يسند كتفيه إليه) .

كنت أرافقه في تلك الساعات (قال جدي لوالدي) ، في تلك السنوات العشر المعروفة لنا ، فأقترب منه كثيراً ، وأضع أذني عند قلبه ، فأسمعه يردد مثل بعير ذبيح : «فليفلة . . فليفلة يا سدرة الجنّة» ، ثم ينقطع نفسه ، ويتوقف قلبه . (قال والدي ؛ يقول

والدي : «أقسم بشرف «ابن المْلوَّحْ» إن جدتي كانت تقول إن السدرة هي التي فكت عقدة من جديلتها (جديلتها التي تحتفظ بها منذ تلك الليلة الشباطيّة) عند رأس ابن سكران ، بعدما جزّت شعر رأسها كله من عروقه») . وفي أعلى الدار ، عند السطح المطوق بأشجار السدر والغَرَب ونخلات البريم والزهدي والديري والخستاوي والأسطه عمران والخضراوي والبربن ، كانت فليفلة لا تزال تسمر مع صاحباتها الشابات ، أو وحيدة ساهمة داخل عباءتها ، بعدما تجاوزت الستين . بيد أننا كنا نعرف أنها كانت تنتحب مثل الغزالة المذبوحة .

«هذه هي أحوال الدنيا» ، يعلق أبي . ثم يتذكر أنه وربعه يعرفون تلك الحكاية منذ بدايتها مع جبار بن سيد كصب المكاري ، فهي مكتوبة مثل دقّ الوشم على زنود العشاق الأحرار . قال رحمه الله : «ذات ليلة شباطيّة ، قصد ابن سكران ، ومعه صقره الحر الأبيض ، دار جبار بن المكاري .

«تفضل يا سُروط» . كان فنجان قهوته لا يزال أمامه ، بينما كانت أصابع كفه اليمنى تلاعب خرزات مسبحته . «كلك فضل ، ياعم» ، . واستمر السُروط في حديثه بعدما عرف أن ابن السيد يستزيده في الكلام : «جئت ومعي راية العباس» .

«أنعم وأكرم ببُو فاضل» . وخلع السيد كوفيته وطرحها على الأرض .

«أريد إكمال ديني يا عمّ ؟» . لم ينتبه جبار المكاري إلى الحركة القلقة على برقع الصقر . «يا زين ما تفعل يا سُروط . بَسْ من هي المحظوظة ؟» . سأل والد فليفلة . أخرج سُروط بن سكران قطعة القماش الخضراء المعروفة للبعيد والقريب من عبّه : أريد

السدرة زوجة لي ، على سنة الله ورسوله وحب آل البيت» . يفرد الصقر جناحيه ، وترتفع هامته عالياً .

«هذا مستحيل» .

«يا عم ، أذكر الله» .

«هذا مستحيل يا ابن سكران ، البنت مُعَلَّقة لابن عمها» .

«سيد إخْلَيف ماتْ . الله يرحم موتانا كلهم» .

«هِيْ كِلْمَــة وانْقــالَتْ . وهيْ راية وانْشَــدَّتْ . بنات الســادة للسادة ، بالدنيه وبالآخرة» .

أعاد ابن سكران العلم الأخضر إلى عبّه ، واختصر وجوده كله داخل عباءته ، ثم تطلع بقلبه في وجه جبار بن سيد كصب ، فرأى فيه قسوة الدهور وجبروت الأعراف . وأنهى ابن كصب الجلسة بقوله : «انت عندي هذي الليلة تنشد عن صحتي . فلا تطري ما دار بيني وبينك أمام بشر أو حيوان أو حجر» .

افتكر سُروط السكران برهة ، ثم قال لجبار بن سيد كصب : «وشِنْهِيْ هُوْ رأي البِنْتْ ؟ . أجابه السيد : اسمع يا ابن سكران ، هذي سِنايَن أهالينا . اترك البنيَّة للمقدَّرْ والمقسوم» .

«زين ، يا عم ، وين مـا تكون السـدرة فـرحـانة ، أنا هناك فرحان» .

انتفض الصقر . حرك برقعه يميناً وشمالاً(٢) ، فعرف سُروط أن طيره يريد أن يطير ، فربت على يافوخه ، كأنما يودعه . قفَّ ريش الصقر حتى صار مثل نهايات سكاكين عمياء ، وأخذ بياضه يتحول إلى لون أسود داكن ، ثم مرق مثل سهم إلى الظلام ، خارج دار جباربن السادة .

واستمر سُروط السكران لائذاً في صمته ، متكوراً داخل كفنه

الأسود . كان الطقس بارداً ، والغيوم تلبدت تحت سماء سوداء . وللمرة الأولى في تاريخ اليشن ، قال الناس إنهم لم يعودوا يرون نوراً يضيء دار سكران اللامي ، أو يبصرون «بو غايب» يخرج (ومعه طيره الحر) من باب بيته الذي يقابل بيت فليفلة . بل شاهدوا سراجين تضيء زجاجتيهما فتيلتان خضراوان يعرجان في سماء القرية ، عندما يرخي الليل سدوله ، ويرتفعان نحو نقطة قصية حتى يتلاشيان في ضوء مبهر بعيد جداً ، ثم يعودان إلى الإشراق ثانية في الميقات عينه من الليل التالي .

. . . وبعد تلك الليلة الشباطية (كما جاء في قصايد بَنانَة المدّاح) أغلق سُروط السكران باب دار أجداده ، بحائط من الطابوق الأحمر المفخور(ثم انقطعت أخباره عن الناس ـ فمنهم من قال إنه اعتكف في بيته ، ومنهم من قال إنه عاد إلى معاشرة البدو المهاجرين في قصبة الزبير . لكنه كان يظهر وحيداً من دون صقره الغائب ، في حفل أي عرس في قريتنا . كما لم يتخلف عن أداء رقصته الشهيرة . تماماً كما تفعل السدرة . لكنها ـ على عادة نسائنا عندما يعلن رفضهن وحزنهن ـ كانت تحضر إلى حفلة العرس بعد أن تكون قد جزّت شعر رأسها من عروقه ، ولسان حالها يقول :

أيا حَسنَ العَينينِ أنتَ قَتَلتَني
وَيا فارِسَ الخَيلَينِ أَنتَ شفائيا

---

(١) رأيت القارب الذهبي يشرق من عمق المياه الخضراء ، وعند صدره جلس «داحي الباب» ، كما صورت ذلك تصويراً دقيقاً في قصة «تاريخ العار في بلاد النفطار» . ومن المفارقات الجديرة بالتسجيل بهذا الخصوص ما أخبرني به صديقي «مبارك بن لندن» بعد ذلك اللقاء بسنة ونيف . قال السير ثسيكر :

«شاهدت السفينة الذهبية بعينيَّ الاثنتين هاتين . رأيت ملاحيها الاثني عشر ، والرجل الذي جلس كما يجلس العرب عند صدر القارب . أبصرت رجلاً يبدو ربع القامة ، حنطي اللون ، غزير شعر اللحية ، يفيض مهابة وجلالاً ، وإلى يمينه ثمة أسد ، أو صورة لسبع ذي لبد أشقر مشوب بلون أسود . وقد التقطت صورة لهذا المشهد بكاميرتي الشخصية . وحين قمت بتظهير الفيلم بعد عودتي إلى لندن ، لم أجد صورة ذلك الرجل . وجدت رسماً للمسيح على صليبه ، كما هو شائع في لوحات الرسامين الإيطاليين للمشهد المتداول لجلجلة عيسى وصلبه ، وتحتها هذه العبارة باللغة العربية : «لا يُصَوِّرُني إلاّ مُصَوِّري» .

– وحدثني السير ولفرد ثسيكر ، فقال : «أقمت في قرى الأهوار سنين عدداً ، متقصياً أخبار «بنانة المداح» الذي يرد اسمه في كثير من حكايات العشاق وترنيمات الأُمهات عند مهود رضعانهن في ليالي الشتاء الميسانية الطويلة . كان هذا الشاعر الجوال ، الذي يشبه في كثير من صفاته الجسمانية ، صفات سُروط السكران ، يحل في قريات أهوار العمارة ، كما في بلدتنا ، من دون إخبار مسبق ، فيسمع الناس صوته الجهير أولاً ، ثم ينادي بجملته الشهيرة «وينكم يا عشاق النبي» ، بعد ذلك يظهر بقامته الراهية ، وخلفه بعيره الأبيض ، يحمل عدلين من ملح مالح الجزر المجنونة ، بينما يربض على سنامه صقر أسود اللون من غير برقع ، ثم يتوقف موكبه قبالة بيت سيد كصب المكاري .

أقول معقباً : «يا صديقي مبارك . هذه مقالة جديدة ، لم يسبقك إليها حتى أبناء ميسان» .

«ما أخبرك به هو من ألسنة ثقاة أهل ميسان . وأنا أشعر بأسف شديد لأني لم أسجل ما سمعت به في هذا الشأن في محاضرتي التي ألقيتها على أعضاء الجمعية الآسيوية الملكية بلندن في صيف سنة ١٩٥٣» .

«لا يزال في الوقت متسع ، عزيزي ويلفرد» .

«الوقت يسرع . الهور يسير إلى كارثة» .

كنت أعرف أن الحرب تعني الكارثة بعينها عند رجل خبر ثقافة الحروب ، فأردت أن أعود إلى حكايته مع أهل الأهوار الميسانية : «ماذا قدمت لهم ؟» . قال : «ليس الكثير ، أقراص أسبرين» . ثم صمت لحظة وعاد يسألني : «هل تعتقد أن تلك الأقراص البيض كانت كافية ؟» . قلت : «نعم . فمن عادات أهلنا أنهم يأمنون جانب من يقدم العون لهم» .

«يا صديقي اللامي» ، (يستمر السير ويلفرد) ، أنا كنت أقدم أقراص الأسبرين إلى أهلك . . أما هم فأعطوني ثقتهم ، وتفصيلات مثيرة عن شخصية هذه المسطحات المائية ، من بينها شخصية بنانة» .

توقف برهة ينظر إلى بحر الخليج العربي ، ثم قال : «سمعت مزيد بن حمدان» يقصد بذلك شيخ قبيلة العيسى ، يقول : قال جدي رحمة الله عليه : «شفت بعيني اللتين سيأكلهما الدود ، صورة ابن سكران في وجه بنانة الذي كان يتبرقع كما يتبرقع سُروط السكران ، حتى ظننت أن بنانة هو السُّروط . فسألته : «من أنت ، مشّيت عليك الحسين أبو عبدالله؟» . فسمعت صوته العميق الحزين :

تَداوَيتُ مِنْ نَشْري بِصقري ، مِنَ الهَوى
كما يَتداوى شاربُ الخَمرِ بالخَمرِ
إذا ذُكِرَتْ يَرْتاحُ قَلْبي لِذِكْرِها ،
كما انْتَفَضَ العُصْفُور ، بَلَّلَه القَطْرُ

وما إن انتهى من إنشاد هذا الشعر ، حتى انطلق صقره نحو دار جبار بن سيد كصب المكاري وغاب عني فترة من الوقت ، ثم صفر بنانة بنغمة خافتة طويلة ، فأشرق الصقر في سماء دار فليفلة السدرة ، وعاد وحط على سنام البعير ، فشاهدت حول رقبته جديلة سوداء يميل لونها إلى الاحمرار ، مضفورة بأصابع امرأة هاشمية» .

« . . . . وفي إحدى زياراتي لمقبرة الأطفال في إيشان السروط ، اعترض بحثي

لوح من جصّ النورة مكتوب على وجهه : «يا قارىء هذا الكتاب : لا تسل عن اسمي وأصلي وفصلي . أنا مُدوّن قصص الحب وحكايات العشاق في دستميسان» . وبعده تذييل هذا نصه «(. . . . .) هذه قصة عشت تفصيلاتها كلها ، عندما كنت أقوم بجمع قصص الحب بين الخلق» . ثم يلي هذه الكلمات هذا التاريخ : «الأول من شهر نضوج الرطب ، من بعد السنة الرابعة بعد المئة ، لبلد سماه أهله ، إيراك ، أو البلاد السفلى ، أو وادي أبناء السماء» ولم أجد ختماً على يمين أو شمال ، أو غرب أو شرق اللوح الذي خطه كاتبه باللغة الآراميّة . وهكذا ترى عزيزي القارىء ، أنني لم أقم إلا بجهد تحقيق ما كتبه (مدوّن قصص الحب وحكايات العشاق في دستميسان) .

ولله الفضل من بعد ومن قبل ، وهو العالم بسرائر القلوب .

الشارقة – ٢٠٠٠

مقامات السَّنسول

رشيدة خاتون

«خُذْهُ . هذا هو اسمها : رشيدة . قالت رفيقتي .

وكانت رشيدة خاتون ، كما سميناها بعد ذلك ، تجري خلفنا فوق درب صخري ضيق ، في الحديقة الدائرية التي سميناها ذات يوم «حديقة زينب» . وها هي الآن بستان مترامي الأطراف .

كان ذلك في العام الماضي . وفي العام ذاته ، بالحري في منتصفه ، انضم إلينا «أَصْلان» . قلت لنفسي : «هذا صاحب أمين ، رغم أنه لا يزال في الشهر الثالث من عمره» .

وهكذا تصاحبنا .

«أتُسمّي جرواً : «أصلانَ؟» .

«نَعَمْ ، ياشمعة زماني ، إنه حيوان نسيب ، لا يغدر بصاحبه ، ولا يشي به . أنا أعرف الكلاب جيداً ، خصوصاً الجراء منها» . ثم التفت إليها : «أصلان . . معناه ذو النسب والأصل ، والأتراك يقولون للأسد : أصلان» .

في الحقيقة لا أعرف نسب «أصلان» جيداً ، لكنني أتهجس طريقي إلى سلالته : الذئاب . ثم إنه هو الذي اختارني صديقاً ، بعد أن أخرجته من الحفرة التي غطس فيها . وكان ذلك مثار دهشة حلقة الهنود والباكستانيين والأوروبيين الذين يمارسون رياضة اليوغا . فهو ما إن صار على الرصيف ، حتى رفع قدميه الأماميتين

واندفع نحو صدري ، وهو يطلق صوتاً يشبه نبرة من يعترف بالجميل .

وفجأة غاب عني . أما رشيدة خاتون فإنها تنتظرني بعد صلاة الصبح مباشرة ، هناك ، على الدرب الصخري الضيق ، في أوج نشاطها ، تبحث عن رزقها اليومي .

قبل أسبوعين قالت شمعة زماني : «رشيدة حامل» . توقفت في مكاني . أطبقت كعبيَّ قدميَّ الاثنتين في وضع الاستعداد العسكري ، ثم رفعت كفي اليمنى قرب صدغيٍ الأيمن ، وعرضتها للشمس . هكذا ، كنت كلما أرى امرأة حاملاً ، أضع غطاء رأسي في مكانه الصحيح ، وأؤدي التحية لامرأة تهب العالم حياة جديدة .

غابت «رشيدة خاتون» أكثر من يوم . وكنت أراها من على مبعدة بين الأزهار . وانقطعت أخبار «أصلان» أيضاً . وانشغلت في أمور أخرى ، من بينها هذه الكتابة المنتظمة التي تأخذ أحياناً شكل مشروع قصصي غير مكتمل : عدم الاكتمال ، هذا ، هو قوس زمننا ، حتى ونحن أمام ولادة جديدة في كل لحظة .

ومع بداية قوس الحديقة ، أمس فجراً ، بعد الصلاة مباشرة ، رأيت الخاتون وسط الدرب الحجري الضيق ، معفّرة بدمها ، وبالقرب منها أربعة جراء عمياء ، تتشمم جسدها بحثاً عن حُلمات صغيرة في بطنها . وبجوارها انتصب أصلان ، أكبر من جرو ، وأصغر من كلب ، ينبح على المارة . وعندما شاهدني قفز نحوي وأخذ يمسح خده الأيمن بكفي اليسرى .

١٨-٥-٢٠٠٥

غريب المتروك

يحدث هذا لصاحبي حكمة الشامي في وقت بعينه .

قبيل أن ينصرف نهار العام الميلادي ، يقصد سنسول البحر ، ويتفقد المداخل إلى قصر الرمل ، ثم ينتهي إلى فج عميق في الصحراء ، بحثاً عن غريب المتروك . كنت أرى غريب المتروك عند أحد هذه المواقع ، قبيل منتصف النهار الذي يسبق اقتبال الناس العام الجديد ، بعد أن يكون قد استكمل عدته لإيقاد نيرانه . لكن بحث الشامي عن صاحبه ، ذهب سدى في تلك السويعات .

«هل مرق المتروك أمامك؟» . سألت الحاج عبدالعليم خان .

«نعم ، ومعه حطبه» . رد الرجل الباكستاني الذي عرفته قبل عشرين سنة .

«آغاي طاهري : أين ذهب غريب المتروك؟» . أجابني العجوز الإيراني بائع خشب الغاف والسدر ، من داخل دكانه العتيق : حين اشترى الحطب ، أخبرني أنه متوجه إلى سوق الطيور والمواشي» .

سرت إلى السوق القديم ، فصادفني الهندي الشائخ سنج الحيدرآبادي ، وعلى كتفه اليسرى يتربع قرده الذهبي الصغير ، : - بابا غريب طيّر العصافير من أقفاصها ، وهو ينادي : «إلى الفضاء ، إلى الحرية» . بينما أخبرني القصاب أبو ربيع ، وهو يطل عليَّ من دكانه القريب من مجزرة المواشي «رأيت المتروك ، يحمل حمامات بيضاً في قفصين ، ثم يفتح بابيهما ويطلق الطيور» .

أبو ربيع رجل مخضرم ، لم يزر الشام منذ أربعين عاماً ، وهو يعرفنا منذ خمس وثلاثين سنة . وغالباً ما يصفّر من بين برطمي فمه إذ يشاهدنا ، المتروك ومريم بنت مطر وأنا ، عند شاطىء البحر ، نسلم على الشمس ، أو نتحدث إلى النوارس .

قال أبو ربيع : قال لي المتروك : «إذا سأل عني صاحبي ، قل له : أنا عند الممزر» . ثم خطف أمامي ظل حكمة الشامي ، كأنه في طريقه إلى شاطىء الممزر . أخيراً ، ابترد فؤادي ، وانتظمت دقات قلبي . كنت أرى أمارات هياج على محيا غريب المتروك ، حين يقترب العام الميلادي من الرحيل ، ويزداد اضطرابه قبيل انتصاف الليل ، بينما هو يستمر في علف نيرانه .

منذ تعارفنا وهو يعلف نيرانه مع نهاية عام وبداية عام جديد . كان يقول : «لا أريدها أن تخمد . إنها تذكرني بتلك الأيام الجميلة ، حين كنا نشعل نيراننا ، حتى ونحن في السجون ، لكي نديم اشتعال ذاكرتنا ، ونبقي قلوبنا متقدة» . وها أنا الآن أعاود بحثي عن صديق العمر غريب المتروك ، بينما رأيت حكمة الشامي ، يهبط من غمامته البيضاء ، بعدما تفقد رفاقه في ردهات السجون[1] ، وغرف الحانات البغدادية الشعبية ، ويتوجه إليَّ .

. . وأخيراً! ، وأخيراً ، عند الساعة الحادية عشرة مساء ، وجدت المتروك تحت سماء سوداء تسقط منها نجوم لا حصر لعددها نحو نيرانه ، وحوله عشرات الأطفال العرب والهنود والبنغاليين والإيرانيين والبلوش يتراكضون ويصخبون ، بينما كان يعلف كانون نيرانه ، قبالة البحر ، عند شاطى الممزر ، وهو ينادي : «تعالا ، تعالا أيها الصديقان ، فإنه لا يُخْتَبَرُ التِّبْرُ إلاّ بالنار» .

ونادى عليَّ حكمة الشامي : «أيّها اللاّمِي ، يا صَديقَنا ، قُلْ

هذا للنّاس ، لِكلّ النّاس : لَنْ تُولَد أبداً ، تِلكَ القُوّة التي سَتَقْضِي على صرختنا : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» .

وكان موقد المتروك عامراً بحطب يتفجر غضباً ، وينز دموعاً خُضراً ، تحت أفعوانات حُمْر ووردية وزرقاء .

الشارقة - ٢٠٠٠

---

(١) ـ في تلك الأيام كان حكمة الشامي ، يستعد لقتل الأفعى التي تقتسم الفراش مع «ونسة» ابنة كبير صيادي السمك ، جبّار القُصَيْرون ، في محلة الماجدية بمدينة العمارة .

نافذة الله

حدثني حكمة الشامي ، قال : «أتدري ما العين ؟» . قلت : «هات» . قال حكمة الشامي : «ربما تكون العين نافذة الجسد . لكن الأكيد أن القلب باب روح الإنسان» .

تشغلك النافذة ، وتشغلها ، مثلما تشغلني أيضاً . لأنها عين ، وقلب ، نرى من خلالهما النور والعتمة ، ونسمع بواسطتهما الهدير والصمت والليل ، وذلك الذي لا تدركه الأبصار ، وهو وَحْده الذي يُدْرِك ما لا يُدْرَك .

كيف نظرتَ إلى الليل خَلَلَ الشباك؟ وهل جرّبتَ إحساس الإنسان السجين ، وهو داخل زنزانة من دون شباك؟ بينما هو ينظر إلى الكون من عين روحه ، في حين يراقبه من الخارج ، عبر شُبّاك مغلق ، ديدبان جِلْفٌ وكاسر .

ربما يجيب ، بطريقة شعرية ، الألماني : «ريبكة» ، عن هذا السؤال الألغازي ، في نصّه التالي : أيّها اللّيْل الذي بلا أشياء / أيّها الشُبّاك المُغلق من الخارج / أيتها الأبواب المغلقة بعناية!/ العادات التي هَبَطتْ علينا من أزمان بعيدة / انتقلتْ ومُحّصت / ولم تُفْهم قط بشكل كامل! .

لا جدوى في إغلاق نافذة الجسد ، إذا الريح عصفت ، أو حين الهواء يزمْجرُ . وحدها اليقظة تمدّ العين بالرؤية الكاملة ، والمصدّات

التي تمنع الخراب . والخائف مَنْ يُغلق نافذة الروح ، مِنْ قُبُل ، أو مِنْ دُبُر .

أنْتَ النافذة والنور ، فلماذا تمنع النور من الاقتراب من النافذة؟ ولِمَ تُقيمُ حاجزاً بين بياض النافذة ودفء النور؟

حين كنا أطفالاً ، نظر إلينا البيت من نوافذه ، ورعانا عند بابه ، حمانا سقفه من الخوف ، وطمأنتنا أرضيته من الاهتزازات الغادرة . وها نحن في طفولتنا المستمرة إلى ما بعد الخمسين ، لا نزال ننام في أرحام أمهاتنا ، لأن السِّلْم يطلبنا ، وتستدعينا إلى حضْرتها الشجاعةُ .

أيتها النافذة ، يا دائرة كَوْني الصغير والكبير/ يا حَبْلي السِّري/ مرحباً باليقظة/ بالمَحْو ، وبالصَّحْو/ لأنك وعاءُ النار والنور .

قلت : «يا حكمة الشامي أعرف سيّدة ، لا تزال تقف إلى يومنا هذا ، في مربع نافذتها وتخاطب مولاها القدير : «أيها العالي المتعالي ، ردّني إلى وطني . فتردّدُ ، بعدها ، نوافذ بيوت الأرض ومنازلها : ردّني إلى بيتي أيها العالي المتعالي» .

قال الشامي : «قبل حقب ، وضع شبيهي ، ورقة صغيرة مطويّة بعناية على أرضية من طين لنافذة عمياء . تلك كانت أول رسالة حبّ ، تلقّاها ، من إنسيٍّ ، اللهُ» .

الشارقة – ٢٠٠٢

مَرجان.. وحكاية فاتكِ الفَرحان

تألمت كثيراً ، حين نعى الناعي من كابول أخيراً ، الملك مرجان ، ملك حديقة الحيوان في عاصمة بلاد خراسان ، بعدما جار عليه الزمان وتفرق عنه الصحب والخلان . تألمت لأن السبع بن السبع ، بعد خمسين من السنين ، نفق وهو يأكله الحنين ، إلى يوم مبين يُثبت فيه أنه حامي العرين ، ونصير الجوعانين والمحرومين .

وتألمت أيضاً حين نعته أحد الكاتبين الجوالين من بلاد بني الأحيمر بـ«الملك الأعور» ، وكأنّ فقْدَ عينٍ واحدةٍ مذمة ومسبّة ، بينما هو فقدها في عراك غير متكافىء معً أحد بَني البشر ، من هؤلاء المهووسين بقوة أسلحتهم وفتكها ، وليس بالعقل وقوته . ولو أن ذاك الكاتب الجوال اطلع – ولو اطلاعاً عابراً – على بعض رسائل «إخوان الصفاء» لاستحى من نفسه ، ونظر إلى عيب خفي في بدنه أو خلقه .

الناس على دين ملوكهم . وأنا على دين أخي وصديقي ورفيق صباي ، غريب المتروك ، الذي أحسّ بألمي وحزني على مصير الملك مرجان ، فسمعته يحدث نفسه : «يا صاحبي . . كلنا لها ، ما جرى للملك مرجان ، سهل وبسيط ، بل هو مثل طعم القبلة الأولى لشاب عاشق ، إذا ما قيس بما جرى لفاتك الفرحان» .

قلت ، وأنا أسارر نفسي : «غريب عنده حكاية جديدة ، ورواية حميدة ، يريد أن يمررها عليّ ، مستغلاً ، ألمي ومرارتي بعد سماعي

نعي مرجان» . ثم إنني أكملت مناجاتي الخاصة فقلت : «وما الضير في ذلك ، فكل يشتغل لحسابه منذ القدم ، وبيننا نحن بني البشر ، من يعمل لكسر رقبة أخيه ، أو تشريد عائلة نسيبه ، أو حتى بيع كرامة وطنه ، بثلاثين من الفضة» . ولكن من حق غريب ـ هكذا أكملت ـ «أن يشتغل لحسابه ، ولكن على طريق أخلاقه الخيرة ، وأفكاره النبيلة ، وسريرته الحميدة» .

ويبدو أنه خمّن ما يدور في خاطري ، فغمزني بطرف حاجبه الأيمن ، وقال : يا أخي لا تأخذ بلحيتي ، ولا تأخذك بي الظنون .

قلت : «حاشا لله ، إنما استثارني ما لم أسمعه حول فاتك الفرحان ، لا سيما ـ يا صديقي ـ ونحن في هذا الزمان ، الذي انفصلت فيه الزبدة عن اللبن ، ومخض كل إنسان صاحبه ، فكان هناك من قبره تحت التبن ، وكان ثمة من فردوسه أحلى من السلوى والمَنّ» .

قال المتروك : «إياك وهذا الأسلوب السجعي الذي يليق فقط بالكهان ، ولا يقربه من هم في الطيبة أخدان فاتك الفرحان» .

«سمعاً وطاعة . وعليّ بحكاية فاتك» .

قال غريب المتروك : فاتك الفرحان ، هذا ، رجل سيد في قومه ، أبيض اليدين ، كريم اللسان والشفتين ، لا تعرف يسراه ما تقدم يمناه . فأحبه قومه وملّكوه عليهم ، وذاع صيته في الأمصار ، حتى وصل إلى ديرة المدعوين : «ابن قرياقوس» وخليلته «بنت أبيها» .

«أفدنا من علمك وحكمتك ، أعزك الله» .

قال المتروك : عليّ السمع والطاعة .

أما ابن قرياقوس ، فهو رجل لا نعرف أصله من فصله ، وقد

إلينا مع مجموعة من الأغراب . ثم استطاع بمكره وحيلته أن يشتري نصف عقار مدينتنا . يساعده في ذلك تلك المرأة اللعوب ، بنت أبيها ، التي لم نعرف لا أمها ولا أباها ، فسميناها هكذا : «بنت أبيها» . كما سمت العرب بعض الناس المعروفين بهذه الصفة : «ابن أبيه» .

«نعم» ، زاد المتروك ثم استطرد : طغى ابن قرياقوس وبنت أبيها ، على المدينة ، وأرادا السيطرة على النصف الباقي من عقارها ، فاستعانا بالمكر والخديعة والمال . لكنهما فشلا في ذلك ، والسبب يعود إلى نزاهة فاتك الفرحان وعقله . وذات مساء ، اجتمع ابن قرياقوس وخليلته وتدارسا في أمر فاتك الفرحان ، ثم خرجا بخطة من بنات شياطين (بنت أبيها) .

قلت : «أفدنا ، أعزك الله بعلمك وحكمتك» .

قال : ذهب ابن قرياقوس ، ذات ظهيرة ، إلى مجلس فاتك الفرحان ، وخاطبه بنبرة متعالية : «يا فاتك يا جبان ، دونك المبارزة والطعان ، إذا كنت تمتلك ذرة من أخلاق الفرسان» .

قال المتروك : غضب فاتك لخطاب ابن قرياقوس ، وامتشق سيفه ، ونادى : يا أهل المدينة : اسمعوا وعوا . . سأقاتل هذا الجبان ، فإما أقتله وأخلّص المدينة من شره ، أو يقتلني لتأخذوا بثأري منه . ردّ ابن قرياقوس : «وأنا لها يا ناقص العقل وعديم الحيلة . ولكن دعني أجيء بسيفي الذي اشتريته من سياف هندي» .

«اذهب لا أراك الله طريقاً سالكاً» ، قال قرياقوس : «أخشى أن تهرب عندما أغيب عنك ، فدعني أقيّدك بهذا الحبل ، واجعل من «بنت أبيها» حارسة عليك» .

«لك ما تريد» . قال فاتك . وبعدما تم تقييد فاتك الفرحان بحبل وشدّه بسلاسل قوية ، جره ابن قرياقوس إلى بئر مهجورة في بستان خرب ، صارت المدينة كلها في قبضته ، وعاث فيها فساداً ، واستباحها أعوانه ، وحولوها إلى زريبة لحيواناتهم .

«غريب ، وماذا قال الملك فاتك؟!» . قال المتروك : سُمع يقول مرة ، وهو رهين حفرته : آه من هذه البلدة الظالم أهلها ، والتي يحكمها ابن قرياقوس و«بنت أبيها» ، لا هي مني ولا أنا إليها أنتمي .

وقال المتروك : وبعد سنة وسنين ، قال الناس إن فاتك مات غماً وحزناً ، تماماً كما نفق الملك مرجان ، بعدما أكله الجوع ، وعيّره الناس بأعور العين .

«لا تطنب بالله عليك» . قال المتروك : «إياك ، ثم إياك ومجالسة المخادعين ، ثم إياك وإياك ، بتصديق من هم ورثة «ابن قرياقوس» و«بنت أبيها» .

وعند هذا الحد ، تغلبت على ألمي الذي ذكرته في بداية هذا الكلام ، ولن أفسر أسبابه أبداً ، بعدما سمعته من وجيز قول غريب المتروك .

٢٠٠٢

الحمامة

اهتديت إلى صخرة على سيف تلك البليدة التي أسمّيها مدينة من غير وصب . ربما لا يلقي المسافر بالطائرة عليها نظرة اهتمام . ربما ، لأن أبراج البترول قد خطفت الأضواء وشدت الأبصار منذ عقود . هذه المقدمة القصيرة تبدو غير ضرورية لكتابة قصة ناجحة . لكنني غير معني بالمقدمات الصادمة . بيد أن مروري على ذلك السنسول كان بمثابة الكنز الذي هو بين قدمي الإنسان لكنه لا ينتبه إلى وجوده . وهذا هو حال المتعبين في دنيا اليشن .

إذن اهتديت ذات يوم ، ومن غير وصب ، إلى تلك الصخرة ، فجلست إليها أنظر في ظاهر حالها ، فوجدتها ملحاء غبراء ، كثرت ثقوب أديمها ، وتناوشتها الديدان والهوام تسلقاً ونزولاً . لكنها ، أقصد الصخرة ، كانت غير مبالية بهذه المستعمرات التي تفترشها أو تفترسها . وهي لا تشكو ، ولا تعتب ، ولا تستغيث . فقلت : أسميها «ميسان» .

«نعمَ ، والله ، الاسم» قالت رفيقتي . وهكذا ، بين يوم ويوم ، حين أمر بجوارها ، تصدر مني هذه التحية : «السلام على ميسان» . ثم أصيخ سمعاً لعلي أستمع إلى رد لتحيتي ، فتأتي إليّ الريح بصوت عباب الموج ، كأنه ينقل إليّ تلك التحية الأثيرة : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» .

ذات صيف ، في جو رطب حار خانق ومختنق ، جلست إلى

صخرتي . فبادرتها بالتحية : «السلام على سيدتي ميسان» . وحطت حمامة بيضاء عند يافوخ الصخرة تماماً : حمامة بيضاء بطوق أكحل عند رقبتها ، وحجلين أسودين عند قدميها . كانت هي عطشانة . ربما ، وقد تكون جائعة . سمعت قلبي يرددُ في سري : «السلام على سيدتي ميسان» .

طارت الحمامة البيضاء ، بينما خُيِّلَ إليّ أنني أسمع صوتاً أو هديلاً : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» . رويت تلك الحكاية ، حكاية الحمامة البيضاء لرفيقتي (١) فقالت : «سمّها ميسان» .

«ليش؟»

يوماً بعد يوم ، أخذت أزيل بعض الأعشاب من كتفيّ ميسان . ثم إني غسلت جسدها ذات يوم آخر ، فرأيت التماعات في بروزات دقيقة . وتلمست ندى في وقت لا يستطيع الهجير أن يصمد لشدته .

ولكن ميسان الأخرى ، أقصد الحمامة ، عادت مرة أخرى ، بينما كنت أقرأ في «باب الضنى» ، فسمعت أحداً غيري يقرأ : «وإني لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القُوّاد ، وقد بلغ بها حب فتى من إخواني من أبناء الكُتّاب ، مبلغ هيجان المَرار الأسواد ، وكادت تختلط . واُشتهر الأمر وشاع جداً حتى علمه الأباعدُ ، إلى أن تدوركت بالعلاج وهذا إنما يتولد من إدمان الفكر . فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط ، وترك التداوي ، خرج الأمر عن حد الحب ، إلى حد الوله والجنون» . . . (٢)

. . . وحبست أنفاسي ، لأستمع إلى صوت رقيق يردد هذين البيتين :

قد سلبت الفؤاد منها اختلاساً

أي خلق يعيش دون فؤاد

فأغثها بالوصل تحي شريفاً

وتفز بالثواب يوم المعاد

التفتُ يميناً ، فرأيت الحمامة البيضاء ، تجاور ميسان ، فتساءلت من فوري : «من يشكو : ميسان لميسان ، أم بعضي لبعضي» .

الشارقة - ٢٠٠١

---

(١) تلك «الرفيقة» هي السارد نفسه .

(٢) لا يخفى على القارىء الفهيم ، أن النص المسموع من قبل راوي المتن ، ولنقل إن اسمه : غريب المتروك ، هو من كتاب «طوق الحمامة» الشهير ، لابن حزم الأندلسي . ولكن ما حدث أمامي مرة أخرى بعد سنة على هذه الواقعة ، ولنقل إنها كانت في سنة ١٩٨٣ ، هو أن غريب المتروك (كما يعلم القارىء الفطن ، هو أحد شخصيات رواية : «الثلاثية الأولى» ، التي نشرتها كاملة في الأول من مايو / أيار سنة ٢٠٠٠ ، في نيقوسيا) ظهر عند نقطة فوق ظهر السيف ، يجالس امرأة بيضاء الثياب ، كانت تخاطبه :

قد سلبت الفؤاد منها اختلاساً

أي خلق يعيش دون فؤاد

فأغثها بالوصل تحي شريفاً

وتفز بالثواب يوم المعاد

بلبل سَرَنْديب

حدثني الماجدي ، قال : «هل أتاك حديث النهشلي ؟» .

«رسن الكلام عندك» .

قال الماجدي : أبو النِّشْناش النَّهْشَلي ، هو الشاعر التميمي ، الأشهر بين صعاليك العرب من قبيلة بني تميم ، وكان يعترض طريق القوافل بين الشام والحجاز . ولقد ظفر به أحد ولاة الخليفة مروان بن الحكم فسجنه . غير أنه فرّ من سجنه ، وعاد ليأخذ القانون بيديه ، ويستر حاجات بعض أهل الخصاصة .

«وماذا يخسر الفقير غير فقره ، إذا ما انتوى عملاً ضخماً؟» . علقت مريم بنت مطر . قال الماجدي : على رِسلِك يا أم عيسى ، فما كل ما يتمناه المرء يدركه ، والأحوط في مثل هذه الأمور ، أن يتريث الإنسان ، فلعلّ الانتظار يورثه راحة بال ولو لهُنيهة . ولعل نشيداً واحداً ، بصوت جميل يعدل كتيبة من جند كماة . ثم التفت نحوي ، «وأنت ، يا أخي ، ماذا تقول في خبر اللص التميمي ، كما يصفه البعض ، أو الثائر النَّهْشلي ، كما يحبّ أن يدعوه بعض المعاصرين؟» .

«خطر لي أن أروي على مسامعكم ، ما في جعبتي من أخبار محمية سَرْنديب ، وما حدث فيها من أمر عجيب ، لولا أنك بادرتني بسؤالك . قلت . ـ ايه يا «شايع الشرقي» ، لا تزال كما كنت تكتب في جرايد العرب ، فترد البيوت من أبوابها ، بالحكاية المثبتة ،

والأقصوصة الموضوعة ، والسانحة المرسلة» . تبسّم الماجدي .
«شايع الشرقي؟» .
«نعم ، هذا أحد أسمائك المستعارة في حينه ، حيث كتبت تلك الحكاية عن محمية سَرْنديب ، في يوم من تلك» .
يا ماجدي ، إن الله تعالى ، أقسم بالقلم .
«ناشدتك الله ، أن تعيدها علينا» .
«التكرار ممل ، أحياناً» .
«أصبت ، وكما قلت : أحياناً . لكن عندما يكون في الصميم فهو واجب القلم الذي أقسم به ربّ العزّة» .
«وأنعم ، بكل صاحب قلم ، طريقه طريق القلم الذي أقسم به الله تعالى» .

ثم استدرت إلى نفسي ، وقلت : كان في سابق الزمان ، محمية صغيرة تضم حيوانات أليفة ، ابتليت بقرد استسبع ، بعدما قرّبه والي تلك المحمية إليه ، وهو الضبع . قالت أم عيسى : أووه من هذا الخسيس .

قلت : استسبع القرد على الحملان ، والغزلان ، والحمير ، والبقر ، وطيور مالك الحزين ، والحجّل ، والفرّي ، فكان يقنص ما يقنص من ضعاف الطير ، والحيوان ، ويقدمه لسيده الضبع . قالت أم عيسى : «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» . قلت : «حتى ضجت الحيوانات الضعيفة بالشكوى الصامتة ، إلا عندليب صغير رفع الصوت عالياً ، وقال : أنا له . سأهزمه بتغريدي» .

وهذا ما حدث فعلاً . فكم أغنية انطلقت من حنجرة فنان هزمت عتاة وجبابرة ، ودكتاتورين!

الشارقة - ٢٠٠٢

العبور

كأن النّسر الذي اختطف «دافنشي» ، حين كان عمره لم يتعدّ السنة الثالثة ، هو الذي صفّق بجناحيه ، وقال : «اركب» . ركبت فوق هذا الأشهب الذي طار بي من ضاحية «الثورة» البغدادية ، إلى «ناحية الماجدية» الميسانية ، ومن هناك إلى «العشار» ، ثم عبرنا الخليج العربي ، حتى حطّ الطائر عند أرباض «الحيرة» بالقاسمية .

رأيتُ إلى الطائر الأشهب الضخم ، فبان لي مثل ثور مجنّح . «هل أنا في حلم ؟» . ولم يكن الأمر حلماً ، إنه صحو أكثر صحواً من نهار من دون غيم . فها هو الأزرق الكحلي : البحر ، ينبسط أمامي ، ويقودني الطريق ، خطوة بعد خطوة ، من كورنيش بحيرة خالد ، صُعُداً إلى السوق الإسلامي ، ومنه رأيت مقبرة «الجبيل» ، وبعد ذلك انغمرت في الرخاء الذي قدمه لي البحر ، يساراً ، حيث يقع المسجد الكبير .

ارتكنت زاوية ، وفرشت حقيبتي ، بعدما شربت ماءً بارداً من سبيل المسجد ، وأخذت أتملى المكان ، محاولاً أن أراه بقلبي ، وأتقرّاه بضميري ، لأنه عاد بي إلى خمسة عقود إلى الوراء ، حين كنت صبياً غراً ، أقطع الطريق على قدميّ بين «الكاظمية» وبين محلة «باب الشيخ» ، حيث مرقد الإمام «الكاظم» في الأولى ، وضريح الكيلاني في الثانية .

انبعثت من الزاوية رائحة رطبة . تذكرت : إنها رائحة جدران

بيتنا العتيق . وقال الجدار للزاوية : «ماذا يريد هذا المرتحل إلى المكان ـ الأمل ، في المكان ذاته؟» . أجـــابت الزاوية : «إنه على طريق المتنبي ، يبحث عن سيف الدولة» .

رأيت المشهد بقلبي ، الآن ، وتحرّيت غرف البيوت ، ولمست جُدُرَ الأسوار غير العالية ، وصعدتُ على سوق النخيلات ، ثم طرت في الفضاء ، مثل شاهين يعرف الطريق إلى وكره ، ولا يريد أن يعبر إلى الشاطئ الآخر من بحر العرب .

وها قد مرت عقود من الزمان على ذلك اليوم . وها هو الزمن قد أكهل الشباب ، وشيّب الكهول . وها هم الأطفال الصغار قد شبوا عن الطوق ، واختار كل واحد منهم طريقه بين منفى ومنفى . وها هو قلبي لا يزال على سفر .

١١-٠٤-٢٠٠٥

سَماءُ البَحّار

تعرفت إلى «سماء أبو حكيم» ، قرب سوق السمك . كنت ابتعت رطباً ولبناً رائباً من دكان أعرف صاحبه في سوق الخضرة ، وتوجهت نحو المقهى الصغير الذي يديره الباكستاني سراج الحق .

«تفضل ، اجلس هنا» . كنت قد أودعت أكياس مشترواتي في حوض سيارتي ، وأخذت معي ثلاث فردات من رطب «الهلالي» الذي يذكرني لونه الذهبي ، وتعيد إليّ نعومة مذاقه ، خصوصيات رطب «القنطار» العراقي .

جلست مع نفسي ، إلى منضدة صغيرة ، ورجل لم أعرفه من قبل ، منغمراً في تفكرات وحوارات داخلية ، استكملها صوت رفيع يهمس إلى صاحبه : «اهدني من الباطل إلى الحق ، اهدني من الظلمة إلى النور ، اهدني من الفناء إلى الخلود» .

كان المساء يكاد يلقي بجسده على سطح البحر . وكان سوق السمك مزدحماً بالناس ، حتى لكأن المشهد يذكرك بالساعتين اللتين تسبقان إطلاقة مدفع الإفطار ، رغم أننا في شهر شعبان . «هناك من يستعد لرمضان» .

«واهدني من الباطل إلى الحق» . كأنني سمعت أحداً يستكمل افتكاراتي : كان رجل مغسول بالعرق من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ، ينظر إليّ وهو يضع على الطاولة الصغيرة ماعوناً احتوى على حبات تمر وثمرة موز وحبة جوافة . ثم قال : «الحمد لله

رب العالمين» . عرفت أنه صائم .

«حياك الله» ،

«حياك وبياك ، ورحم أمك وأباك ، وجعل الجنة مثواك» . ثم ابتسم ، فتهيأ لي أني رأيت بدراً منيراً . وازددت قناعة أنه صائم . وكان ذلك اليوم قد صادف اليوم الأخير الذي يسبق يوم عطلتنا . قلت : «مبروك عليك الصوم» . قال : «وعليك ، يا أخي» . وارتفع صوت المؤذن ، فتبلغنا بحبات من تمر ، ثم شربنا غرفات من ماء ، وتوجهنا إلى المسجد القريب . وبعد الصلاة عقدنا لواء صداقة بيننا .

وفي كل مرة تمر فيها باخرته على «الخان» [١] ، كان يهاتفني : «أنا عند الميناء ، فهل تعزمني على فنجان قهوة؟» .

هذا هو سماء أبو حكيم ، الشاب الباكستاني الذي عرفته قبل ثلاثين سنة ، الذي يهبط عليّ كما النعمة ، التقيته قبيل الغروب بقليل ، عند مقهى سراج الحق الباكستاني ، ومعه كيس بلاستيكي صغير ، قرب سوق الخضرة . فرش كيسه على سطح الطاولة ، وفرشت كيسي أيضاً ، وسمعته يهمس لنفسه :

«الله معنا» .

«أنعم به رباً» .

«صار عندي أربعة أولاد ، وأربع بنات . الحمد لله» .

ومن عمق البحر ، كان صوت صفارة الباخرة ، يأتي إلينا مثل الأذان الأول في فجر يوم الجمعة .

---

(١) الخان ، أحد أسماء مدينة الشارقة . ميناء بري ، كان يحتوي على نزل للبحارة والعابرين .

الكيرالي

«أهذه حديقتك؟» .

«لا أعرف» . ومضى في عمله الذي أراه يزاوله ، بعد صلاة العصر من كل يوم ، حتى في يوم الجمعة . هو شاب في الثلاثين ، لم أسمعه يتحدث كثيراً . كان دائم الصمت . سألت جاره محمد شهناز ، الهندي الذي من كيرالاّ ، عن سبب صمته ، فرد شهناز : أدري به .

عرفت اسمه فيما بعد ، اسمه الأول فقط . وعرفت أيضاً أنه من ولاية كيرالاّ الهندية . قال محمد شهناز : كيرالاّ تعني خير الله ، لأنها دائمة الخضرة . ابتسمت لفكرته ، وقلت : شهناز ، منذ متى أنت هنا ؟ قال شهناز هو هنا منذ ثلاث سنوات ، وإنه سعيد بعمله في الصيدلية المجاورة ، وإنه سعيد به أكثر لأنه سيوفر لابنته حَسْنَة الياسمين التي تبلغ من العمر سنة واحدة ، مستلزمات دراستها الابتدائية والجامعية .

«كم مرتبك الشهري؟» .

«الحمد لله ، مستورة» .

لم أشأ أن أسأل شهناز عن جاره الذي يسقي الحديقة الصغيرة ، بعد صلاة العصر من كل يوم . لكنه أعطاني طرف الخيط عندما قال : «سليمان سيغادر إلى خير الله وسوف أعتني أنا بالحديقة» .

الحديقة فسحة مستطيلة وغير عريضة . قال محمد شهناز : سليمان يشتري الأشجار الصغيرة من الدكاكين المقابلة لسوق السمك .

«والنخلة؟» . أخبرني محمد شهناز أنه لا يعرف ، ولا سليمان يعرف أيضاً ، من الذي زرع النخلة هنا . لكنها كانت بداية تأسيس هذه الحديقة . وقال شهناز : سليمان سمى النخلة : حَسْنَة الياسمين .

عرفت أن اسم الشاب الهندي الذي يعتني بالحديقة سليمان ، من صديقه الصيدلي محمد شهناز . ولأنه مستغرق في عمله ، لم أرد أن أفسد عليه هذه المتعة . ولأن شهناز سيواصل مهمة سليمان بعد مغادرته إلى كيرالاّ ، سيكون حواري معه ميسوراً .

«محمد شهناز ، أرجوك أصدقني القول؟» .

«تفضل» .

«لماذا يستغرق سليمان في هذا العمل اليومي بالحديقة الصغيرة؟» .

«سليمان مثلي ، متزوج ، لكن زوجته لا تنجب ، وهو يسمي نخلته على اسم ابنتي : حَسْنَة الياسمين!» . قال شهناز

الشارقة - ٢٠٠٤

أم عيسى

كأن لحمه قد ضاق به عظمه ، أو أنه اصّعد في جوف السماء الثالثة ، بعدما رأى صريفة غريب المتروك ، خالية من ذكر صديقه ، . فمال إلى نفسه ، والتحف قلبه ، ولسان حاله يقول : هكذا هي الأقدار ، باب يفتح ، وآخر يغلق ، والأيام دول .

وتذكر أرجوزة قطري بن الفجاءة ، ساعة مقتله :

أنا أبو نعامة الشيخ الهبل
أنا الذي ولدت في أخرى الإبل

فاستراح قليلاً ، بينما كانت الشمس تودع الأرض الظاهرة لسكان الأرض ، وحاور نفسه :

ماذا يعمل صاحبي الآن؟ . كان يعرف أنه يطلق هذا السؤال عن سابق معرفة ، لأنه يعرف أن غريب المتروك ، إذ اختار العزلة عن منتديات القوم ، ورغب في الوحدة إلى نفسه ، وأحب مصاحبة الوحش ، فلأنه نفض يديه من مغريات هذه الدنيا ، وأقبل على أخريات أيامه ، كما يقبل العربي على ضيفانه .

وجاءه صوت مريم بنت مطر :

سل الضيفان ليلة كل ريح
تلف البَرك عازمة شمالا
ألسنا بالقرى نمشي إليهم
سراعاً قبل أن يضعوا الرحالا

فما نجفو الضيافة إن أقاموا
ولا الجيران إن كرهوا زوالا

وفز قلبه قبل لسانه :

«أم عيسى !» .

يا عونك . هكذا ردت عليه الحرة .

ليس من طبع صاحبنا أن يتفرس في مخاطبه ، فهو لحيائه الشديد من نفسه ، يكلم الناس وبصره نحو الأرض . قيل له ذات يوم :

لم أنت هكذا؟ .

قال : «لا أدري» .

ومن دون أن تدري هي أيضاً ، قصدت أم عيسى تلك الصريفة التي عند الشاطىء الشرقي ، بعدما أحست كأنما نسر عمره ثلاثة أمثال عمر نوح ، يصّعد بها في جوف السماء الثالثة .

هنا ، قالت لنفسها : سأجد الماجدي .

وهنا ، قال الماجدي لنفسه : سأجد أثراً من المتروك .

غير أن غريب المتروك في مكان آخر ، أراده هو باختياره الحر ، كما خرج إلى الساحات باختياره الحر ، وكما تركت أم عيسى انشغالات السوق ، واحتطبت رأياً في منتديات قوم نفوسهم الذرى ، أو أعلى منها .

وقالت أم عيسى :

من لم يعرف أهله ، هلك .

١١ -٩ -٢٠٠٧

طاولة الحصا

قادني القدر- فجراً - إلى سوق السمك .

من يرى سوق السمك ، بعد أذان الفجر بقليل ، لا يصدق ، ولن يصدق ، أن البحر ينسى روائحه . وأن أطياره ، لا سيما تلك الخرافية منها ، لا تعود إلى ساحله ، حتى وإن ضجّ الناس بحديث صامت .

كان ثمة صمت يجلس إلى نفسه ، فجراً . صمت يراقب نفسه ، ويستدعي الأطيار ، ويتفقد أولئك الذين كانوا صغاراً ثم كبروا ، ويبحث عن الكبار الذين تواروا عن الأنظار فجأة .

قفز أمامي شاب في الثلاثين من عمره ، يحمل صندوقاً ورقياً ، وتحدث إليّ بسبابته ، ثم بسط صندوقه بين يديّ وأخذ يهمهم . حركت سبابة كفي اليمنى ، ورسمت بشفتي بعض الكلمات . يا الله ، هل إن راشد البلوشي كبر فجأة؟

قالت المرأة العمانية المخمّرة : «راشد صار ريّال» .

تذكرته الآن ، وتذكّرتها . لم يرها حتى هُدهُدها الذي لا يفارقها ، خارج خمارها التقليدي . وهي ، العمانية التي من «ولاية عبري» تعودت أن ترى جسدها المقمط بثيابها السود ، أمام طاولتها الصخرية .

«راشد الأخرس ، الطفل الصغير ، صار رجلاً؟» .

قالت «أم صالح» : «أنت مثل ما أنت» .

ثم عرضت بضاعتها التقليدية لنور لا يزال يأتي من آخر أهراءات الصمت ، بينما انتصب تاج الهُدهُد .

قلت : «الحمد لله ، لا نزال نمشي» .

قالت : «وصاحبك الشاعر . . و . . .»

. . . وانحازت إلى الصمت ، أو ربما خيل إليّ أنها كانت تحدث هُدهدها ، أو طاولتها الصخرية .

كبرت السيدة العمانية ، وكبر راشد الأخرس ، وتوفي خليفة ، ورحل أبو عمران ، بيد أن طاولة الحصا بقيت كما هي ، وإن بدا أنها تشبه وجهاً لا تزال آثار مرض الجدري بادية عليه .

قلت : «أم صالح . . ماذا تبقى لنا؟» . سمعتها تقول : يا فتاح ، يا رزاق على أهل العراق .

ثم رأيت نورساً صغيراً يحط عند طاولتها ، وهي تلقمه بعضاً من فطورها ، بينما الهُدهُد الرزين ، يقول لنفسه «سبحان الله» .

الشارقة - ٢٠٠٥

جمعة بن شمس

مع بداية الشهر ، أمرُّ على مطعمه . وفي كل مرة ، في الثالث أو الرابع من الشهر ذاته ، أعيد قراءة اسم مطعمه : «مطعم جُمعَةُ الشمس» .

أدخل ، وأسلم على ناس أعرفهم ولا أعرفهم ، بينما الوقت بعد الساعة الثامنة صباحاً بقليل ، فيرد الجميع : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» . وبعد برهة يجيب الببغاء الأزرق : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» . ثم يبدأ يصرخ بصوت عال : «جُمُعَةْ ، جُمُعَةْ بن شمس» .

هذا هو جُمعَةُ الشمس . إنه في الخمسين من عمره ، كان سائق شاحنة كبيرة في شبابه . عرفته قبل عشرين سنة . وذاك هو فاروق العُمَرِي ، تعرفت عليه قبل نحو عشر سنوات ، في هذا المطعم الذي يتألف من دكة غير مرتفعة وأربع طاولات ، تحت سقف من جسد نخلة .

يقترب فاروق ، ويقف قريباً مني ، ويقول : «أرْبابْ ، شَايَكْ بِحَليبْ ، وَبدونْ شكَرْ . أعرف فاروقَ جيداً . إنه في الخامسة والثلاثين ، الآن . قوي البنية ، نظيف المظهر الخارجي . وأمس كان صديقي صاحب «مطعم جُمْعَة الشمس» في زينته الكاملة» .

قال : «سنؤدي الصلاة بعد أربع ساعات» .

قلت : «حرماً يا شيخ» .

دخل المطعم مرتاد جديد ، فقال جُمْعَةُ الشَّمْس : «هذا زبون جديد . إنه من ولايتي نفسها : وَلِيستان» . ثم عدّل من وضع عمامته على رأسه ، واستطرد : «غداً ، سأذهب مع إخواني إلى المسجد الكبير لنعتكف» .

«مبروك عليك يا أخي» .

صديقي جُمعَة الشمس من جنوب باكستان . صديقي هذا ، صاحب مطعم جُمعَة الشمس ، عدد أيام شهره ، سبعة وعشرون يوماً . الأيام الثلاثة الأخيرة ثلاث حقب .

قلت له ملاطفاً قبل عشرين سنة :

«هذه ثلاث حقب ، يا أخي» . ابتسم ابتسامة خفيفة ، ثم قرأ سورة الفاتحة .

يعتكف صديقي مع إخوانه ثلاثة أيام في المسجد الكبير . يقول : «يوم مخلوص النية ، وآخر لتزكية النفس ، وثالث لقراءة الذكر الحكيم» . ثم يعتدل في جلسته ، ويأخذ يرتل بصوت عذب ، الآيات الأخيرة من «سورة البقرة»

. . . وكنت استمعت إلى شبيه له في مدينة «صوفيا» سنة ١٩٨٤ وهو يتلو تلك الآيات الكريمة : الاستغاثة بالله والشكوى له لا لغيره ، والإحساس الذي لا نظير له بالانسجام مع الوجود . بكى الشيخ البلغاري ، وكان ذلك قبل صلاة الجمعة ، ثم كفكف دموعه ، وقال : «سمعت كلاماً طيباً عن الْيِشن» .

كنت أعرف أنه يحملني رسالة استغاثة وشكوى .

. . . وقال صاحب مطعم جُمعَة الشمس : «الحمد لله ، لديّ من رزق الله ثلاثة أولاد وبنت ، توفقت بإرسال والدتي ثم والدي إلى الحجاز . وبعدهما اعتمرت . الحمد لله» .

ثم أخذ يرتل بصوته الرخيم : «بسم الله الرحمن الرحيم . . إذا جاء نصر الله والفتح» .

وبعدما أكمل السورة الكريمة ، قلت : «طيب الله أنفاسك» .

منذ خمس وعشرين سنة ، أنا أمر على مطعم جُمعَة الشمس . ولم يخطر لي أن أسأله عن اسمه . أمس ، وبعدما سلمت على فاروق العُمَري ، بحثت عن صديقي جُمعَة الشمس ، فلم أجده .

«أين جُمعَة ، يا فاروق ؟» . تحرك فاروق قليلا نحو اليمين ، فبانت مرآة خلفه ، شاهدت في عمقها العميق ، صورة رجل بملابس بنغالية ، تشبه صورتي تماماً .

في هذه اللحظة حطَّ الببغاء الأزرق فوق كتفي اليمنى ، وهو ينادي : «جمعة ، يا جمعة» .

شاهدت فاروق العُمَري ، كما لو أنه نخلة بعث إليها نور الفجر لونه الأزرق ، لا يزال يبتسم في وجهينا .

كان وجهه يشبه وجه صديقي جمعة الشمس .

أبو ظبي - ٢٠٠٦

حانة الليلاك

قال الزنجباري :

«ما رأيك لو التقينا عند «حانة الليلاك؟» .

«أأنت جاد ، بالله عليك!» . أكد الزنجباري : «بلى والله» .

وأخذ يصف المحلة ، ويذكر اسم سكيكها واحداً واحداً ، بينما كنت أنتهي من إطلاق خطبتي الأخيرة بين يديه : أيها الزنجباري ، أنت تشبه «بليفر سندراز»! وكان هذا الشاعر واحداً من بين عدد من الأدباء الذين يرتادون «مقهى الليلاك» في شارع نوتردام دي شامب الباريسي ، حيث تعود همنغواي رؤيته يبرم سيجارة بأصابع يده السليمة الوحيدة . ضحك ، ثم ضحكت لفرط استغراقه في ضحكه . رأيته أمامي مهشم الوجه ، مثل ذلك الشاعر : سندراز ، الذي ذكره همنغواي في سيرته ، أو سيرة باريس : عيد متنقل .

ودعت الزنجباري ، وتوجهت نحو مقهانا الليلاكي ، وفي خاطري ذلك المقهى الإيراني في شارع عبدالناصر ، حين التقيت للمرة الأولى شعراء وكتابا وإعلاميين ومتسولي ثقافة ، وأنصاف قصاصين ، ومدّعي نقد .

وفي «مقهى الليلاك» الباريسي ، كان ثمة مُدَّعون أيضاً ، رغم أنهم جميعاً خدموا في الجيوش في أثناء الحرب العالمية الثانية . ولم أكن أعرف أن الزنجباري ، قاتل على إحدى جبهات الحرب العراقية-الإيرانية .

وفي ما بعد ، عندما حدثني الزنجباري عن الشاعر محمد مهدي البصير ، أدركت أني اكتشفت نهر ماء في الربع الخالي . دلني قلبي على تلك الحانة ، عند القليعة ، حيث الحي القديم ، والبحر المحتجب وراء السور غير العالي .

دخلت ، ثم طلبت شاياً أحمر . قال النادل غامزا : «سُلَيْمانِي؟» . ضحكت ، وضحك الزنجباري في ما بعد ، وهو يسمعني أمازحه .

استرحنا الآن . ما ألذّ تلك الفسحة القصيرة من الوقت بعد ضحك يخرج من القلب مباشرة! . وكان صديقي الزنجباري في أوج سعادته ، وهو يقول : «في الجامعة كانوا ينادون عليّ : يا زنجباري» . تعرفت إليه للوهلة الأولى في مكتبه : غرفة صغيرة في شقة أكبر من غرفة صغيرة .

قال بلغة عربية فصحى : «سعيد ، أنا سعيد اليعربي» . تعارفنا بسرعة . وكانت صداقتنا تتوطد بعد كل لقاء لنا . ربما لأننا كنا نتبادل الكتب ، ونجتمع على هواية اكتشاف حانات جديدة .

يعمل صديقي وكيلاً غير متفرغ لمستثمر عقارات حتى الساعة الرابعة من عصر كل يوم . «لم سميت هذه الكافيتيريا» حانة الليلاك؟ «سألته» .

قال : «لألفت انتباهك إلى أنني أعرف همنغواي . وأعرف زوجاته الأربع . وأعرف هيامه بفاتنات هوليوود . ولأنني سرت إلى باريس ، خصيصاً لأجلس في «مقهى الليلاك» حيث كان يجلس همنغواي كلما قام بزيارة لباريس» .

ولم تنقطع محاوراتنا .

الشارقة – ٢٠٠٧

البنجلوري

قال بابو البنجلوري ، الحلاق الهندي في صالون عرصتنا ، بينما كان ينتهي من تزيين شعر رأسي : «أرباب ، الدنيا هُلْوى ، لازم تصير هُلْوى ، حَتَّى لُوْ هِيْ مُوْ هُلْوى» . ثم ضيَّفني : «بَدَّكْ شايْ سْلَيْماني؟» .

«شكراً بابو» . وأردت أن أقول له : «أنت أبلغ من بول كلودويل ، الذي قال «ليست الكلمات سوى شذرات مقتطفة من مجموع سابق لها»» ، إلا أني أجلتُ فكرتي إلى المرة المقبلة ، أي بعد شهر ، عندما أزوره مرة أخرى .

تعرفت إلى بابو مثل أبناء العرصة جميعهم ، من دون أن أعرف اسمه : إنه يبتسم فقط ، ثم يدعوك إلى الجلوس على كرسي التزيين ، من دون أي كلمة ، سوى إشارة من يده اليمنى .

بعدما ينتهي من تزيين شعر رأسك ، تنقدهُ «المقسوم» ، مع «البقشيش» الذي لا ينتظره أبداً ، فجميع زبائنه يعرفون التعريفة الرسمية المعلقة في أعلى المرآة بناء على توجيه من مكتب البلدية ، وهو يعرفها كذلك . إنه يبدو منسجماً مع الجميع ، والكل منسجم معه أيضاً .

حدث أنني سألته ذات يوم : «ما هو اسمك؟» .

تلدَّد قليلاً ، ثم أجاب : «بابو» .

«هذا اسمك الأول ، أم اسم العائلة؟» .

«كلّهُ بابو ، أنا بابو ، بابا بابو ، كُلّنا بابو ، حتى الجد» .

في شهر سابق عرفت من أحد زملائه أنه أمضى عشر سنوات في أيشان أم الهند . قال أخيراً : تسع سنوات في هذه العرصة ، وسنة في شارع ـ ٦٠ .

عرفت أن لديه بنتاً صغرى ، وبنتاً أخرى كبرى . الكبرى اسمها جيبيل .

«حسناً ، يا أبا جيبيل ، هل أنت سعيد بيننا؟» . يرد بابو بهزة رقيقة من رقبته السمراء ، ويبدأ بحديث سريع ، أفهم منه أنه بنى بيتاً ، وأرسل أمه إلى الحج حسب دينه ، وساعد أخاه الأكبر على توسيع بقالته . ثم ينهي حديثه بابتسامته العريضة .

أقول له : «كُلّنا عيال الله . الله واحد» .

«لَيْشْ الأوادم يُفرِّقون بين الأوادِم ، أرباب؟» . سألني بابو السيخي . كان يصف حالتنا نحن أبناء اليشن من الماء إلى الصحراء .

ولا يزال صوت كلمات بابو البنجلوري ، يتردد في جنبات العرصة :

«ليش الأوادِم يُفَرِّقون بين الأوادِم؟» .

الشارقة - ٢٠٠٧

الفقير

كان يقف بمواجهة السور ، ويكوّر قبضتيه ، ثم يهمس للطين :
ماذا يقول الطين للطين ، عندما يتواجهان في خط الزاوية؟ .

يستمع الطين إليه بانتباه ، وتنضحت طابوقة عجوز دمعاً أسود ، فيقول لذاته : مرحباً بك أيها الفَقْر . هو هكذا ، خلف السور وخارجه ، متصادق مع الفَقْر .

وعندما كانت أمّهُ تقطع الفيافي والقفار ، مرة على قدميها ، وأخرى مستعينة بالقطار العادي النازل نحو الصحراء ، وثالثة في سيارات الشرطة ، كان يسألها : ماذا تبقى لدينا؟ .

كل شيء . عندنا ما يزاحمنا عليه الملوك والأباطرة . ثم تحلّ عقدة في شيلتها ، ويتجه بصرها إلى صرّة صغيرة ، وتقول له : هاك . الرسالة لك . يقرأ الرسالة المكتوبة بحروف صغيرة : أيها الفقير إلى الله ، صُنْ رفاقك ، وتِدْ في الأرض قدمك ، واحترم العلم والعُلماء ، وأعِرْ جمجمتك لله ، ولا تصاحب الظلمة . . أيها الفقير اخْتَرْ فقرك .

في البدء رأى أمه ، ثم أباه ، ثم رفاقه الصبية والفتيان ، وبعدهم الذين تقطّعت بهم الديار ، أو الذين هاموا على وجوههم في مدن العالم ، وأولئك الذين اختفوا في الرمال ومصبّات الأنهار .

وفي ثانية البدء ، رأى أباه صورة للفقر . قال أبوه : «انظر إلى ظهري» ، وكشف الوالد عن ظهره ، فتبدّت آثار التعذيب والتعب .

«وهاك يدي» ، وبَسَط الوالد كفّيه ، «لترى بياض راحتيّ» .

قال صاحبي : نعم ، رأيت يا أبتاه .

قال والده : «أوصيك باختيار الفقر ، فإنه طريق روحك إلى صميم العالم . واعلم أنك صائر إلى الغنيّ ، فقل بين يديه : يا رب ، هبني روح عزلتي في هذه الدنيا ، لأربَحَ فقري بجوار مشيئتك» .

ومنذ ذلك اليوم ، اليوم الذي لا يعرف متى ابتدأ ، اختار الفتى مصيره ، ركعتي صلاة بين مكة وحراء وعليقة متروسة بالفراغ .

وحين يسأله السابلة : ماذا تحمل أيها المجنون؟ يرد بقوله : إنما هي نفسي أروضها بالفقر . وعندما كان لا يمتلك إلا فقره ، كان يقرأ كما هو الفقير ، ويكتب كما هو الفقير ، ويتصرف كما هو الفقير ، لأنه فقير إلى الله فقط .

في هذه الساعة ، يتذكر صاحبنا أمه ، ووالده ، وأخاه ، وشقيقته ، وزوجته ، وأولاده . . وفقره ، ولا يندم أبداً .

الشارقة – ٢٠٠٢

---

* إضاءة : يتضمن النص مأثوراً للإمام علي كرم الله وجهه ، منقولاً بتصرف .

السيدة شيفا

حدثنا محمد المهدي ، قال : كتب رفيقنا جمعة اللامي ، في كشكول مذكراته اليومية ، في السنة ما قبل الأخيرة ، قبل أن ينتقل إلى الغرفة الأخرى ، هذا النص :

عند الرابعة فجراً ، اليوم ، وكما حدث قبل عقود ،

التقينا ، أنا وصديقتي العجوز ، المتشردة ، بسنواتها العشر : أهلا مدام شيفا .

هكذا كنت أحييها دوماً . لم ترد علي التحية كما تعودت في العقود الماضية «مدام شيفا ، ماذا حدث؟» .

كانت تبدو غبراء ، شعثاء ، ضامرة ، تجر خلفها أربعة جراء صغيرة عمياء . «شيفا ، ماذا جرى لنا ؟» . فضلت أن تبقى صامتة ، فقلت في سري : «أيها الرجل العجوز المترف ، ترفق بحال رفيقة قديمة» .

لم تدعني شيفا أتابع فحص شيخوختي في حضرتها المنكربة ، فانطرحت على جنبها الأيمن ، منهكة ، ودعت جراءها الأربعة إلى ضروعها .

«آخ يا رفيقتي المسكينة ، أين كنت الليلة البارحة ؟» .

كنت قد استيقظت على كابوس : رأيت الأفعى التي قتلت حكمة الشامي ، لا تزال تطاردني في أحلامي ، وسمعتها تفحّ : «أين ستختفي مني ، أنا أقتفي أثرك ، شارعاً بعد شارع ، ومدينة

بعد أخرى ، ومن مسجد إلى كنيسة ، إلى كنيس ، إلى موقد النار البيضاء ، إلى آخر المذابح» .

الآن ، وحدي في هذا الفجر الصافي ، إلاّ من رفيقتي العجوز مدام شيفا التي تحتضن جراءها الأربعة ، رأيت تلك الأفعى التي تلاحقني في نومي وصحوي وصلواتي ، تتسلل من تحت باب شقتي في منطقة السور ، بمدينة الشارقة ، على بعد خمسة كيلومترات من شاطىء البحر ، وتتوجه إلى سرير أحد أبنائي .

الآن ، وحدي في حديقة زينب ، إلا من رفيقتي شيفا المنهكة ، التي تطعم جراءها آخر نقطة حليب في ضروعها ، أطلقت صرختي ما قبل الأخيرة : «أيتها الأفعى ، يا قاتلة أصدقائي ،

المتلونة مع كل وقت، أنا مستعد الآن للقتال» .

وضعت عصابتي الحمراء حول رأسي، واندفعت نحو بيتي وأنا أعيط وحيداً تحت سماء فجر صافٍ : ـ أيتها الأفاعي، ابتعدن عَن أولادي الأربعة .

قالت مريم بنت مطر : «بعدما استمعت إلى كلمات محمدي المهدي، توقفت عند نص رفيقنا جمعة اللامي، أبرقت إلى صديقتنا زينب : «مجنونك الأخير، اقترب من تدوين نصه الموعود» .

الشارقة – ٢٠٠٨

صديقتي ديفي العجوز

كانت مئذنة المسجد على يساري ، حين لمحت صديقتي الهندية : ديفي .

ديفي كانت في الثمانين ، عندما افترقنا قبل ألفي عام . ديفي كانت اليوم ، كما كانت قبل دهور ، عارية الكتفين ، كانت ضامرة ، أنهكها الصيام والتجوال في الحدائق والقرى المخربة . مكشوفة البطن ، حاسرة الرأس شعر رأسها أبيض كالثلج ، وجلدة كفيها بيضاء ، فوق عروق زرقاء صافية .

«ديفي ، ديفي . . .!» . سمعتها تسمع صوتي ، وصوت نملة عمياء .

«ديفي ، يا ماجي . .!» .

التفتت نحوي ، ربما ، وربما كانت تتحدث إلى زميلتيها الاثنتين . لم أستطع التفريق بين ديفي وزميلتيها ، كانت تحمل قارورة صغيرة مُلئت دقيقاً .

ديفي الثانية ، تمسك بقارورتها أيضاً .

ديفي الثالثة ، مثل ديفي الأولى وماجي الثانية ، بينما صوت خطيب المسجد ، ينادي : الويل لخائنات الأعين !

قبل أن أغادر شقتي المؤجرة ، متجهاً نحو حديقة زينب ، تقدمتني إلى باب الشقة ، مدبّرة المنزل ، سلام الإثيوبية . قالت : بابا . . تناولت دواءك ؟

«نعم» .
«وحميت قفاك بالكنزة الصوفية ؟» .
«نعم» .
«الله معك» . ورأيت صليبها يتدلى على صدرها ، بينما كان يأتي إليَّ ، صوت إمام المسجد من الجوار القريب . كان صوت خطيب المسجد ، مثل عاصفة .
وفي هذا المساء الخريفي الغائم ، عادت ديفي إليَّ ، بعد غياب أبيد .
«ديفي ؟» .
«ماجي ؟» .
فتحت قارورتها الصغيرة ، ورشّت دقيقاً أبيض ، عند عين حفرة لا ترى .
«مريم ؟» . وكانت رفيقتها الثانية ، تنحني على رصيف خرب .
«ديفي ؟» .
وَجَدَتْ ديفي الثالثة ، نملة عمياء أخرى ، تحت شجيرة زهرة الـ«فِنْكْ» .
أعرف هذه الشجيرة ، منذ ألفي سنة .
أعرف الثلج الذي يستدير حول وريقات الزهرة البيضاء .
أعرف شجيرة عارية ، سميتها مريم بنت مطر . عارية تماماً ، بينما صوت خطيب المسجد ، يطاردني : «الويل للكاسيات العاريات» .
كانت ديفي ـ الآن ـ لا ترى النمل .
كنت أرى ديفي الأولى ، نملة عمياء .
ديفي الثانية ، نملة عمياء ثانية .

ديفي الثالثة الأخرى ، نملة عمياء ، ترقد تحت قشرة الأرض .
وماجي ، نملة عراقية عمياء .
وعلى يساري مئذنة المسجد ، حيث يتصاعد صوت الخطيب ، مثل طوفان .
كان صوت الخطيب عالياً جداً ، منذ أن سمعته ، عالياً جداً ، بعد موت محمد .
صوت الخطيب ، زعيق متواصل .
«أبشركم ، بعذاب القبر» .
تذكرت مدبرة شقتنا الأرثوذوكسية ، الآن :
قالت : «الرب معك ، سيدي» .
هي شابة في الرابعة والعشرين ، سمراء ، مثل مريم . جميلة ، مثل فاطمة .
وحيية ، مثل زينب .
وكانت بيضاء الشعر ، مكشوفة الكتفين ، مثل ديفي .
يعيد خطيب المسجد ، خطبته القديمة ،
خمس مرات في الساعات الأربع والعشرين .
«الويل ، الويل . . .!!» .
بينما كنت ألتحق بصديقتي الهندية ديفي .
«ديفي ، يا ديفي العجوز ، يا «ماجي العجوز»»
التفتت إليَّ ماجي ، أو ديفي ، أو فاطمة ،
فتقدمت نحوها ، وتناولت قارورتها الصغيرة ،
ونثرت دقيقاً أبيض ،
عند عين لا ترى ، لمجتمع نملي ،
بينما صوت خطيب المسجد ، لا يزال يقصف سمعي ،

ويستبيح تعب ديفي ، وماجي ، وفاطمة ، ومريم الطاهرة :
«الويل ، . . ثم الويل» .
ثم الويل والثبور ، وعظائم الأمور ،
لخائنات الأَعين .

٢٣ - ١١ - ٢٠١١

الشيصباني...

وتَابِعُهُ ابْنُ قَرْقَرَةَ القَرْواتي

﴿ويل للذين يُميتونَ قُلوبهم﴾

١ . الشبيه

يعرفه كاتبو الرُقع الرُقع السلطانية ، وأرباب القراطيس ، ورواد التكايا ، وقليل من الدهماء ، لا سيما كثير من عمال البريد السلطاني ، باسم : «مُحَيْميد بن عبيداللاّت المَهتُوك» . اما أما في الأحاديث المتداولة بين صفوف القُرّاء الذين يطوون المسافات على ظهور مطاياهم ، وهؤلاء يبجلون العقل والأشواق ، فهو : «عبدالله روزبه» ، وكنيته : «أبو محمد» ، في أكثر الروايات ثقة ودقة . وهذه بها إحالات مجوسية في يقين الأصوليين . أو فارسية ـ كسروية ، في حسبان غير المتشددين من كتّاب عصره وعلمائه وأدبائه . ومهما كانت آراء الناس فيه ، فهو يعيد إليّ نمطا من الشخصيات التي أوليتها انتباهاً وفحصاً ، من بينهم الوَضّاع «سيف بن عمير القَرواتِيالكوفي» .

في ميزاني (ولكل كاتب نجوم ميزانه وثُريّاه) أنّه كاتب عن

سبق دراية وتصميم وتدبير «عَبَرَ مِن عَصْرٍ إلى عَصْر» ، بتخطيط وتنظيم ، بعد أنْ قلّبَ امره على خامس وتاسع وأحد عشر في قضية لا تزال محل حوار مهموس ، سنسولها هذه الأسئلة وأجوبتها : «من أنا ؟ ما هي رسالتي ؟ من هم جمهور رسالتي ؟ وكيف أُوصل رسالتي إليهم وإلى غيرهم ؟» . حاول نفر من كتبة الرُقع السلطانية ، وأصحاب المنابر المُقرْطَسة ، اتخاذه إماماً والسير على دربه (وهنا وقع ما كان يجب ألاّ يقع) ، أشير إلى اسم أحدهم في هذه الخطبة ، بكنيته التي رافقته بعد اجتماع مقفل مع ثلة من أنصاره في عرصة يقال لها «باب اموت» في مدينتنا . تلك الكنية هي : «ابن قَرقرة» ، الذي سيُقدِّر كثير من قراء هذه القصة معرفته ظهراً وبطناً وقلباً بعد وقت وجيز ، بينما عرفه أضرابه ومحازبوه ، من فوق ومن تحت ، وظاهراً وباطناً ، على وفق مقولات وتحبيرات كتبة الرُّقع السلطانية التلقينية . فبقي قسم منهم مجاوراً له ومؤازراً خطابه . وانفض آخرون عنه (مثل القصّخون عبداللّه السِّخين) ، وقبِل غيرهم أن يبقي مسافة بينهم وبينه ، وهم يشتغلون في منابره المكشوفة أو تلك التي تتغطى بعناوين أخرى (وهم سيأتي ذكرهم ولو في عجالة ، إنْ شاء الله) . لكنه عرف مناطق ضعف هؤلاء جميعاً ، والتي يلخصها بكلمتين تترجمان خطابه الثقافي والأخلاقي : «الزنى والمال» .

لم يكن ينتمي إلى أي من العصرين (أيّ عصرين . فالمقصود هنا هوالإيضاح والإفصاح ، حتى يتبين لغير المتبحرين في فقه «علوم الرياسة» أنّ هذا الشبيه ، مثله مثل من يمسك برمانتين كبيرتين بثلاثة أصابع من إحدى كفّي يديه . وفي هذا مقتلة عظيمة ، كما حدث للشيصباني) ، بعد أن كان عنواناً لمصير رجل

من سلالة الأكاسرة ، عُرفَ بأنه قتيل أبي جعفر المنصور على البصرة . سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلّب بن صفرة اتخذ هواه دينه ، وجعل منهما عقيدته وديدنه ومصحفه .

وكنت متحصناً في حصني الحصين المحصن (بعد أن اهتدى اليَّ القصّخون السِّخين) ، أعود بذاكرتي إلى مشهد تحريق قراطيسه وكتبه ، عندما كان أبو مِجرِن الشيصباني يدخل إلى إيشان أُم الهند ، في عصر ذلك اليوم الذي وافق التاسع من «شهر جريان مياه الأنهار» من سنة ٣٠٠٢ ، المقابل ليوم السبت المَسبُوت . كان موكبه يلي موكب (القومندان بَري - بِنْ - مَار) شيخ قبيلة بني الأُحَيمِر ، فاستحق هذا اليوم أن يُسجَّل على صحائف تاريخ اليشن ، لأنه كان عبوراً من عصر إلى عصر ، ومن أمة إلى أمة ، وارتحالاً من مكان إلى مكان ، وهروباً من شِعب إلى شِعب ، ورجوعاً من فَرْخ إلى أفْرُخ ، أو إلى فِرْخان ، كما يقول اللسانيون من اللغويين .

وسِمة اللسانيين الإخباريين الكلامُ . ثم الخطّ والتدوين في طور متأخر . ومن خيوط هذه الدَرِيَة ، نسج محمد المبارك على نَوْلِه (وهي الفكرة التي كيَّفَ القَرْواتي نفسه لها ، لأنه نشر صحائفه في أصقاع بعيدة ، بعدما تهيأ له من يمده بالمال والبغايا والمخانيث ، أو أنه أنّه حصل على هذه الوسيلة بمكره ودهائه ، وقلة صبر مجايليه وفساد سنخهم) ، فأخذ يحدّ لسانه بمبرد بَصْرِ مُبصير ليل نهار ، (لا سيما عندما كان يقطن في بُلَيْدَة يقال لها «بَصرياثا» التي هي من أعمال دستميسان ، على وفق رسالة بعث بها أمير الجيش المسلم ، عتبة بن غزوان المازني ، إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب) فاستطاع أن يلفظ حرف «الضَاد» مثل جيرانه الكِنانيّين . بل إنه (كما تدل على ذلك آثاره ومدوناته ، لا سيما «الأدب الصغير

والأدب الكبير») بَزَّ أولئك الجيران طُرّاً ، حتى أدخلَ في روع الناس ، حقيرهم وأميرهم ، إنه أنّه يكتب الكتاب كما يريد هو ، فيستغلق معناه حتى على الفهّامة العلاّمة من كتبة الرُقع السلطانية الهندية والبيزنطية والرومانية والساسانية والأموية والعباسية والأندلسية . وهذه هي سمة اللغويين من أصحاب مدرسة خطاب اللسان ، لأن اللسان شغلته الكلام في الهواء .

وورد إليّ في اخبار متواترة ، أنّ ابن قَرْقَرَة (وهذه صفة ملازمة له - المقصود هنا بالقرقرة التي هي ضراط معدة الرجل ، وقيل أيضاً هي التي تنبعث من جلدة مثانة الإنسان / وأنا أميل إلى الرأي الثاني - تنشط عند حَرمَلَةِ أيّ مجلس يرتاده) كتب مفتتحاً مقدمة إحدى رسائله إلى شيخ بني الأُحَيمر على إيشان أُم الهند : «يا حضرة القومندان : اجعلْ لسانكَ مَتْجَركَ ، وكلمتك تجارتك» ، فتلقف الجمهور من أفراخه وأشياعه (ومنهم الثلاثة الذين ترافقوا مع شرهون بن بغيل) كلماته هذه ، حتى صارت مثلاً سائراً (وبعضهم جعل منها رقعة وعلّقها عند صدر مجلسه) ، من ناحية العبرة للناس ، للتذكير بما حل بذلك الشبيه المتعالم . نعم ، هو متعالم ، (لأنه عرف نفسه ونسي الله) وهذه آفته .

وآفة الشيصباني ، إهراق دم النفس المحترمة (فائدة أولى : عن جابر بن زيد الجعفاني . قال : «سأل سائل النَجّاري» متى يظهر السُفياني؟ «قال المحدث السنْد محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي أبو عبد الله النجّاري» وأنيّ لكم بالسُفياني حتى يخرج الشيصباني فيقتل وفود البطائح إلى المَزارَين المُربَّعَين ، وبعدها ترقبوا ظهور وليّ العصر المنصور بالرعب والمؤيد بالنقمة . وهذا في آخر الزمان»[1] واستباحة خدور النساء ،

واتخاذهن سبايا مملوكات لأبناء فرقته ، توكيدا لمذهبه في التفوق على بقية البشر الذين هم في عقيدته أقوام ركبهم ركبهم الكفران ، وهيمنت عليهم الضلالة ، وأنّ قتلهم حلال لأبناء طبقته الناجية ، **فائدة ثانية** : وفي هذا الشان له مقولة يحتفظ بها أنصاره ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويورِّثها الكبار للولدان والغلمان . تقول : «نَحنُ طينة الله التي عجنها بكفيّهِ الكريمتين . ومن فَضْلةِ ما بقي من تلك الطينة الشريفة ، خُلقَ الملائكة والنبيون») . وخطب ابن قرقرة في أنصاره ذات سنة : «نحن القَرقَريَون . . جُبلنا من طينة واحدة» .

وهذه الفكرة ، أي تفضيل مِلَّة على غيرها من العالمين ، أو تكفير ما سوى صاحب فكرة الفرقة المجتباة المرضيّ عنها (حسب خطاب أهل التقليد) ، هي آفة أبي قَروَة وأشياعه . لكنها ليست من ثقافتي ، لأني اتخذت لروحي غرفة في سُرَّة فضاء العقل ، وعاهدت نفسي على الرجوع إلى ما هو مُدوَّن ومكتوب ، بعد محاججة مع القلم ذاته . وفي هذا أقول : «اليقظةُ مَنطقُ العَقل» .

ولله الحمد على بلوائه ونعمائه ، فلقد عرفت يقظتي بقلمي ، وهربت بعقلي وقلبي إلى الشاطىء الشرقي من «بلاد يقال لها» مصر العُبَيْد ، يوم ترصَّدني الشيصباني ، فبثَّ عيونه حولي ، وهو يأمر عصابة انتخبها من خاصَةِ مِلّته ، كانت مخصوصة بالعسِّ على خصوصيات الناس : «عليَّ به ، وسوف أُخرج لسانه من قفا رقبته» . ولم يكن هذا الخطاب مزحة أو طرفة من هذا الذي ترصد قوافل الحجيج والزوار السائرين من البطائح والأرض الحماد في ميسان ، إلى كورة كُوفان وأرض الطَّف ومقبرة القرشيين المشهورة أخبارها في رصافة الزوراء ، واعمل في صغيرهم وكبيرهم السيوف ،

وجعل من السيف اللاعب على رقاب ضحاياه شارة دالة على رايته الشيصبانية ، حتى لقد بلغ خوف الناس الحلقوم .(٢)

كان الشيصباني يوصي ربعه بالتشدد في أذيَّة مخالفي عقيدته ، اذا ما ظفروا بأحدهم (لا سيما اذا كان كاتباً أو نفّاجاً أو قاصاً أو مصوراً) ، أو إذا ما تمكنت سريّة من زمرته ، من الفوز والنُّجْح في غزوة من غزواته على القرى النائية أو الدروب القصيّة في الصَحارى والبوادي والأجمات . ولا تزال الناس تتذكر صرخته في عصابة من أنصاره تمكنوا من اعتقال كاهن نصراني بتهمة إشاعة تناول نبيذ العنب مع كسرات خبز مخبوز من دقيق القمح في احتفال قوم عيسى بذكرى ميلاد نبيهم بكنيسة سيدة الأحزان ، المعلومة للقاصي والداني في دسكرة الزوراء .

. . . أقول : خطب الشيصباني من على منبر أُقيمَ له في حرم مسجد بُلَيْدَةِ تَكْتِير (وتعني باللغة اليونانية ذات الثدي الواحد ، كما أورد «ياقوت» في «المعجم») : «الله أكبر ولله الحمد . اقتلوا المرتد جمعة اللامي ، كما قتل أسلافنا الهداة المهديون ، محمد بن أبي بكر ، وأريد رأسه عندي في ديوان الإمارة . الله أكبر وله الحاكمية في الحياة الدنيا والحياة الآخرة»(٣) . فردد الجمع بعده «الله أكبر . الله أكبر . أُعْلُ مولانا الشيصباني . الله أكبر» .

وهكذا ترونني سارداً على طريقة قدامى أشياخ السرد الشفاهي والمكتوب ، جامعاً الشخص المُعَرَّف المعروف (كما هو ابن روزبه ذاك) ، بالآخر المجهول والمصنوع (مثل الشيصباني الذي جاء من وراء نهر الأردن إلى بطائح اليشن ووهادها وأجماتها وتلالها وبواديها ، وتابعه ابن قرقرة الذي لا يستطيع مخاطبة الناس إلاّ من وراء أقنعته متعددة الأشكال والأصباغ ، بعد أن استوطن قلعة

عرفت باسم أحد أجداده المدعو «عبدالسطيح») ، بعد أن انصاعت الكلمات إلى صناعتي وفني ، فصارت هي مثْلي ، وغدوتُ مثلها ، من دون انتظار أي عقبى ، سوى نعمة الكلمة في ذاتها ولذاتها ، حتى نسب إليّ أقوام وملل وأمصار ، القول المشهور : «إذا أتيتَ مجلسَ قوم ، فأرمهم بسهم الكلمة . إنَّ الكلمة هي الفن والأسلوب . والأسلوب هو الإنسان» .

أنا (يا إخوتي وأخواتي) مُرَوّضُ الكلمة .

أنا (أيها القراء الكرام) الكلمات خَيْلي ، واللغة إبلي . أمّا مقاماتي وسردياتي فهن أناشيد الآلهة وترانيم النبيين ، وسطوة الملوك والأباطرة ، وأحلام الشعراء والنسّاخين والمجانين والنفّاجين والمصورين . وهؤلاء جميعاً ، أجمعهم في القول المتواتر : أرى شُغلَةً هاجتْ وماجتْ وباضتْ وفرَّختْ / ولو تُركتْ طارتْ إليها فِراخُها .

أما شغلتي (أو موضوع عملي القصصي هذا في أحد جوانبه) ، فهو شَرهون بن بغيل الأفرخ ، تابع الشيصباني ، ومريد ابن قَرْقرة ، الذي صنعته بكدّ كلماتي (كما صنع الهمذاني شخصية ابي الفتح السكندري) ، مثلما ستقرأون في هذه القصة التي أردت أنْ يكون هذا الإيجاز بياناً وخطبة أولى لها .

٢ ـ شَرهون بن بغيل الأفرخ

عبرتُ من «أُم الهند» إلى إيشان «الفريخات» . وهناك رأيت شرهونا للمرة الأولى . أمّا هو فتصرف كما لو أنه يعرفني بكوني أحد وجوه إيشان تَلْ سْفَيِّحْ ، الذي كان يتوسط الإيشانين اللذين كانا معروفين للرائح والغادي .

تعرفون (كما ارجو) أنَّ كلمة «إيشان» تحيلنا إلى أحداث

وتأويلات تاريخية وجغرافية وإنثروبولوجية ، .تضعنا في عمق مشهد لا يزال يقبل علينا من ساعة تبعد عن يومي الحاضرهذا ، بأكثر من خمس الفيات ألفيّات من السنين . ولمزيد من المعرفة العمرانية والجغرافية بمكونات هذا المكان ، سوف أطلق اسم مدينة أو بلدة ، على كل إيشان ، تبعاً لتطور البلدة حضارياً وثقافياً . وبهذا الوصف تكون مدينة فليفلة هي تطوير لإيشان فليفلة ، ومدينة تل سْفَيِّحْ هي مستقبل إيشان تل سفيح . وكذا الأمر حيال إيشان أم الهند ، الذي هو الآن في هذه القصة ، مدينة عامرة معمورة وماهولة ، لا تخلو من العلامات والأمكنة الفارقة مثل غيرها من المدن الكبيرة ، مثل «المَنْزول» ، (او الدربونة في تسمية اخرى «وهو المبغى السلطاني بلغة هذه الأيام») ، والجريدة التي تصدرها دار البلدية ، والأوابد والنُصُب والآثار التاريخية الشاخصة ، فضلاً عن الأسواق والمعابد ودور القضاء ومخافر الشرطة وثكنات الجند والمقابر والأضرحة والمعابد والمقامات والدكاكين والعرصات والدروب وبيوت المال ومراكز البريد والعسس السرية منها والعلنية ، والسجون والطوامير ، وغيرها . . وغيرها . وهكذا فإنّ شرهون (كما سترون معي) إحدى العلامات الفارقة في مدينتنا .

أما الشيصباني فهو ذروة من ذرا العلامات الفارقة في تلك المدينة الغابرة التي كانت تقع شمالي مدينة أم الهند ، بحوالي ١٢٥ فرسخاً ، وسمّاها ياقوت الحموي في «معجم البلدان» بـ : «ذات النهد الواحد[٤]» . وسأبقي على تسمية ياقوت لها ريثما أتيقن ، إنّني عثرت على اسمها الصحيح بين خرائطي التي احتفظ بها حتى يوم ظهور الرجل الذي سيقتل الشيصباني . وأحسب أنّ إشارتي الأخيرة هذه سوف تثير أسئلة حول صناعة الكاتب وفنه .

نعم ، أيّ كاتب ، ومَناجِمهِ التي يرجع إليها في صنعته وفنه .

أنا اسمّي كل منجم من تلك المناجم ، كوكباً . وهل تستوي أنجم الميزان والثريا مع نُجَيم خَوَى وخمد ؟ . إذن ، لكل «كاتب ـ كاتب» ، (على وفق رأي الشّيخ أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروزي الدينوري) كوكبه الدُرِّي .

امّا كوكبي الدُرِّي «أنا ـ جمعة اللامي ، السائر على طريق (أبي الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد ، بديع الزمان الهمذاني ، التغلبي ،) وأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري الجاحظ ، وأبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي ، في الكتاب والكتابة» فهو كائن من نور ، يستمد سِرَّهُ من شجرة مباركة زيتونة جذورها في أسفل (أسفل أسفل) الأرضين ، وأعلى ذؤابات أغصانها تتسلق جدران سقف غرفة مباركة في ما فوق عليّين . (وهكذا أُتيح لي أنْ أرى مصرع الشيصباني على يد الرجل القريشي الذي سميته : «مُحَمَّداً المَهْدِي» في كتابي الموسوم : «اليشناليشن») .

وليس في هذا أيّ كهانة أو تنجيم ، لأنّ معرفة كيفية صناعة المستقبل من صلب عمل الكاتب . هذا يعني الذهاب إلى أشراط الساعة . ورسالتي إليكم (أيها القراء النابهون) معرفة موطىء قدميْ الشيصباني في تلك الحقب المقبلة .

وكما قرأتم ، عنوان هذا الفصل هو : شرهون بن بغيل الأفرخ . وهنا يدعوني كوكبي الدرّي للعودة إلى مدينة أم الهند ، لمعرفة هذا الرجل الذي مزج في شخصيته صمت العيلاميين ، وخفَّة الخِصيان العرب ، وباطنية العبرانيين .

٣ - القِردُ يُدَرِّبُ القرّاد

تعرف أم الهند ، إبنها شرهونا ، معرفة أهلها طلوع الشمس في رابعة النهار ، قبل أنْ يغادرها إلى ما وراء الشاطىء الآخر ليدرس صناعة علوم القلب بعد حكايته مع حاجب سرداب سجن رَحاب ، المدعو (راكان بن تلفاهين) ، الذي كان جلاداً بدرجة «نَيّاك» في ذلك السجن . (جاء في موسوعة العذاب والمعذّبين : «تعشّق السجان راكان شرهونا أياماً وشهوراً ، وتحبب إليه بعدد من الأفعال والهدايا . وكان يمضي ساعات من حراسته على زنزانة شرهون متفرساً في جسده الناعم الأملس غير المشعر ، وهو ينادي بصوته الرخيم : (نومة العروس . . يا شرهون) . وكان شرهون يعرف مرام ابن تلفاهين ، ويعرف أنّه ضعيف أمامه ، لا سيما إذا ما نفذ راكان وعيده ، وواقعه عنوة ، فاختارأنْ يستجيب لإلحاح السجان (وكان قد تذكر نصيحة سابقة من أستاذه ابن قرقرة) ، فدخل ابن تلفاهين إلى زنزانته في ليلة الخميس من شهر سيول أنهار اليشن ، وبات ليلته هناك . وفي صبيحة اليوم التالي ، سمع السجناء صوت راكان مؤذناً . وكان المسجونون يعرفون أنّ راكانا عندما يؤذن بين جدران زنازين رحاب صباحاً ، يكون قد واقع سجيناً منذ ما بعد منتصف الليلة السابقة حتى صياح الديك ، عنوة أو برضاه . وانتشر في زنزانات السجن نبأ التوالف الجديد بين شرهون وراكان بن تلفاهين ، وخرجت أنباؤه إلى أبعد من الأسوار الثلاثة لقلعة رحاب ، حتى وصلت إلى سمع ابن قرقرة القرواتي ، الذي كان قد تعرض إلى موقف مشابه في سجن بلدة ديالا ، فقال في نفسه : «هذا رديف جديد ، هو يعلم أنّني الوحيد القادر على إعادة شرفه إليه .»

وهكذا ابنْ قرقرة فرصة مناسبة للظهور بمظهر المدافع عن المظلومين والمنتهك عفافهم في سجون إيلشن وطاموراتها ، وفي الآن ذاته ليكسر عَينَ شرهون ، فقال لشرهون : «يا رفيقي العزيز : قلْ إن ّراكان ناكني عنوة وآغتصاباً . . . تربحني ، وتكسب عطف الناس . وأنا لكَ ضَمين» . فقبل شرهون بمشورة معلمه بعد تردد ، وتعاون مع ثلاثة من أتباع ابن قرقرة (أحدهم شاعر مغمور لا يجيد النظم على أوزاة الفراهيدي ، فتحول إلى ما يعرف في أيامنا هذه بقصيدة اللاشعر ، سمّى نفسه شُعَيباً الإسكافي . والثاني ناسخ ينعته العامة بنعت إنْمَيِّر الفِطير ، بينما اسمه مسجل في دفاتر دائرة الأحوال المدنية ب : نمير الفطايري . والثالث لا عمل له ، سوى حمل عليقة يستخدمها ابن قرقرة في بعض جولاته على بيوت رفيقاته ورفاقه ، يناديه اصحابه باسم ابنْ سبأ) على تحرير خط طويل يشرحون فيه أساليب النيك الإجباري ، وصنوف الرَّهْز المتدارك ، والمواقعة الفارسية ، تحت سطوة التهديد بتجليس الرجل على فوهة قرعة من زجاج ، أو فوق رأس رمح مُرَوْشَن . فتلقف ابن قرقرة الخطّ ، وطاف به على دارات النساخين فيما وراء ديار بني الأحيمر وبني الأصيفر ، فحقق من ذلك ربحاً وفيراً ، وسمعة لا قبل له بها قبل ذلك اليوم المشؤوم) .

كان فتى لم يتجاوز السابعة عشرة . خطاط رُقْع واعد ، يكسب قوت يومه من جلوسه مع شروق شمس الصباح حتى حلول ما بعد الزوال بساعة في ساحة المدينة . مطيع لوالده الحمّال (ذي الاسم المثير للسخرية) في السوق المسقوف الشهير الذي يطل على شريعة النهر .

أنا أشهد على هذا كلِّه ، وأعرف الكثيرغيره ممن لا يعرفه الكثير

من خلق المدينة ، لا سيما في تلك السنوات التي غاب عنها في تلك السفرة ، حيث اشتغل حوذياً (ليسد نفقات قوت يومه ومتطلبات سكنه في حجرة صغيرة بين حجرتين في ذلك السكن الآيل إلى السقوط الذي كان يجاور خربة للنفّاجين ، والمدمنين على اللواط (وثمة أقاويل عن علاقات سرية أقامها شرهون مع رفاقه هناك ، وأنّه كان يتعرض إلى نوبات صرع يردد معها اسم ابن تلفاهين وأنّات مكتومة ، بينما كان يمارس جَلدَ عُمَيرَة في تلك الحالة التي لا يمكن فيها لأي من رفاقه أنْ يرى وجهه من دون أن يصاب بالفزع) والسحق ، والشطار والشِّيميل من الرجال وعدد من ذوي العاهات التى لا شفاء منها ، عندما كان يدرس صناعة علوم ترميم العظام البشرية . وقد انغمر في أحلام وخيالات زينت له مستقبلاً لطالما تمناه في أن يكون كاتب مقامات ، أو ملقي مقابسات ، أو مجترح أشعار . وهكذا ترك درس علوم ترميم العظام البشرية ، واشترى بغلته البيضاء المعمّمة وسمّاها : بطوشة ، لأنه تخيل أنّها تشبه ثمرة شمّام) ، بعد أنْ أيقن أنّه سيكون محظوظاً حين يقوم بنقل شباب سكارى ، وبغايا آخر الليل ، وقومندانات جاءت بهم طوائفهم مع صفوة السماسرة والقوادات إلى دست الحكم والإمارة ، كما كان يفعل المسكين المسقوبي «ايونا بوتايوف» (الذي تعرفت إليه في بواكير صداقتي للقلم ، ثم اخترعت انداداً له في قصصي كلها) .)

وفي تلك البلدة ، عند بوابة الملهى ، حدث أنْ التقى ناسخ الرقع الواعد (وكان مغتبطاً عندما عرف أنّ اسم اسم ذلك الرجل يشبه اسم ابيه ، بل إنّهما يتشابهان في تقاطيع وجهيهما) بعابر سبيل يطلب منه أنْ يوصله إلى حانة الاندلس . (٥)

قال الرجل في اليوم التالي، مخاطباً الحوذي: «اسمع يا شرهون، يا وليدي، لا يخدعنّك شكلي، ولا تلتفت إلى كلام الناس، ولا تستمع إلى هُمزاتهم ولُمزاتهم وهمساتهم، الكبير منهم والصغير. عليك بنفسك فقط. ضع كلامي هذا مثل قرطين في شحمتي أذنيك. (وعندما عاد شرهون إلى مدينته الأولى مع حاملات الزاد في جيش بني الأُحيمر، حيث عمل مُعرِّفاً للأنساب والسلالات ومترجماً من لغة الفرنجة إلى لغة أناس البربرة أهل الدندرة، كان يتقرّط بقرط ذهبي صغير يتدلى من شحمة أذنه اليمنى، وسط سخرية الناس الذين لم يتعودوا على رؤية رجل من الشِّيميل[٦].

نَهر شرهون بطوشة البيضاء التي جعل لها عِمَّةً على هيئة قناع (... وكان الحوذي قد فكر مليّاً قبل أنْ يستخدم هذه البغلة لتجر عربته، فقال: «هم يستخدمون الأحصنة والحمير والجمال في هذا الكار. عليَّ أنْ أشغّل حيواناً آخر». وهكذا اشترى تلك المطيَّة العاقر)، كأنه يأمر نفسه: «بَطّوشَة، إلى جادة جَدّنا ـ نُواف».

لا يبعد هذا الشارع إلاّ ثلاثة كيلومترات عن حانة الأندلس، كما أنَّ دارة للمنسوخات الحريرية على طريقة أهل بلاد يأجوج ومأجوج يملكها ابن قرقرة تطل عليها من طبقها الثالث، وهو ما جعل الحوذي أكثر رقة مع مطيته، فخاطبها: «بتّوشَة، على هُونِكْ».

عَفَطَ دُبُرُ البغلة، فأطلق الرجل تلك الضحكة الطويلة التي عرفه بها أهالي المدينة، بينما كان يقول في سره: «وجدتها، وجدتها، يا شرهون». فوجيء الحوذي الشاب بحديث الرجل، فلوى رقبته إلى الخلف، فظهر له ما لم يكن في حسبانه، فترك

مقعده وقفز فاراً من عربته . لحق به الرجل وأمسك بكتفه اليمنى ، محاولاً أنْ يزيل فزعه : «أنا معك على الرغم من أو وجهي أشّبه بوجهك» .

سأله شرهون متعجباً وهو لا يزال يختض مثل عصفور منزلي في يوم بارد وممطر : «لكنك كنت بوجه آخر ، وجه يشبه وجهي تماماً ، وبشاربين أيضاً؟» . قال الحوذي : «كلامك صحيح يا رفيقي . هذا كله لزوم الشغل» .

تمالك شرهون نفسه قليلاً قليلاً ، وقال لنفسه : «هذا الرجل نفّاج بارع» ، أو مُشخِّص كما يناديه أهل اليشن ودسكرة الزوراء . وهو ما أفضى به القرّاد إلى الحوذي بعدحين :

«نزعت قناعي ، لأُريك وجهي الحقيقي» .

«ماذا ؟» .

«بلى ، وأنا وجه والدك أيضاً» .

«ماذا تقول ؟» .

«نعم ، يا وليدي ، إنّا أقنعة» .

انصت الحوذي باهتمام إلى ما يقوله الرجل الشائخ (عليَّ أنْ أخبركم الآن ، أنَّ بغل الباني ، جاوز السبعين في هذا الوقت الذي أروي فيه حكايته بين أيديكم) ، ثم قال : «أيّها السيد المبجل بغل ، أنا مدين لك بالكثير على هذه النصيحة الثمينة» .

كان الشاب شرهون بن بغيل الباني (وهذا اسمه الكامل ، كما تمّ تسجيله في دفاتر دائرة الأحوال المدنية ، بعد فعلة أبيه المعروفة في حضرة قاضي مدينتنا) ، قد درس عدداً من مسرحيات الكاتب الروسي انطون تشيكوف ، وانكب على دراسة المنسوخ من قصصه . وكان يتمنى أنْ يقوم بمهمة الحوذي المسكين «ايونا بوثايوف» في

تلك القصة الشهيرة التي لا بد أنْ يعرف معانيها القراء الفطنون .

قال بغيل : «عليك ، أولا وقبل أي شيء ، أنْ تربّي شاربيك» . ثم أوصاه بزيت من شجرة تنبت في بلاد عيلام لمزيد من الزينة . «هو سيجعلك أكثر جمالاً ومهابة» . انتبه شرهون إلى وجهه في مرآة المرحاض السلطاني ، القريب من مُصلّى العيد ، عندما حل عصر يوم آخر ، وتحسس بأصابع كفه اليمنى ، خديه وشفته العليا . ثم تفرس في أنفه ذي الأرنبة المتعرقة ، وتوقف عند فمه المتورم مثل مهبل كلبة في ذروة هيجانها الجنسي ، وخاطب نفسه : «نعم ، هذا وجه جديد» .

تماماً . قال القناع في عمق المرآة .

بعد ذلك توجه شرهون نحو بغيل : «يا والدي ، هذه أقدر عليها أمام الناس . ولكن ماذا سيقول شرهون لشرهون عندما أكون على سريري ؟» . ولما لم يجد جواباً سريعاً من والده ، عاد يسأله : «كيف أشرح شكلي الجديد ، أمام الأُستاذ أبو قَرْوَة»(٦) .

طفرت ضحكة مكتومة من فم بغيل ، وقال للحوذي : «خذني إلى الحانة» . وبعد أنْ غاب الرجل الذي يشبه والده خلف بوابة حانة الأندلس برهة قصيرة ، التفت شرهون إلى اليمين قليلا ، فشاهد شاباً في حوالي الثلاثين من عمره (غالباً ما كان يواجهه في عمق مرآة المرحاض السلطاني) يقود قرداً شائخاً ويتجهان نحوه . صعد الشاب إلى الحوض الخلفي لبطوشة ، وجلس بخفة ، كأنه خبر العربة كثيراً ، ثم قال للحوذي ملاطفاً : «إلى ملهى الأفراح .

أخذته المفاجأة ، ولم يرد أن يصدق ما ترى عيناه . لكنه بعد لحظات من الحيرة تيقن تماماً أنّ هذا القرّاد هو والده بلحمه ودمه .

قال الرجل : «أبدلت ملابسي في الحانة ، واصطحبت صديقي القديم الحميم (وأشار إلى القرد الأشقر الشائخ) ، ثم خاطب الحوذي : «تعال ، يا شرهون» . نطّ القرد ، وجلس في حضن القرّاد ، واضعاً ساقه اليسرى فوق أختها اليمنى ، وأطلق ضحكته الطويلة التي تشبه نعيق حدأة ، فعلّق الرجل : «إنه يعرفك تمام المعرفة» .

«والآن ، ماذا أعمل ؟» . سأل الحوذي . «عليك أن تستبدل مهنتك . إنسَ هذا المخلوق التشيكوفي ، كُنْ عضواً مخلصاً في مدرسة الأُستاذ ابن قرقرة» . وحين استدار الحوذي بجسده نصف دورة ، شاهد القرّاد يحتضن قرده الأشقر الشائخ . وحدث ما حدث بعد ذلك ، حتى كاد شرهون أن يقع مغشياً عليه ، لولا أن تدخل الرجل قائلاً : شرهون . إنّها أقنعة ، ولكل مقام قنا» .

أما الرجل القرّاد فتحدث بإسهاب ، مستخدماً يديه ، وكان أحياناً يضرب أرضية العربة بقدمه اليمنى (مقلداً «أبوقَروَة» عندما يخطب في أنصاره) ، حتى تيقن شرهون من حالة مكشوفة الآن : «أنا أمام «الأستاذ» ، بلحمه ودمه . بل حتى بشاربيه المربعين» .

«أنت نفّاج بارع . ستكون أنت الأُستاذ في قناع آخر . في تلك الشخصية التي يعرفها مريدوه بأنه الداعية إلى أنْ يكون الناس في أرزاقهم وأمنهم سواسية كأسنان المشط» . وحينها بصق القرد الأشقر الشائخ في عبّه ، ثم عفط من دبره .

. . . وبعد سويعات على رحيل فجر اليوم التالي ، أي عند ميقات نافلة الضحى بقليل ، ظهر في وسط ساحة المدينة قرد أشقر ضخم ، يمسك بخيزرانة هندية رفيعة بكف يده اليمنى ، ويضوضيء لقرّاده ، فاستلقى شرهون على ظهره ، فارداً ساقيه ، مباعداً ما بين فخذيه ، وهو يقول : . . . وهذي نُومَةُ العَرُوسْ . . .!

(١) «لوح المقالات - قرطاس الفجر القريب» ، كتاب محمد ساهر المجلاسي ، من رواة القرن الحادي عشر . توفي عام «١٠١١» ، ويقع في «١١٠» مجلدات . أمضى في تأليفه قرابة أربعين سنة . وهو سجل محظور تداوله في المناطق الشيصبانية .

(٢) موسوعة العذاب والمعذَّبين والمعذِّبين ، من أعمال المغفور له بإذن الله تعالى ، الشاطبي مَريوش الوراق .

(٣) أفادتني بحوثي في علوم طبقات الأرض ، أنّ ثمة قرية صغيرة يقال لها «الدرعيّاء» هي مسقط رأس الشيصباني وموطن عائلته ، وإنما سميت «الدرعيّاء» لأن نُهَيراً صغيراً أعوج في جريانه كان يقسمها إلى نصفين (أي يدرعها درعا) . ولم أجد أيّ أثر لذلك النُّهير الصغير عندما زرت أطلال تلك القرية . ومن أغرب التفسيرات لاسم هذه القرية ما سمعت به على لسان إحدى النسوة المعمرات . قالت تلك المرأة : «اسمع يا بنيّ : الدرعياء تعني العوج في كل شيء . وكان لسان أهل القرية المنكودة ينطق حرف «القاف غينا» . وهو ما كان يظهر على لسان الشيصباني في بياناته الصوتية إلى محازبيه . فكان يقول : «اقتلوا قِربانَ ميسان وأنا أضمن لكم الفطور مع الرسول محمد» . والعوج واضح في خطابه .

(٤) وقد أجمع القصاصون على وصف طريقة قتله والمثلة به . قالوا : في سنة ٤٣٨ من بعد عام المأموث ، قُتل محمد بن أبي بكر ، عامل علي بن أبي طالب ، على مصر . قتله معاوية بن حُدَيج ، من أصحاب معاوية بن أبي سفيان . اسره أسره وكاد يموت عطشاً ، فطلب محمد أن يُسقى ماءً ، فأبى عليه معاوية ، وقال له «لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً ، حتى تُسقى من الحميم والغساق ، أتدري ما أصنع بك ؟ أُدخلك جوف حمار ثم أحرقك بالنار . ثم قتله ، ووضعه في جيفة حمار ، ثم أحرقه . وذكر ورّاقون وناسخون آخرون (منهم صاحب الأغاني) أنّ محمداً كان لا يزال حياً عندما أُحرق في جوف الحمار .

وبعث معاوية بن حُدَيج ، سليماً مولاه إلى المدينة ، بشيراً بقتل محمد بن أبي بكر ، ومعه قميص محمد ، فدخل به دار عثمان ، فاجتمع الرجال والنساء ، وأظهروا السرور بقتله ، وأمرت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، بكبش مشوي ، وبعثت به إلى أم المؤمنين عائشة ، تقول لها : «هكذا شُويَ أخوك» . فجزعت عائشة على أخيها جزعاً شديداً ، وقنتت في دير الصلاة ، تدعو على معاوية وعمر بن العاص ، وأخذت عيال محمد إليها ، ولم تأكل من ذلك الوقت شواء حتى توفيت . ولما بلغ السيدة أسماء ، أم محمد ، خبر مقتل ابنها ، وإنّه أُحرق بالنار ، قامت إلى مسجدها تصلي ، وكظمت غيظها ، حتى شخب ثدياها دماً .

ولما بلغ معاوية خبر قتل محمد ، أظهر الفرح والسرور .

وبلغ عليًا بن أبي طالب ، خبرمقتل محمد وسرور القوم ، فقال لقومه : جزعنا عليه على قدر سرورهم ، وما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحروب ، جزعي عليه . كان لي ربيباً ، وكنت أعده ولداً ، وكان بي بارًا ، وكان ابن أخي ، فعلى مثله نحزن ، وعند الله نحتسبه» .

«وقالوا كذلك إنّه : «لما وافى معاوية بن حُدَيج المدينة ، قامت إليه نائلة ، امرأة عثمان ، وقبّلت رجله» ، وقالت له : «بك أدركت ثأري من ابن الخثعمية» ، (تعني محمداً بن أبي بكر)» . - فائدة ثالثة : بتصرف ، نقلاً عن : مروج الذهب ١ ـ ٤٠٦ ، والولاة ـ الكندي ٣٠ و ٣١ ، و : «ابن الأثير» ٣٥٧/٣ . وأقول : على منوال ماكانت تقول به العرب : «الشيءُ بالشيء يُذكر» ، فقد روى ثمامة بن أشرس ، أنّه رأى قاصّاً يحدّث الناس بمقتل حمزة ، فقال : «ولما بقرت هند كبد حمزة ، استخرجتها ولاكتها ، ولم تزدردها . فقال النبي صلوات الله عليه (وعلى آله وسلم) : لو ازدرتها ما مسّتها نار .» / ـ العقد الفريد ١٥٦/٦

(٥) كان بغيل الباني من ذلك الصنف من الرجال الذين يريدون أن يعرف الناس أنّ لهم سالفة في كل قافلة وحول كل قصعة ، على غرار ذلك الرجل الأنْوَك الذي يعرفه أهل رصافة اليشن باسم : «جاسم وَلَد الشطب» ، لكن بغيل تفوق

على هذا الأخير ، فانتقل في إحدى سنوات النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي ، إلى منابر الدعوات الاشتراكية ، فخطر أن يستبدل باسمه القديم اسماً جديداً ، حتى يتخلص (وإلى الأبد ـ كما اعتقد) من ادعاء سابق له بأنه كان يعمل «شرطياً سرياً» في دائرة التحقيقات الجنائية .

وفوق هذا كله توجد رواية أخرى يتداولها الخلق على سبيل التهكم ، مفادها أنّ اسم بغيل لا يليق بشخصية شاعر شعبي فاشل نزلت عليه النعمة الحديثة (أي بعد حركة سنة ١٩٦٣ على حكم الزعيم الركن عبدالكريم قاسم) ، فقام بتغيير مقهاه حيث تعود أن يسمر مع ربعه ، وهجر زوجته الأولى ، أي أم شرهان ، واتّخذ له زوجة جديدة ، وتمتّع بامراة أخرى ، وانتقل من داره القديمة إلى بيت حديث في عرصة الشبّانة ، فكان عليه أنْ يتسمى باسم جديد يليق بمكانته الاجتماعية الجديدة .

نعم ، قارئاتي وقرائي ، هذا هو ما كان . فاسم بغيل لا يليق برجل حكومة اشتراكي ـ ويبدو أنّه لا يليق بأي داعية آخر ـ فقصد قاضي بلدة تل سفيح ، وقال له : «حضرة القاضي ، اريد تغيير اسمي» .

«وهل أنت الآن في وعيك كاملاً ، يا بغيل ؟» سأله القاضي .

«نعم ، حضرة القاضي» .

عاد القاضي ليقول مستفسراً : «وتقسم بذلك على المصحف الشريف ؟» .

«نعم ، جناب حضرة القاضي» .

بعد لحظات من الصمت ، توجه القاضي إلى بغيل : «وما هو اسمك الجديد الذي ترغب في اختياره ؟» .

«بَغَلْ ، يا حضرة سعادة معالي جناب سيادة القاضي» .

(٦) القَصَّخُون في حانة الشَّركَسِيَّة العجوز
سيف الوضّاع

حدثني عبدالله القصَّخون، قال: «دعاني إِنْمَيِّر الإسكافي مع نفر منتخب من رهط ابن قرقرة، إلى لقاء مغلق ومخصوص لقبيلتنا الثقافية في مقر جريدة الأفق. فلبيت الدعوة، وهيأت أوراقي لأدلي بدلوي في ذلك اللقاء الذي حدد ابن قرقرة عنوانه سلفاً «أسئلة العصور الحديثة وآفاق استجاباتنا التاريخية». حيث إنه كان يشكل المحاور الرئيسية لتلك السنوات التي تجمعنا في خضمها . . . .»

رفعت كفي اليمنى ممازحاً: «عبيد، أنت تخطب الآن!».

ابتسم ساخراً، ثم انكب على كأسه. وكان القصَّخون قد اختار تلك الحانة المهملة التي اعتدنا الاختلاف اليها حين يريد أنْ يُسِرَّ إليّ بمسألة تثير لديه أسئلة وشكوكاً. وهكذا جلسنا إلى ركننا الأثير في «حانة أم ميخائيل» التي تقع في وسط سُرَّة الزقاق رقم ٥، المتفرع من دربونة أم العظام التي تقود إلى المبغى السلطاني.

«الواوي، يا أم ميخائيل». وتمتم: «كنت عند أنيسة». ثم انغمر مع نفسه. وأنيسة هي كبيرة قوادات بيوت هذه الدربونة التاريخية التي أراد لها ابن قرقرة أن تكون عقاره الخاص، حيث توجد إدارات ومكاتب تشكيلاته السياسية والاجتماعية والثقافية التي أخذت تظهر إلى العلن مثل الفطر بعد ليلة راعدة، عقب أنْ عاد مع القومندان بري بن ماري. في الأيام الحاضرة أحالت أنيسة نفسها على التقاعد، بعد أنْ كانت قحبة يشار لها بالبنان في سالف الأيام.

«كل شيء له نهاية». هكذا أخبرتني ذات سنة، عندما كانت في ذروة شبابها.

«التقاعد يشملنا نحن ، مثل موظفي الحكومة» . وواصلت ضاحكة : «والبركة كلها في سيف» .

«سيف ؟» .

«اي سيف . . . اللي ماكو غيره سيفّ .

خطف القصّخون في ذاكرتي بسرعة الآونة : «بعد أنْ أنهى المقسوم الأول من حصته في عرق الواوي ، قفل عائداً إلى نفسه ، وأخذ ينتحب ، وبعد برهة قصيرة قال لي : «الأستاذ يروي عن سيف بن عمير ، واضع نظرية الفكر والحركة في مساقاتنا الثقافية . وهذه كذبة كبرى . سيف كذبة كبرى . إنّه اختراع ابن قرقرة» . . .

قطع القصخون شريط افتكاراتي ، عندما رفع صوته فجأة : «هناك شيء لا يزال يحيرني كثيراً» .

«أيوجد عندك أشياء أخرى مخفية ؟» .

«أيْ أشياء» . ثم عاد إلى معاقرة كأسه .

كان الليل عميقاً وصامتاً وهو يرخي سدوله على اللوحة الجدارية الوحيدة في الحانة . وكان الأفق بعيداً مثل نقطة بيضاء تحت شمس الظهيرة . شعر أنّه أكثر استعداداً للمضي في مواصلة الإمساك بنومه . تناول خيزرانته من أسفل خاصرته اليسرى وواجه بها النقطة البيضاء البعيدة . تردد ارتطام جثتين على خط الأفق . بان رأس القرّاد جاحظ العينين ، مصبوغ الأنف والخدين ، متورّم الشفتين مثل مهبل كلبة في ذروة هياجها الجنسي ، بينما تلاشى الرأس الثاني ومعه جسده كله في الظلام الصامت العميق ، الذي يتردد فيه لهاث كلب قطع مسافات طوال جرياً . تشمَّمَ رائحة حرمل يحترق .

أفاق نشطاً على حركة جسده الأُفعوانية . وفي الخارج كان نهار منتصف شهر تموز قائضاً وجافاً يجعل الثور يبول دماً . دثّر رزمة

أوراقه بقطعة القطيفة الزرقاء ، وأودعها في مستقرها المكين . وبعد أنْ أحكم إغلاق باب حجرته ، استقبلته أرض تشقق أديمها في هذا الصيف الطويل . كان في طريقه إلى حانة الشركسية العجوز .

هطل عليه القصخون ، مثل زئير أسدعجوز أنهكه مرض السل ، عندما كان رهين منزله في خربة من بطحاء خويط السلطان ، حيث الكثبان الرملية الجرداء ، والعوسج الذي تعافه حتى البعران السود . أرسل إليه وريقته التقليدية على عادة فلاحي أم الهند حين يبرمون سيكايرهم : «مسك الختام ،عند أم ميخائيل» .

عندما كنا فتياناً في تلك المدرسة ذات الحجرات المبنية بطابوق اللِّبن ، كنا نتبادل عبارات قصيرة موجزة ، مثل برقية يمليها والد مضّهُ الشوق إلى ولده الشاب الذي سيق للخدمة العسكرية الإجبارية في جيش الحكومة «أدركني . أمّك حالها مخطورة» . قلت له «علينا أنْ نكتب بطريقة أخرى» . «نعم ، بأُسلوبنا الخاص» ، وأكد ضاحكًا «في منتصف تموز ، أكتب برقيتي الأخيرة» .

كان شهر تموز تعويذتنا . وهو شهر غُربة أشجار الغَرَب والورد الجهنمي في تقويمنا اليشني (وكان كلمة السرّ الأولى في بناء حياتنا المستقلة عن عوائلنا) . بيد أنّه في ثقافتنا التي كونتنا في تلك السنوات ، كان يعني الجنة الموعودة . كنا نطلق أصواتنا عالياً ونحن نستقبل أيامه الأولى «في هُدى تموزنا المَجيدِ ، سائرٌ موكبُ الشُّعوبْ» .

بعد ذلك ، عندما ضربتنا طيور الحياة بأجنحتها الحجرية على مكامن الوجع في أجسادنا وأرواحنا ، انحدرنا مع النهرالعظيم إلى

الجنوب ، حيث الأهوار بغموضها وأسرارها وشعوبها من البشر والطير والحيوان والجن والمردة والشياطين ، فصارت الدنيا صغيرة مثل خرزة في مسبحة والدتي . هناك اخترعت شيفرتي الشخصية . كلمات قليلات سوف تساعدني على استعادة زمام نفسي بعد رياضات نفسية صعبة . قلت لصديقي الذي سميته القصخون ، (لأنه لا يجيد سوى القصص التي يرويها إلى نفسه) : «اسمع يا عبد ، أصبح الزمن أكثر استطالة ولزوجة» ، فتبسم من الزاوية اليسرى لشفته السفلى ، وكوَّر كفه اليمنى وطوح بذراعه نحو السماء الواسعة : «لقاؤنا عند الدقيقة الأولى من رأس السنة المقبلة في ساحة المدينة» . كنا ثمليْن في تلك الدقيقة .

هكذا هو حالنا في تلك السنوات الخليّة المزدحمة بالآمال العراض . ولكن بعد حين من الدهر لم تعد مدينتنا قادرة على احتمال صبواتنا وآمالنا . لقد اكتشفت في وقت مبكر من شبابي (بينما احتاج القصخون إلى سنوات إضافية من أجل أنْ يعرف) أنَّ تلميذ مالك بن سيف الوضاع ، الذي كان عليه أنْ يبتكر كنيته المرادفة للسخرية المشوبة بالاشمئزاز : «ابن قرقرة» ، يبيع ويشتري بأحلامنا وآمالنا السخيّة .

وفي سنوات المعتقلات والسجون والهجران . سنوات المنافي وفقدان الصداقات والرفاق سنة بعد سنة ، وواقعة بعد أختها ، وسجناً بعد معتقل . سنوات الرجال الذين غادرتهم الكهولة ليدخلوا إلى «النقطة السفلى في بئر الحياة ـ حسب اختراع لغوي لصديقي القصخون» -التجأت إلى تدوين يومياتي على صحائفي الورقية وعلى جذوع أشجار النخيل التي تحيط بكوخي الصغير الذي أعرِّج عليه في أُخريات الليالي . حيث ينتظرني جروي الذي

سماه القصخون «الضمير» ، عند الخشبية العتيقة ، حيث أكون في وداعه في زياراته القليلة والمتباعدة إلى كوخي ، ليمضي إلى حجرته التي ابتناها من طابوق أحمر ، ويعيش كما فلاح في أرض دَيم لم يلامسها المطر أكثر من حولين ، عند سفح الهضبة الشرقية التي تواجه أم الهند ، وليس معه سوى كلبه الشائخ «الباقع» وأسراب من الحمام البري والدجاج الذي استوحش داخل السور ، فصارت تتحاشاها الجرذان المستسبعة التي بنت شبكة مستعمرات على غاية في التمويه والتنظيم ، تحت سور الكوخ .

لم يعد يراَه أحد من رفاق الأمس . ولم يعد هو إلى أحاديثه المعتادة عن غزواته النسائية كما كان يملأ وقتنا بها في أيام الشباب وسنوات السجون والمنافي . أختار أنْ يرهن جسده بين كوخه الحجري والسور الذي سفّهُ بأصابع كفيه من سعف يابس وحبال قنب بري ، جاد بها عليه ماء الهور ، صديقه الأخير . «لم يبق لي إلاّ أنتَ والهور» . أخبرني بثقة رغم سكره ذات يوم قبل ثلاث سنوات ونحن نتهامس في فضاء حانة الشركسية .

هكذا كنت أستبقه باستدعاء بعض ماضينا المشترك ، في طريقي إلى حانة أم ميخائيل ، التي لم أزرها منذ ثمانية عشر شهراً ، حاملاً جسدي الشايب على زمن مضى وغاب لكنه لا يزال سلواي الوحيدة ، في هذا الخراب الذي مرّعليه نحو ثماني سنين ، بعد أنْ دخل الشيصباني وكتائبه العسكرية ورجاله من الكتّاب والشعراء مدينتنا ، خلف جيوش القومندان بَري - بِنْ - مَار ، مدن وقرى وقصبات اليشن جميعها ، من دون أنْ يخبرنا معلمنا ابن قرقرة القرواتي بشيء من هذا كله ، وكأنّه ظله أو الناطق الرسمي باسمه .

«ماذا سيحدث يا قصخون ؟» .

«سأضع نهاية الخديعة الكبرى» . رأيته انسجم مع نفسه ،

«أنت الذي سترويها للخلق» .

كان مثل قطعة قماش خِلِقَة مرمية تحت سماء تمطر طيناً أسود . شرب من العرق ما يكفي ليجعل فحلاً من تلك البعران الهائمة في فلوات خويط السلطان ، يبرك متخاذلاً وتعباً بانتظار قامة القصاب الشاب «سيد قلم الفرطوسي» . لكن المفاجىء (حتى بالنسبة لي) أنّه كان في أوج يقظته في تلك اللحظات التي لن تغيب عن ذاكرتي . «خدعنا ، تلميذ مالك بن سيف الوضّاع وقناعه» .

وكنت أنتظره في الحانة .

كان الوقت ما بعد الضحى بنحو ساعة . نهارتموزي وقعت فيه الشمس على الأرض . وفي هذه الساعة لا زبون يمرّ على أم ميخائيل . غالباً ما تكون المرأة الشركسية وحيدة ، خلف منبر مستطيل من خشب أبنوس أنهكه الزمن والسكارى وجنود القومندان الإفرنجي ، حيث يقابل ظهرها ثلاثة صفوف من خشب عتيق اصطفت عليه قارورات نبيذ وبراميل صغيرة تحتوي على بيرة سوداء ، بينما «الثعلب» مخبّأ في دهليز ملحق بهذا الفراغ المعتم . لم أرَ القصخون يشرب إلاّ هذا النوع من العرق «هو مقطر للمرة الثالثة» ، ثم يكرع كأسه كما لو أنّه يتناول قدح ماء فراتاً .

اتخذت مجلسي في زاويتنا المعتادة ، عند الركن الشمالي من هذه الحجرة التي لا يستطيع اعتى سكارى اليشن تحديد عمرها . رأيت تاريخي (وعمري كله الآن) أمامي على المنضدة الصغيرة ، يقابلني كرسي صغير من خيزران عتيق من دون ذراعين بجواره

شبح كلب شايب ، يستند إلى جدار واطىء مصبوغ بلون أصفر ، جعلته بلا هوية ، مثل جدران المبغي السلطاني ، كتابات السكارى المقيمين والعابرين الذين سبقوني وكتبوا مكاتيب إلى حبيبات مجهولات ، وحكماً ارتجالية ، وقذفاً بالدين الرسمي للولاة وصاحب الشرطة ومدير صحة المدينة ، وكلمات أخرى لا معنى لها ، وهلمجرّا . . وفي الخارج ، فوق سقف الحانة ، كان ثمة صوت سعال متواصل يطلقه كلب لا يزال يطوي الآفاق وجلبة تشبه قرقرة عربة متهالكة تسير على درب صخري وعر .

حطت كف خفيفة على كتفي اليمنى ، فنهضت وتعانقنا

يجلس القصخون على كرسيه العتيد الذي يحتك بالجدار ، ها هو يشعرر بالراحة الآن . فوق رأسه تلك اللوحة التي تبين رسماً غامضاً يجعل تفصيلاتها غير واضحة ، كتلة الظلام الممتدة من زواياها الأربع حتى مركزها ، حيث تبدو نقطة بيضاء بعيدة ترسل بريقاً متقطعاً . اخذت النقطة البيضاء توسع نفسها وتقترب من الزوايا الأربع للوحة ، لتظهر أمامي أهراءات كان الظلام قد حجبها عن جُحْرِ الحانة . عربة ترتكز على جسر خشبي ينتهي بعجلتين خشبيتين تجرها بغلة بيضاء ، على يمينها قرد شاب ، يتبع سائق العربة الذي ظهر رأسه بشعره الأسود الأجعد ، يجلس على رقبة قصيرة وجسد مربع ملفوف بقماش من وبر . كان السائق يرفع سوطاً بيده اليمنى ويهوي به على قرد شاب كان يصفر الآن بصفارة خشبية ويتبعه سرب من قرود صغيرة بزي موحد إلى ما بعد نهاية الأفق .

قرقرت عربة عتيقة قرب كرسي القصخون . رفع كفه اليمنى كما كان يفعل منذ عشرين سنة . «دعوني أمس إلى اجتماع مغلق» .

سمعت عفاطاً مكتوماً من الجدار خلف القصخون ، فتوجهت بجسدي كله نحو صديقي الذي فارقته منذ ثمانية عشر شهراً .

«إنه زمن طويل» .

«نعم هو كذلك» . قال عبدالله ، وأشار بكفه اليمنى مصوباً وجهه نحو رفوف الحانة المواجهة له ، بينما كان القصخون قد شاهدها على الجهة اليسرى عندما دخل إلى الحانة مثل أي زائر ، من بابها الوحيد الذي يشبه رازونة أرضية .

«الثعلب ، يا أم ميخائيل» .

هكذا هو مثلما حدث في لقائنا الأخير ، الذي يماثل الواقعة التي سبقته ، وعلى غرار ما كان يفعله في لقاءاتنا المعدودة التي تلت هجرته إلى تلك الهضبة الجرداء واعتزاله في ذلك الكوخ الطيني ، الذي لا يؤوي سوى أسراب من الدجاج و الحمام البري وكلبه «الباقع» .

وثب الآن شبح كلب شايب في فضاء الحانة . سمعت سعاله الذي يشبه زئير أسد عجوز . انصتُّ إلى الزئير ، وشاهدتُ وجه القصخون في عتمة الحانة يبدو مشرقاً ، وخيِّل إليّ أنّه أطلق صفيراً خافتاً ، قفز شبح الكلب من العتمة وجلس بجوار سائق العربة .

كان قد أتى على كأسه الخامس . «دعاني الكاولي ابن الكاولي إلى الجريدة . قال «الأستاذ يريدنا في مكتب الأفق» . رفع كأسه بكفه اليمنى ، «ولمَ لا ، حضرت ! رتبت أوراقي بعناية لأتحدث بإيجاز في شأن مساحة كانت تقلقني ، أو في الحقيقة أخذت تثير عندي قرفاً شديداً وسخرية هائلة «أسئلة العصور الجديدة ومديات استجاياتنا التاريخية»

«عبدالله . . أنت تخطب الآن !!» . ابتسم من طرف شفته

السفلى ، وانكب على ثعلبه .

بدا فضاء الحانة أقل عتمة مع الكأس العاشرة . كانت العجوز توقد سراجها الزيتي فانبعثت من زجاجته ذات اللون الخنفسائي ، بقع من ضوء داكن التصقت بالرسم الذي أخذت سماؤه تنث رذاذاً ذا لون كبدي مالح .

«كنت عند أنيسة الليلة الماضية»

«أووه . . . أنيسة ، ألا تزال حيّة!»

«قالت لي أنيسة ، أنظر يا عبدالله ، كلنا لازم نتقاعد . يكفي هذا التقحيب» . ورفع صوته نحو العجوز الشركسية : «الثعلب ، الثعلب يا أم ميخائيل» . وأخذ القصخون يطلق تأوهات بطيئة تصدر من عمق صدره مباشرة ، مثل أنين رجل يستمع إلى كلمات التلقين الأخيرة . تلك تكون بداية عرضه الخاص في الحانات التي كنا نرتادها . ما إنْ يبدأ صدره يطلق ذلك الوجع المرير حتى يرفع عقيرته بالغناء . ولكنه الآن يرتجل حكاية أخرى من حكاياه . هذا طالع حسن . كان يشتم كل شيء .

«أتتذكر . حين شتمت أنفسنا والجميع ، ولم أُبْقِ أيّ اسم خسيس أو طاهر إلاّ وشتمته» .

«وكيف أنسى ؟» .

لمعت في ذاكرتي شتيمته التي لم يطلقها أحد غيره . كنا نرتاد حانة مخصوصة تجاور مسجداً عتيقاً في عرصة الخياطين . كنا نقيم حفلاً خاصاً نسميه «الاحتفال الهجائي ما قبل الأخير» ، حين نعثر على حانة لم يعرفها سوى روادها قبلنا . كنا قد غادرنا حانة أم ميخائيل قبيل أذان الصبح ، وما إنْ خرجنا حتى فاجأنا صوت المؤذن . قال القصخون «لندخل في هذا الزقاق» . كان دربونة ضيقة

وقصيرة نهايتها ستارة ملحاء سميكة . رفعت ذيلها فلاحَ لنا نورٌ خافتٌ . وجدنا جسدْينا مع ثلاث طاولات يتقاسمها عدد من الأشباح الصامتين . وعلى أرضية الحجرة أشباح آخرون تمددوا على بُسُط عتيقة . «تفضلوا . . يا هلا بالخُطّار» . نادى علينا صوت شبح . في تلك اللحظة بان لي المشهد الذي لم أره في كل حانات الدنيا التي ارتدتها . حجرة صغيرة جداً بمساحة زنزانة سجين ينتظر تنفيذ حكم الإعدام .

«ها ، تذكرت ؟» .

وضعت كفيَّ على فمي ، وطفقت أضحك . كنت أسمع القصخون ، وهو يطلق شتيمة لم يتلفظ بها إنسان قبله . رفع كأسه بين أشباح تلك الزنزانة «في صحة خروف جدّي إبراهيم» . وسمعنا ضحكاً عاصفاً متواصلاً يشبه نواحاً ينطلق من كائنات تشبه مسوخاً . ووضعت أم ميخائيل قارورة خشبية أخرى على منضدتنا وانصرفت ضاحكة . أرسل عينيه إليّ ، فرأيت جسده كأنه يريد الالتحاق بالعربةالعتيقة التي لا تزال تُصدِر قرقرة خلفه على الجدار

«ليس هكذا ، يا صديقي وعدّو اللصوص» لم يكن يتحدث إليَّ هذه المرة .

في مثل هذه الحالات القليلة جداً ، عندما يسكر عبدالله القصخون ، كان يردد عبارة «يا صديقي وعدو اللصوص» ، متوجهاً إلى كلبه «الباقع» ، الذي رأيت شبحه لا يزال يرابط بجوار سائق العربة .

«الباقع الآن مع الحمائم و الدجاجات» .

«وأغلقت باب السور جيداً ؟» .

«نعم . ولكنه سور واطىء» .
«لا أحد يقدر على تخطي سورك» .
فرش القصخون على سطح المنضدة الصغيرة ورقة بان على وجهها الأبيض سطور وهوامش و ملاحظات بأكثر من لون .
«عندك مزاج لتقرأ ؟»
«هات»
«طيب»
نهض واتجه صوب المرحاض ، ماراً بجوار رفوف بار الحانة ، حيث كانت أم ميخائيل ، تقوم بتنظيف كؤوس ومواعين الحانة للزبائن الذين بدأوا يتخذون مجالسهم إلى طاولاتهم المعتادة ، بينما سمعتها تطلق كلمات ترحيب . «أهلاً أنيسة» .
سحبت أنيسة كرسياً صغيراً ، وركنته بجوار كرسي القصخون ، كما اعتدنا على جلستها تلك . تبدو أنيسة في السبعين من عمرها الآن ، لكنها لم تفقد ملامح وجهها العذب ، هذا هو أنفها الأخنس ، وتلك عيناها الزرقاوان الصغيرتان اللامعتان ، وشفتاها الرفيعتان اللوزيتان .
«لم ينم عبدالله أمس . «أنا خائفة» .
«ليش؟» .
«قلبي يوجعني» ، تركت الأستاذ «في الغرفة» .
أخذت اتفرّس في السطور التي خطها القصخون على صفحة تلك الورقة البيضاء .
«أنا خائفة كثيراً» ،
وأخْذت أهمس لنفسي :
«أيها الولد ، لماذا خرّبت حياتك .

أيها الولد ، لِمَ صادقت العَفنَ .
أيها الولد لماذا خربت نفسك بنفسك !»

«زارني الأستاذ أمس ، بعدما وصل عبدالله ، وسمعت صاحبك يصرخ في حجرتي «خدعتنا . . . خدعتنا يا وَضَّاع» ، ثم سمعت صوت طلقة تدوي في محلة الذهب .

واصلتُ القراءة . .
«أيها الولد ، لا مَفَرَّ ،
جِدارٌ يَلِدُ جداراً»
فتقدم إلى الجدار الأخير ،
هيّا اهدمه ،
ولا تنتظر أحداً سوى القصخون ،
يستعيد القصخون . حياتي بين راحتيَّ الآن» .

«تأخر صاحبك في الحمّام» . تأوهت أنيسة .

رأيت الآن «الباقع» يقفز على سور حجرة الطين البعيدة ، وهاهو يجتاز طعوس الرمل ، ويعبر القنوات التي تحولت إلى مالح ، ويتجه نحو أم الهند مثل كلب بدوي يعرف أن صاحبه في خطر ، حتى وصل إلى الشارع رقم ٣ ، ودخل الدربونة الضيقة ، ثم اجتاز النافذة الأرضية لحانة أم ميخائيل . ودوى صوت راعد في سماء بعيدة .

«سمعت عبدالله يشتم في الأستاذ . «سأقتلك . تأكد من هذا . أنت مالك بن سيف الوضاع بلحمه ودمه» . أخبرتني أنيسة .

اقتربت أم ميخائيل من طاولتنا الصغيرة . أفسحت لها أنيسة مساحة ضيقة ، فتهاوت عليها الشركسية العجوز ، وهي تسند جسد القصخون إلى صدرها . أجلسته أنيسة على كرسيه ، بينما كانت الشركسية العجوز تتبارى مع الحلبية المتقاعدة في إسعاف رجل

ينزف دماً ذا لون كبدي مالح من الجهة اليسرى من صدره .

«قـتلتـه الليلة الماضيـة . ألـم أقل لك إنّ مـوعـدنا النصف من تموز!» . قال عبد الله القصخون

وفي فـضـاء اللوحة ، أمـامي ، كـان شـبح «البـاقع» يثب على الرجل الذي يقود العربة العجوز ، وتمكن من الوصول إلى رقبتـه . سمعت أسداً عجوزاً يزأر في فضاء الحانة ، بينما ارتفعت زغرودة اليشينية من أم ميخائيل .

وصرخت أنيسة ، «واويلتاه ! . . . القصخون قتل نفسه» .

الشارقة

أغنية الأخرس

نسمعه بعد انتهاء صلاة الصبح : ما إنْ يسلم الإمام ، حتى يصفق بجناحيه . رأيته هناك ، عند قلب نخلة الديري الباسقة التي تطل على فناء مسجد ميثم التمار (المسجد له اسم آخر ، مكروه حتى ذكر اسمه الأول فيه ـ قال الإمام في خطبة طويلة : ميثم[١] فارسي) . وخلفها يبدو القصر العالي ، متعدد الأبراج ، الذي لم يدخله أحد منا ، نحن مواطنو الفسحة الترابية السبخة ، أو بما عُرفنا به بعد عقود : ناس بيوت القصب خلف السدة الترابية الشهيرة التي تفصل المستنقعات عن المدينة . لكننا في شهر مارس من كل سنة ، نسمع هدير البارجة الأمريكية ، ولا نرى برجها لأنه يختفي وراء أحد أبراج القصر .

أما الغراب المطوّق ، الأكحل ، فهو يستبق الأذان الأول ـ فجراً ـ ويقوم ينعق صاخباً ، ثم يسحب رفيقته إلى مكب القمامة ذي الغطاء الأسود ، في ظل البرج الشمالي ، كأنه يدخل إلى ميدان معركة .

ومثله ، أي مثل الغراب المطوّق ، ذلك الطائر الهندي ، الأكبر من البلبل ، والأصغر من الغراب الأكحل ، فإنه يزاحم المطوّق الصخّاب على الفضلات ، ويزعق ، ويتقاتل الذكران بشراسة . ولا تنتهي المعركة إلا حين يفرش الأكحل جناحيه على الأرض ، وهو

ممدد على ظهره . هذا الطائر الماكر ، الصقر الهندي الذي يسميه بعض جيراننا الحيدرآبادية : شيطاناً ، حذر جداً ، ويبدو واثقاً من نفسه ، عندما يقترب من البشر والشجر والحجر ؛ بحثاً عن طعامه ، من دون أن يسمح لذكر آخر الانفراد بأنثاه . وهذا ما حدا بأحد شيوخ قبيلة البلوش إلى القول : «هذا طير أمير» .

والبلبل ، هذا الطائر المغرد ، الوحيد ، الصغير ، الرقيق ، فهو يميل إلى العزلة : البلبل معتزل للجميع إلاّ أنثاه . وحين يبدأ يغرد ، ربما للتسرية عن نفسه ، أو للمناداة على أنثاه ، لا يطير أبداً . البلبل يغرد واقفاً . هناك ، حيث يختار مكانه بدقة ، ويتخير لحنه المحبب ، وفي الآن عينه يدغدغ ريش صدره ، أو يفرد كل ريشة في جسده ، فرحاً ومسروراً ومبتهجاً ، على الضد تماماً من أمير القصر ذي البروج الأربعة .

وكان من رأي والدي أن هزاري (الذي عاش معنا في بستان بيت الزبير ، عند منبت محلة الماجدية بمدينة العمارة ـ وهذا يعود إلى يوم في سنة ١٩٥٨) طائر مبروك . قال والدي : «اسمع يا هزاري ، إن هذا العندليب يقدّس في كنيسة الصابونجية ، ويقرأ في المزامير فوق كنيس التوراة في شارع المعارف ، ثم يختتم بأغنية قصيرة في مسجد الشيخ كاظم الكعبي بمحلة المحمودية» . ثم أطلق والدي عقيرته مغنياً : «آه اغيرال ، اغيرال ، اغيرال» .

مسجد الشيخ كاظم في سوق النجارين الشهير بالمدينة ، حيث دكان التبغ لصاحبه الحاج سوزة الفيلي ، ومغازة ساسون بن حسقيل ، كما كان والدي يسمي ذلك اليهودي الصموت . ساسون يحب الشيخ كاظم . وعندما يمرض الشيخ بتلك الارتجافة في أطراف أنامله ، يقصد دكان ساسون . «خَيرْ يا شَيْخْنا ؟» .

«ركبتاي بهما وجع» .

«هذا كله من شغل الليل ، مولانا» . يبتسم ابن حسقيل ، ثم يناول الشيخ قنينة صغيرة مملوءة بزيت الشيرج : اخلطه بماي قليل ساخن واغتسل به ، مولانا» .

ربما كان ما قاله والدي صحيحاً . فلقد فاجأني أحد أقاربنا ذات مساء ، عندما كانت الحرب[٢] على أشدها ، بحديث هاتفي أخبرني في أحد منعطفاته أن والدي أوصى قبيل وفاته وهو يحتضر : «أرسلوا إلى ابني هزاره الأثير» .

صاحبي ، ذلك الهزار ، صاحبي الذي لا يتجاوز طول جسده خمسة عشر سنتيمتراً ، البني اللون عند الصدر ، ذو اللحية الصفراء الزاهية ، والذيل الذي مثل وردة عباد الشمس ، يحب الرقص بين أغصان شجرة الرمان ، ويرتاح كثيراً عند شجرة التين ، ويمرح أكثر وسط حقول الحنطة قبل الحصاد .

لكن صاحبي هذا ، هزاري ، الذي يشاركني التنزه بين أروقة حديقة زينب ، لم أسمعه يغرد قط . وهذا ما أثار دهشتي وحيرتي ، وجعلني أتساءل : أهو أخرس؟ ثم إنه حدث في العام الماضي[٣] ، في شهر مارس ٢٠١٢ ، وأنا بين موشور الغبش ، حطَّ أمامي فجأة : سقط على الأرض المعشوشبة ، ذات اللون الكحلي كالليل تماماً ، ومدَّ رقبته نحوي وأطلق تغريدة لم أسمع بمثلها من قبل . ثم طار .

في الصباح التالي لم أره . وفي الأسبوع التالي لم أقابله . ومرَّ شهر ، وشهران ، وثلاثة ، وصاحبي غائب ، بينما أغنيته القصيرة لا تزال تسكن في قلبي . وفي كل صباح ، وعند كل غروب ، أقصد حديقة زينب فلا أجده . لكن أغنيته القصيرة لا تزال ماثلة في سمعي .

وقبل يومين من ذلك اليوم ، خرج صاحب القصر متعدد الأبراج ، بين أركان إمارته ، يحفّ به خدمه وحشمه ، وهو يحمل بيمناه بندقية صيد جديدة ، أهداها له أدميرال البارجة الأمريكية التي اعتادت الرسو ، هنا ، خلف البرج الشمالي في شهر آذار من كل سنة . قال الأدميرال للأمير : «هذه الغنيمة . . هدية أمريكا لسموكم» .

قال ناس حديقة زينب : أراد الأمير اختبار دقة تصويبه ، وجودة البندقية العراقية المنهوبة ، فصوّب ماسوراتها الثلاث(٤) نحو السماء ، وأطلق ثلاث رصاصات . ثلاث رصاصات فقط . وبعدما تلاشى صوت صدى تلك الرصاصات الثلاث ، استمر صدى أغنية هزاري يتردد في أرجاء حديقة زينب : لاريغا . . لاريغا(٥) . . لاريغا . . أغيـــــــــال .

---

(١) ميثم : كلمة تعني بلغة «أهل اليشن» البلبل ، الهزار ، العندليب . وورد في قاموس عتيق أنه رجل تم صلبه عند باب الإمارة في تل سفيح .

(٢) وجدت في «السجل الحربي» لمدينة «اليشن» أن المقصود بكلمة : الحرب التي ترد هنا ، هي الحرب بين العراق وإيران ، التي نشبت سنة ١٩٨٠ ، واستمر أوارها ٨ سنوات .

(٣) يبدو أن «السارد الداخلي» يكتب في زمن آخر ، هو المستقبل بالنسبة إلى سارد هذه القصة ، أي بالنسبة إليّ أنا جمعة اللامي .

(٤) البندقية ذات الماسورات الثلاث ، تمكين شعبي من اختصاص الذين شاهدوا انقسام ماء الهور نصفين ، كما سيرد في قصة أخرى من هذا الكتاب .

(٥) لاريغا : من أسماء العراق .

١٩٩٩

كاغدُ المُطارحات

تسع وتسعون قصة وقصة

مطارحات نادر وماهر
عند شجرة التين

مكث الغيلم نادر في مطرحه المائي ، يقلب الفكر ، ويديم النظر ، في حكاية جده الغيلم الكبير ، مع القرد ماهر الكبير[١] . بينما بقي القرد عارف عند ذروة شجرة التين ، يعيد التفكير كرة بعد كرة ، في حكمة جده الأول ، وكيف تخلص من نية الغيلم الكبير للغدر به .

وكان نادر يراقب منذ عشرات السنين ، قرداً يخلف قرداً على شجرة التين العجوز . وكلما أراد أن يفتح حواراً ، يمهد لقيام صداقة مع أحد هذه القرود ، يلقى صداً مرات ، ويقابل بصمت مطبق مرات ومرات . فكبر ذلك عليه وقال : «مالي أرى القرد يأخذني بجريرة جدي ؟ هذا لا يستوي مع العقل . وصدق من قال : لكل زمان دولة ورجال ، وأنا لست جدي ، وزماني ليس زمانه» .[٢]

وجدَّد نادر نداءاته المرة تلو المرة للقرد المتحصن عند ذروة التينة الهرمة ، إلا أنه لم يلق سوى الصمت والخذلان . فظهرت عليه علامات الكدر والحزن والغمّ والهمّ . حتى رقّ قلب القرد فرمى ثمرة تين نحو الماء ، فتلقفها الغيلم قائلاً : «شكراً للألطاف الحميدة ، فهاهو ماهر يستجيب إلى الحافي عليه لقيام حوار بيننا» .

ثم إنه رفع رقبته عالية فوق الماء وقال : «يا حضرة القرد العاقل ، أنا حزين جداً ، ومغتم كثيراً ، لصدودك وابتعادك عني ،

رغم أني لست الذي فكر بحفرة يلقي بجدكم فيها ؟»

فرقت نفس القرد وسال الغيلم : «لماذا تحزن وأنت تعرف ، بداءة ، ما انتوى جدك الكبير فعله من الغدر بنا ؟» ، فأجاب الغيلم : «حزني عليك وعلى نفسي كبير . وأنا وأنت أبناء زمان جديد ، وأحوال جديدة . وإني لأنشد صداقتك الوثقى ، وأريد أن أجعل من حكاية جدنا مع جدكم عبرة للمخلوقات طرّا ، حتى نتجاوز مرحلة الحقد بين سلالتينا ونتجاوزها إلى سلام دائم بين ملّتين ، فقد صدق القائل «إن الحقد يعني هزيمة الخيال» . ولا سبيل لي إلى بلوغ هذا الهدف ، وتبليغ هذه الرسالة ، إلا بإلقاء هذه المطارحات التي تخيرتها من بعض حكم الغابرين بين يديك» .

تساءل القرد بعد لحظات من التأمل : «غيلم يتطارح ؟» .

«نعم ، يا معشر القرود» .

مرت لحظات أخرى من الصمت ، قال بعدها القرد : «هيّا أيها الغيلم ، أسمعني مطارحاتك» .

(١)

قال الغيلم : «سمعاً وطاعة . وسوف أبدأ كلامي بحديث الخط والدرب . فقَدْ سمعتُ خطّاً أبيضَ ممتداً على امتدادِ الدربِ المُقَوَّسِ ، ينادي : «أطلقوني ، أطلقوني !» . فرد عليه الدرب : «مَنْ يُطلَقُ مَنْ ؟ النُقطةُ أم الخطّ ؟» . قال القرد : «ألا تعلم بأن أصل الخط نقطة ؟» . أجاب الغيلم : «أعلم ذلك أيها القرد . وأعلم أيضاً أن التغيير يبدأ من النقطة» .

قال القرد : «أصبت أيها الغيلم . هذه واحدة» .

(٢)

قال الغيلم : «أما الثانية ، فإني سمعت رجلاً أخرس يخاطب قلبه : «طوبى لمن أنساني لساني» . فرد القلب : «لو أنك ما نطقت» . قال القرد : «صدق والله . فما هي الثالثة ؟»

أجاب الغيلم : «هي حكاية الأرملة ورفيقتها العاقر» .

قال القرد : هاتها .

(٣)

قال الغيلم ، قال أهل العقل إن أرملة قالت لرفيقتها العاقر : «الحرمان اختبار إلهي في الحياة الدنيا» . فردت العاقر : «سبحانه ما أعظمه ، أنعم عليّ بتاج حكمته» .

قال القرد : «صدقت العاقر» . فقال الغيلم : «هي كذلك والله» .

تساءل القرد : وما الرابعة يا صاح ؟ ، فأجاب الغيلم : «هي حكاية اليد اليسرى ، وأختها اليمنى . أما سمعت بها أيها الحكيم؟» .

قال القرد : «نعم ، أيها الفهيم» .

ثم إن الغيلم واصل كلامه :

(٤)

. . . وقال أهل العقل إن اليد اليمنى قالت لليد اليسرى :

«ويل لمن أوتي كتابه بشماله !» . فقالت اليسرى : «ويل لكل همزة لمزة» .

قال القرد : «أحسنت . فهل لي بالخامسة !» .

قال الغيلم : «هي حكاية الفيل والبقّة» .

(٥)

فقد جاء في كتاب (أخبار الغابة) لخالد الذكر ابن لبابة ، أن قائد قبيلة الفيلة كان يسير متبختراً في غابة بْخا في ولاية بخا ، فقاطعه القرد : «وما بْخا هذه ؟» . استطرد الغيلم فقال إنها دسكرة في بلد الجبال السود ، بين الربع الخالي والبحر .

علق القرد : «واصل كلامك ، يرحمك الله» .

قال الغيلم : وبينما رئيس الفيلة على تلك الحال ، حطت بقّة في صيوان أذنه اليمنى ، فحرك أذنيه متأففاً : «من جاء بهذه المخلوقة الحقيرة إلى حماي ؟» . سمعته البقة ، فلم تكترث لعصبيته ، وخاطبت نفسها : «أقسم بخالقي وخالقه ، لأجعلنه يرى نجوم السماء ظهراً» .

وأخذت البقة تطن في صيوان أذنه ، ثم تسللت إلى أذنه الوسطى ، بينما كان رئيس الفيلة يصرخ : «أنقذوني يا ربعي ، تكاد البقة أن تقتلني» . سأل القرد : وبِمَ أجابت البقة ؟ . جاوبه الغيلم : سمعها الفيل تهمس في أذنه : لا تحتقر كيد الضعيف . . . . فربما ، جرح البعوض الفيلا .

قال القرد : «سبحان ربنا القوي الرحيم» .

قال الغيلم : سبحان ربي القوي العالم العليم الرحيم . ولكن أتدري ما القوة ، يا صاح ؟ .

قال القرد : «لا تزال مطارحات الحكمة معك» .

(٦)

قال الغيلم ، قال أحد الدببة معرفاً القوة : «يجب أن تُعرَّف القوة ، بإمكانية التطرف في استعمالها» . وافق القرد : «هذا

صحيح ، ربما» . ـ فقال الغيلم : « ومن هو القوي ، رعاك الله؟» .

«القوي هو الذي يعرف . فالقوة من دون معرفة خطر عظيم» .

قال الغيلم : «أحسنت يا أخي» .

قال القرد متسائلاً : «وبعد الذي فعلت ما فعلت تنادي عليّ : يا أخي ؟» .

قال الغيلم : «أو ما سمعت بذلك الذي يتآخى مع قاتليه؟» .

قال القرد : «جُدْ علينا بما عندك ، يرحمك الله» .

(٧)

قال الغيلم : أنشد عندليب ، بينما كان عند رأس نخلة بمنزل : «إذا كان عندك درهمان ، فقدم الأول لأخيك ، والثاني لأخيك كذلك» . .

«أفصح بالله عليك !» .

قال الغيلم : «من نام ليلته وجاره جائع ، مطرود من أرض الله .»

«أين تقع أرض الله هذه ؟» .

قال الغيلم : «كأنك تريدني أن أحكي بين يديك حكاية البرهمي والرجل المسلم عبدالله ؟» .

«فصّلِ تلك القصة ، يا حكيم الزمان» .

(٨)

قال الغيلم : جاء في الأثر ، أن رجل دين مسلماً ، وفد على أرض البراهمة يدعوهم إلى دين الإسلام ، فقال ملك البراهمة لمستشاره : «ـ ناظره مناظرة مشروطة : إن غلبك دخلنا في دينه ، وإن

غلبته دخل هو وناس دينه في ديننا» . فقال البرهمي : «هل سمعت الشرط أيها المسلم ؟» . فردً عبدالله على الفور : «نعم أيها البرهمي» .

تنهد الغيلم ثم توجه نحو القرد قائلاً : قال البرهمي : «إذا كان ربك ـ كما تدعي ـ قادراً على أن يخلق أي شيء ، فهل يستطيع أن يخلق شبيهه ؟» . فردً عبدالله منزعجاً : «أعوذ بالله من الشيطان القوي الرجيم . هذا هو الكفر بعينين اثنتين» . وهنا التفت البرهمي إلى مليكه قائلاً : «ألم أقل لك يا مولاي ، إن عبدالله لا يعرف غير السيف لغة» .

ظهرت علائم شرود على القرد ، فواصل الغيلم حديثه : «احتار عبدالله في أمره ، فقصد رجلاً في سجن البلدة كان يشتغل بالعقل وشؤونه ، وعرض عليه مأزقه ، فقال الرجل المفكر : أنا ـ والله ـ لها» .

قال عبدالله : «إن أخرجتني من ورطتي هذه ، بذلت مساعي الحميدة لدى حاكمنا ، فأخرجتك من السجن» . قال العاقل :« ـ أشك في ذلك . والآن خذني إلى مجلس ملك البراهمة» .

واستمر الغيلم في روايته : «ما إن وصل عبدالله ومعه الرجل المفكر ، حتى أعاد على مسامعه البرهمي ، مقولته مع عبدالله ، فقال المفكر : «لكل حادث حديث» . قال الغيلم : «سأل البرهمي الرجل المفكر : إذا كان ربك قادراً على خلق أي شيء ، فهل يقدر أن يخلق شبيهه ؟» .

تحدث الرجل المفكر بعد هنيهة من الصمت : «أيها البرهمي ، إن أصل مسألتك مغلوط ، ولا يستقيم مع العقل» .

«كيف ؟» . سأل البرهمي .

قال المفكر : «إن ربي هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد» .

«هلاّ توسعت في خطابك ؟» قال البرهمي .

قال المفكر : «إذا خلق ربي شبيهه ، يكف أن يكون رباً كما وصف نفسه» .

وعاد البرهمي ليسأل : «وغير هذا ؟» .

أجاب العاقل : «وأي نكتة أخرى تناقض مفهوم الربوبية هذا ، يكون الله ظالماً للمخلوقات . وربي يجل عن الظلم» ، فقال البرهمي مستجيباً : «أشهد أنك غلبتني» .

وهنا سأل القرد الغيلم :

«وهل التزم عبدالله ومليكه إطلاق سراح المفكر من سجنه؟» .

قال الغيلم : «زادوا في حديده حديداً جديداً» .

سأل القرد مستغرباً : «أيحدث هذا في عالم البشر ؟» .

قال الغيلم : «إن عالم البشر مملوء بالتناقضات والعبر لمن يريد الاعتبار من الوقائع والأحداث» «ما أجهل الإنسان» . قال القرد .

أثنى الغيلم على رأي القرد : «صح لسانك أيها القرد الفصيح . ولكن فيهم الحكماء أيضاً» . فقال القرد : «اقنعني» . قال الغيلم : «يجب عليّ أن أروي بين يديك حكاية الملك الأسود وجاريتيه السوداء والشقراء» .

قال القرد : «كما ترغب يا من تطلب المعرفة» .

(٩)

قال الغيلم : كان يحكم أرض أقوام السودان ، رجل أسود

البشرة ، غليظ الشفتين ، واسع المنخرين ، كبير الجمجمة ، يقال له : ملك الملوك شاكا زولو ، الذي عرف عنه قوة في البأس ، وعزيمة في الصولة ، وسداداً في القول والعمل . وهو إلى ذلك محارب مشهود له بالخبرة العسكرية ، ومعرفة الرجال وطبائع البلدان والعبدان ، فعظّمه شعبه ، وخافه جيرانه الأقربون والأبعدون ، وحسبوا له ولبلاده ألف حساب وحساب .

وكان ملك الملوك شاكا زولو العظيم ، أذاع في البلاد أن أي وافد جديد على مملكته ، عليه أن يزوره في بلاطه ، ليلقي عليه سؤالاً واحداً فقط ، فإذا كان جواب الوافد صحيحاً ، قربه إليه وأكرمه . أما إذا كان غير ذلك فلن يشاهده أحد من الناس يخرج من قصر الحاكم الأسود . ولم يرَ الشعب الأسود في مملكة شاكا زولو مترامية الأطراف ، أي زائر يدخل القصر الملكي ويخرج منه .

قال القرد : «نعم أيها الحكيم» .

واستمر الغيلم في روايته : « . . وذات يوم وفد على البلاد رجل من بلاد يقال لها ميسان ، اسمه راشد الميساني ، فقاده حراس الملك إلى البلاط الملكي ، حيث كان الملك الأسود يجلس ليقضي بين الناس . وقف راشد بعيداً عن عرش شاكا من دون أن ينحني له ، فأومأ الملك برأسه نحو حاجبه الذي يقف على يساره ، فتقدم الحاجب نحو راشد الميساني ملوحاً برمحه ، مطلقاً صيحات غريبة على مسمع راشد ، بينما كان الذين في بلاط الملك يطلقون الهلاهل ويصفقون بأكفهم ، لكن ابن ميسان بقي في محله رابط الجأش ، منتصب القامة . وفجأة رفع الملك ذراعه اليمنى ، فتوقف الناس عن التصفيق والصخب ، ليحل صمت رهيب على البلاط وناسه . أما المحارب الأسود الذي كان يرمح برمحه أمام راشد ،

فتحول إلى تمثال من الأبنوس الخالص . ولم يكسر هذا الصمت سوى سؤال أطلقه الملك شاكا زولو : «لماذا لم تنحنِ لي ؟» .

«نحن قوم لا ننحني إلاّ لله» . أجاب الميساني هادئاً . ثم أتبع قوله بعبارة كانت غريبة على مسامع ملك السودان وبطانته : «السلام على الملك العالم العليم» .

تفرس الملك شاكا في راشد الميساني وخاطبه : «سأرد على تحيتك يا ذا الشعرِ الأسود ، بعدما تجيب عن مسألتي» .

سأل القرد : «وبِمَ أجاب الميساني ؟» .

قال الغيلم : «قال الرجل الذي سكن أجداده في مدينة يقال لها «إيشان فليفلة» ، تفضل أيها الملك العادل» . فقال عظيم الزنج : «أنت تعرف مصيرك إذا لم تجب عن مسألتي إجابة صحيحة» . فقال راشد الذي من يشن ميسان : «أعرف هذا ، وأعرف أيضاً أنك لن تستجيب إلى طلبي حين أجيب عن مسألتك كما تريد» .

واستمر الغيلم يروي الحكاية بعد أن تنفس عميقاً : «كانت تقف فتاة شقراء كأنها فلقة قمر في منتصف الشهر ، على يمين الملك الأسود ، وأخرى سوداء عظيمة الشفتين ، واسعة المنخرين ، مفرطة في بدانتها تقف على يسار الملك شاكا زولو . فسأل الملك شاكا راشد الميساني : «من هي الأجمل : الشقراء ، أم السوداء ، أيها الرجل العربي؟» .

قال الغيلم :

توقف الميساني برهة ينظر نحو الأرض ، ثم رفع رأسه وخاطب عظيم السودان : «أيها الملك الجليل . في هذه المسألة هناك من يقول إن الشقراء هي الأجمل ، وغيره يقول ان السوداء هي الأحلى» .

سأل عظيم السودان راشد «وأنت أيها الميساني ، ماذا تقول؟» .

فقال راشد الميساني : «أقول أيها الملك المهاب : العين وما تنظر ، والقلب وما يهوى» .

ثم إن الغيلم ، أكمل حكايته فقال : «نهض عظيم الزنج من عرشه ، وتقدم نحو راشد الميساني الذي من مدينة فليفلة وخاطبه : أنت حكيم الزمان قولاً وعملاً . ومن أجل حكمتك ، جعلتك كبير مستشاريي» .

قال القرد : «والله ، إن عظيم السودان ، أحكم من كثير من العربان والبيضان والحمران والصفران» . فقال الغيلم : «لأنه حر الضمير» . ثم توقف عن الكلام متفكراً في ما حوله ، فقال : «وقال الملك شاكا زولو : الآن يا راشد الميساني ، أجبت عن مسألتي ، فما هو شرطك عليَّ ؟» .

قال راشد الميساني بعد أن أخرج من جيب جلبابه رقعة شطرنج : «تملأ المربع الأول رطلاً من الذهب الخالص ، وتضاعفه في المربع الثاني ، وتضاعف المضاعف في المربع الثالث ، حتى تنتهي إلى المربع الأخير في هذه الرقعة الصغيرة» .

علا ضحك رجال البلاط وتغامزوا في ما بينهم . أما الملك شاكا زولو فقال لراشد الميساني : «وأنت ، هل تقبل أنت ، وهل في تقاليد قومك وأهلك في ميسان ، أن يتمّ إفقار شعب على حساب شعب آخر؟» .

قال الميساني باسماً : «أيها الملك العظيم ، أريد فقط كفك في كفي ، لنبني صداقة بيني وبينك ، وبين شعبي وشعبك ، فهذا هو قدر المواطنين الأحرار» .

قال القرد : «إن راشد الميساني يتحدث عن الحرية ؟ إذن ، ما هي الحرية ، يا صديقي الغيلم ؟» .

(١٠)

قال الغيلم :

«سمعت أحد شيوخ ملتنا ، وكنا نسميه : الأسمر ، يتحدث إلى نفر من أقرانه ، ذات صباح مشمس ، عندما كنا نحضر مجلسه الأسبوعي صباح كل يوم جمعة . قال الأسمر : كنت أغطس في عمق طبق ، تحت طبق ، وهذا تحت طبق ، وهذه كلها تحت طبق ، حين فكرت : «كيف سأكون إذا ما صعدت إلى الأعلى ، علواً بعد علو ، وتجاوزت هذه الأطباق كلها إلى غيرها ، حتى أصل إلى أعلى نقطة فوق سطح ماء النهر» .

«هذا سؤال الحكماء وأهل العقل» . قال القرد .

قال الغيلم : قال الغيلم الأسمر لنفسه : «الطبق قيد . لا بد أن أتخلص من قيودي كلها ، طبقاً بعد طبق» .

فعاد القرد يسأل : «أتعني أن كل طبق يقود إلى نقيضه؟» .

فقال الغيلم : قال الغيلم الأسمر لذاته : «لا خيار لي إلا في الصعود مهما تعددت الطبقات والأطباق ، لأنني في عملية الصعود أكون حراً» .

قال القرد : «رأي صائب ، وأيم الحق» .

قال الغيلم : «قلنا نحن الغيالم الذين كنا نحضر مجلس شيخنا الموقر : يا أخانا المجرب ، هذه هي طبيعة الأشياء . كل فكرة تقود إلى نقيضها . وهذا هو جدل حياتنا» ، فسأل القرد : «سمعتك تقول : جدل حياتنا ؟» . أجاب الغيلم : «نعم . إنه أسلوبنا وخطابنا في القول بمفهوم الغيالم للحرية» .

صفق القرد بكفي يديه موافقاً : «ما أحسنكم ، معاشر بني غيلم» . فقال الغيلم : «هذا هو قدرنا ، يا صديقي المتألم . إننا نعيد

محو أنفسنا وبعثها ، في كل موقف نتخذه مختارين ، بالحوار والجدل المتواصلين مع أنفسنا . وهذا هو مفهومنا للحرية» .

فقال القرد متعجباً : «أفهم من قولك أنكم أطلقتم الحرية لعقولكم؟» .

«لا ونعم» . أجاب الغيلم :

«كيف جمعتم بين لا ونعم ؟» . سأل القرد :

«بالمسؤولية» . أجاب الغيلم .

فأعاد القرد سؤاله : «كيف ؟ اشرح لي هذه النكتة ؟» .

قال الغيلم : «أراهن أنك تبتغي معرفة العلاقة بين الحرية والمسؤولية» .

فقال القرد : «نعم . أصبت يا حكيم» .

(١١)

قال الغيلم :

«سمعت إنسيين اثنين يتنادمان . قال الأول : «الحرية والمسؤولية توأمان» . فقال الثاني : «قل : الحرية والمسؤولية تتلازمان . ولذلك هما توأمان» .

استحسن القرد ما نقله الغيلم ، وسأله : «أتستمع إلى مطارحات بني الإنسان ؟» .

«نعم . عندما يكون لدي وقت أكون تحت الشمس . وكنت أسمع شططاً من أحدهم ، وأنصت إلى حكم ثمينة من إنسان» .

قال القرد : «نعم» . ثم أخلد إلى الصمت ، ليحث الغيلم على الاستمرار في حديثه ، فقال الأخير في نفسه : «حمداً للماجد المجيد العالي ، الذي جعلني مسؤولاً عن نفسي واختياراتها» . ثم

عاد إلى صمته الذي قطعه نداء القرد : «أيها الغيلم ، سمعت من أحد أحفادي من بني الإنسان يقول : «معنى الحرية هو المسؤولية . ولهذا يأباها الناس» .

غمغم الغيلم : «هذا هو جوهر الحرية» ، بينما استمر القرد في صمته العميق ، متفكراً في الأقفال التي تسجن الحوار بين الكائنات ، فقال بصوت عال ، كأنه يريد إسماع صوته إلى الكائنات طرّاً : «لا تستطيع أي ذات أن تكون حرة ، إلا ضمن مجموعة حرة» .

رفع الغيلم عنقه : «ها قد عدنا إلى نكتة المسؤولية مرة أخرى ، وإني لأرغب في أن أروي بين يديك الطرفة التي يتناقلها الأبناء عن الأجداد» . وبقي القرد مستغرقاً في صمته وتأملاته ، بينما قال الغيلم : «سمعت من أبي ، نقلاً عن أبيه ، عن أحد أجداده ، إنه قال : «جسدي : التراب والماء والهواء والنار» . فحفظت تلك المقولة بين طيات ذاكرتي ، لأنها تعني لي الشيء الكثير» .

قال القرد : «أنت تذكرني بمقولة ذلك الإنسي التائه» .

«نعم» ، وخاطب الغيلم نفسه : «حمداً للماجد الرحمن الرحيم المتعالي ، فلقد بدأ القرد يستجيب لصداقتي» . لكن القرد لم يدع الغيلم يستمر في تأملاته فقال : «سمعت من أبي ، عن جده ، قال : «سمعت إنسيّا يطوف بزورقه الصغير المتهالك على صخور في أحد الخلجان يقول : لست مواطناً لأليشن أو ميسان . أنا موطني الأكوان» ، فسمعت هاتفاً عذب الصوت ينادي : «يا صورتي في العناصر كلها ، أنت الآن الحر والمسؤول» .

فقال الغيلم مفتخراً :

«هنيئاً لكم معاشر القرود» .

أبو ظبي – الشارقة

(١) هنا تناصٌ مع إحدى حكايات (كليلة ودمنة) كما رواها عبداللّه بن المقفّع .

(٢) ثم توقّف عن سرد بقية المطارحات ، التي من المُؤَهَّل أن تصدر في كتاب منفرد قريباً بعون اللّه . وسيجد القارىء الكريم مقدمتين للكتاب ، الأولى بقلم الكاتب ، وهي عبارة عن تحقيق في روايات كانت مخبوءة لدى مريم بنت مطر . وكانت هذه السيدة الجليلة قد قدمت اليَّ صُرَّةً منسوجة من شعر معزة ، وقالت : يا صديقنا اللامي ، لا أنت لهؤلاء الأَعراب الذين نسوا العروبة . هنا غيلم وقرد يتحاوران . انشر حوارهما بين العرب ، فلعلهم يتعلمون من هذين الكائنين غير الأنسييّن ، واللّه من وراء القصد .

الكاتب

مَنّان بن مُوحَة المُكَنْدَحَة
يُصارع لازار البُرتكيْشِي
عند خُوَيْط السلْطان

«في قلبه تقيم الأكوانُ .
وجه حبيبي باء البسملة . .
ونشيد الفرقان»
(مَنّان)

١ - أبُو علِي حَسَن المُجاب وآياته

﴿ا ل م ر ك﴾
«سوّاها ابن موحة» .

. . . وأشرقت سليمة بهلهولة ميسانية نقلت صداها الرياح إلى الآفاق . ثم عادت إلى عرصات مدينتنا عرصة بعد عرصة ، ودخلت إلى بيوتنا جميعاً في محلة الماجدية ، فخرج الأطفال من ديران أهاليهم راكضين صوب ساحة الفِراريّة ، ولحق بهم والدوهم ، وتجمع الكهول حول الكوز ذي اللون الشذري ، عند التقاء الدرابين الأربع ، بعيداً عن دربونة «ريمة التركيّة» ، بتلك الساحة الصغيرة المتربة ، بينما كانت «رَحْمَةُ المَصْكُوكَة» ، ذات الاثني عشر ربيعاً ، داخل نفنوفها الأسود ، ملتصقة بجسد الجدة الذي كان يرتجف مثل جسد امرأة تجلّى لها «قمر بني هاشم» في صحن مشهده المقدس .

أما منان بن المُكندحة ، فقد بقي واقفاً حيث هو(كما سيقف في نهاية هذه القصة) عند مركز ساحة المُكندحة (كما سمّاها الناس بعد تلك الواقعة) ، لا يستر عريه إلا إزار كناني ، قرب الكوز الفخاري ذي اللون الأزرق(١) ، ممسكاً بتلك السعفة اليشنية التي لم يره أهل اليشن يحملها قبل هذا اليوم المشهود ، بينما تبدو كتفاه العريضتان ، مثل مِجدافَي بَلَم عشّاري كان يستخدمه أخواله الكَعبيُّون الذين نزحوا من أبعد نقطة ماء في عمق البطائح واستقروا عند التقاء مياه الهور باليابسة ، تصحبهم أوزاتهم السومرية البيض ، وجواميسهم السود المقدسة ، وثيرانهم ذات الأحداب الضخمة التي يشبه نخيرها تنفس منّان ساعة هياجه وغضبه .

سمّاه الفتيان بـ«الثور» ، لأنه يشبه ثور الوتّار سيد علي بن سيد ميثم أبو التمر ، في جموحه وقوته الجسدية ، لا سيما بعد أن يعزله السيّد ، معصوب العينين ، لمدة ثلاثة أشهر تسبق شهري تموز وآب من كل حول ، استعداداً لتقفيز بقرات المدينة كلها . وهي مناسبة لم يتخلف منّان عن حضورها منذ أن عرفه أهلنا يصدر نخيره الغاضب الغامض ، حين تقترب منه الأوزة السوداء وهي في طريقها إلى شريعة النهر .

وكان العجائز يقولون في مجالسهم البعيدة عن السابلة : «منّان وَلَدٌ مَسْكُونْ» ، لا سيما بعد أن شاهد ناس المحلة ، الأوزة السومرية ـ الأنثى السوداء ـ التي تسير في مقدمة سربها ، على يسار ذكرها ، بريشه الأبيض وغرته الكحلاء ، كما هو خط مسيرها المعروف لدى الكبار والصغار ، وحولها فراخها في الطريق إلى الشريعة ، تطير مثل باشق وتحط على كتفه اليمنى ، عندما كانت أفعى «السيِّد سْرَيوطْ» ذات الرأس المثلث والذنب القصير ، ترسل من الصليب الذي يُتوّج هامتها ، أزيزاً حاداً وهي تقترب منه (. . . . وَبَغَقَت الأوزة السومرية

بصوت كأنه اصطفاق موجة ضخمة على سَنْسُول شَوَتهُ نار سقر : «منّان ، منّان» . هكذا روين حاملات مِصْخَنات الماء عندما كُنَّ في طريقهن إلى بيوت أمهاتهن ، عائدات من شريعة النهر . ثم هوت الأوزة السوداء من علٍ ، مثل سيلٍ عرم ، والتقمت رأس الأفعى بمنقارها الأحمر ، ورمت بها بعيداً عن مِدِرْبان النسوان) ، فسمع المزارعون في حقولهم ، والعابرون إلى المدائن الأخرى ، بل حتى حزقيال واليهود الجائلون بين أكواخ الجبايش واليابسة ، حاملين على أكتافهم أطْوال الأقمشة السِّنديّة المطوية بعناية فائقة ، منّاناً يرسل صراخاً مفهوماً في لحظة نادرة من حياته الصامتة : «ملعون يا لازار . ملعون أنت وخالك أهرم شواليا» .

كان ذلك حدثاً مشهوداً في محلة الماجدية ، فالعامة تعتبر منّاناً مجنوناً ، أو رجلاً أهبلاً . وفي أفضل توصيفاتهم له كان هناك من يعطف عليه قائلاً : «مسْكينْ ، وَحَقْ قمر بني هاشم أبي الفَضِل[٢] . منّان مْسُوَدَنْ وْمَقْطُوعْ مِنْ شَجَرَة» . وحدها ، سليمة بنت هاجر . سليمة التي يناديها الصغير والكبير باسم «سليمة الخبازة» ، اختارت درباً آخر عند الحديث في شأن منّان . اخبرت مجموعة من صويحباتها ذات مساء ، بينما كانت تزيل الرماد من قاع «تنور فاطمة» : «شُوفَنْ اللّي يْجيبَه الغَيْبْ . منّان مَبروكْ ، يَشْهَدُ الله» . ثم اقتربت بوجهها من سعير تنورها ، فبانت مثل أوزة سومرية سوداء .

وحتى يوم الخلق هذا ، يتناقل الناس حكايات يقولون إنهم سمعوها من فم سليمة سرّاً أو علانيةٍ ، لعل أكثرها شهرة وذيوعاً بين العامة والخاصة ، ما رواهُ رئيس العرفاء المتقاعد أبو علي حسن المُجاب ، بين أيدي مجموعة من الجنود الذين صرفوا من الخدمة العسكرية ، بعد مشاركتهم في الحروب ضدّ بني الأُحَيْمِر .

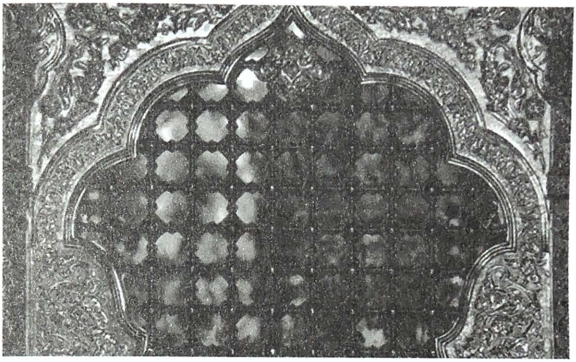

قال المُجاب : «كنت أقتبل بيت الله ، في زيارة الأربعين ، قبل عشر سنوات على هَيْئة «بني الأُحَيْمِر وبَنِي الأُصَيْفِر . . . [٣]» ، فدخلت في سنة من نوم ، ورأيت بعينيَّ هاتين اللتين سيأكلهما النمل الأحمر ، سليمة بنت هاجر ، تصل إلى طوف بستان بيت الزبير ، تصحبها كومة من سواد تتقد بقبسات من نار حمراء . كان قفاي مستنداً إلى شباك أبي الفضل ، حين رأيت سليمة تقف عند طرف ذلك البستان ، وتنحني قليلاً ثم تلتقط بُقْجَة بيضاء ، بينما ظهرت بالقرب منها أوزة سوداء تتقد بألسنة من نيران حمراء (وهذا لون نادر لأوزة سومرية ـ «الكاتب») . توقفت الأوزة برهة أمام سليمة ، ثم بَغَقَت : «منّان ، وُلَيْدِي يا منّان» . وبعد ذلك ارتفعت في الفضاء الواسع . وتلك كانت المرة الأولى والأخيرة التي رأت فيها مدينتنا أوزة سوداء تطير مثل صقر . صدق قسم من أهالي محلة الماجدية برواية المُجاب ، ولم يجد فيها صيادو الخضيري والحِذّاف ، ما يستحق الاهتمام .

أما العُزَير بن بَرْخِيا حاخام اليهود في محلة التوراة ، فقد أنصت

إلى رواية أبي علي حسن المُجاب، بلسان حزقيال بن ساسون، بائع المنسوجات السندية الجائل، مغمض العينين وهو يتمتم بكلمات لم يفقه معناها عَينُهُ الإسرائيلية على العرب، ثم إنه تحدث إلى صاحبه بعد لأي، بينما كانت مطوياته بين فخذيه، :

«اسمع يا حزقبال. تقول كتبنا «إذا نطق الأبكم الأخرس في سهل خيط السلطان، ونطقت بنت باكر مصكوكة، وطارت أوزة سوداء في سماوات MESUN، ونُشر النمل الأحمر فوق تربان المدينة، فإن حدثاً جللاً سوف تشهده مملكة عظيمة تقع جنوبي بابل».

«نعم يا سيدنا. وهل هي مملكة الملوك الذين يربو عددهم على الثلاثة والعشرين؟».

«نعم، يا حزقيال. ستتغير أحوال الناس والأرض. سيظهر الآشوري في أرض بابل، ويمدّ ذراعه لتصل إلى مملكة الرب. سوف تزحف جيوش الرب من البحار والصحارى والسماوات. فويل لمملكة ميشون من غضب يَهوَه ونقمته».

«إشْلُونْ راحْ إِيْصيغْ قَلبَكْ... ساسون»؟، تساءل ساسون البزّاز مذعوراً، بينما استمر الحاخام الأعظم يروي حكاية قديمة حفظها عن أبيه وأجداده: «هي معركة كبرى، تحيط بنا من النهر إلى البحر. سيظهر البرتكيشي على بغلة شهباء. فإذا نودي به شيخاً على محلتنا، فلا مناص من التزام السكينة وعدم مبارحة بيوتنا، فإن السموات سوف تمتلىء بالأوزات السود ذات الغرر البيض».

لم يَعِرْ العُزير بن برخيا الذي بلغ من العمر عتيًا، أي اهتمام لفزع جاسوسه على العرب، واكتفى بمواصلة التحديق في سطور

مطوياته التي بين فخديه . والناس من طبيعتهم النسيان بعد أخذ ورد في مثل هذه الحكايات التي تزخر بها مدينتنا . لكن منّاناً كان يكبر شهراً بعد شهر من دون أن يخرج من فمه أي صوت ، اللهم إلا صرخة مكتومة ، عندما تمر البجعات المهاجرة على بيوتنا في ليالينا الشتوية الطويلة الظلماء ، آتية من المياه الباردة في بلاد المَسْقوب . ثم تطورت الصرخة إلى نوع من العويل . عويل طويل ومتصل .

«منُّان لا يتكلم» . قال المُجاب لجاره في مسجد الشيخ كاظم الكعبي . «يا عيني على ابني ، هو أخرس» ، قالت سليمة ، ثم كشفت عن صدرها قبالة تنورها المسجور وقالت : «ها . . أبُوْ الفَضِلْ ، وينك يا قمر بني هاشم ، مَنَّانْ مْعَلَّقْ بْشِبّاكَكْ» . . . . ونسي الناس دعاءها ذاك بعد حين .

لكن محلتنا لم تنسَ ثلاثة من أهلها : منّان بن المُكندحة (والمُكندحة هي القوّالة كما يعرفها أهالي محلة الماجدية) ، وأبو علي حسن المُجاب ، والعريف جاسم الشطب ، الذي يعمل على عربة يجرها حصان هرم ، تنقل الموسرين والقحاب بين الدربونة وملهى الأندلس . ثم أضافت لهم دورة الأيام والليالي اسماً رابعاً . وكيف تنسى مدينة اليشن ذلك اليوم الذي ظهر فيه بمحلتنا رجل لا قبل للناس باسمه وشغله ؟ .

كان يمتطي ظهر بغلة شهباء (وهناك رواية أخرى ، مفادها أن البغلة تلك هي حصان ممسوس بضربة من جناح الملاك الذي كان يقود القباب الثلاث في ذلك اليوم المشهود ، بعد أن حاول مسافدة أمه ـ «الكاتب») ، تحته سرج من جلد ذي لون دارصيني مدبوغ دباغة جيدة ، يتدلى من حزامه سيف ذو مقبض من خشب

الأبنوس المُذهَّب . أما تلك الريشة التي بطول جنحي حمامة منزلية وتنتصب فوق قبعته الحمراء التي تغطي رأسه ، فكانت مثل قوس قزح .

«هذا هو رئيس الليفي . وحامي محلة الدربونة» . قال عريف الشرطة السرية السابق جاسم الشطب . «ههه ، أبو ريشة ، إن شاء الله يطلع خوش مَرْد» . علق عابر سبيل عافطاً . «بلى . هاي ريشة جناح بغبغوان هندي» . قال ابن شطب الذي اشتهر بعد سنوات بأنه كبير قوادي المدينة وجاسوس رئيس وحدة المدفعية في جيش السلطنة العثمانية ، الذي كان أفراده يعسكرون عند الضفة اليسرى من نهر الكحلاء . انتبه رواد «مقهى الكرخة» إلى كلمات ابن شطب ، من دون أي تعليق . وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمع بها والدي باسم «اللّيفي» .

كما أن محلتنا شهدت حدثاً لم تشهد له مثيلاً من قبل ، اللهم إلا في زمن مملكة بابل القديمة ، كما أخبرتنا بذلك رقائم الطين ، تمثل بظهور قرابة مائة امرأة بين شابة ومُسنّة ، تسير في مقدمتهن عجوز شمطاء عرفنا في ما بعد أن اسمها «ربمة التركية» ، بحماية من جنود البرتكيشي ، جرى إسكانهن في بيوت الدربونة المتفرعة من عَقْد التوراة ، والتي لا منفذ آخر لها .

وذات يوم استمع الناس إلى صوت أحد أفراد اللَبي ، وهو على ظهر حمار ذي بردعة زرقاء ، يتلو عليهم الرقعة التالية : «يا سادة اليشن ودهماءها . . أمر مولاي ومولاكم رئيس الجند ، المُقدَّم لازار البرتكيشي ، بأن يتم إسكان هؤلاء النسوان في هذه الدربونة ، وهي من هذا اليوم تسمى : الكلَجيَة . ويُمنع الدخول إليها إلا باذن خطي من قبل ممثل مولانا ، بعد أن يدفع طالب المتعة قرابين من الوَرْشَن .

ومن يخالف هذا الفرمان يعرض نفسه وعائلته وأقاربه حتى الدرجة الرابعة لعقوبات شديدة . ومن الله التوفيق والسداد ، والصلاة والسلام على ولي أمر العباد وجنده المنتجبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين» . وبينما الناس بين حائر ومندهش ومستغرب ، أطلقت ريمة التركية صوتها عالياً : «صلوا على ابن خال النبي . . لازار اللبي ابن اللبي» فرددت بناتها خلفها «صلوات ، صلوات ، حامينا اللبي فات» . وحينها فزعت الناس إلى ضريح قمر بني هاشم .

وهذا هو بعض ما حَلَّ بمدينتنا مع مجيء الليفي المنحوس . والزبدة هنا أن عامة الناس ، لم تكن تنطق تلك الكلمة مثل سراة محلتنا . كنا نقول : «لا هلا ولا مرحبا ، . . . باللّبي» . كنا نكره اسمه الذي نطق به جاسم الشطب : «هذا هو اللَّبي لازار ابن آريز البرتكيشي» .

وعندما رأى منان «اللَّبي» ، يمر بالقرب من تنور سليمة ، ثم يرسل إلى رَحمة المصكوكة تلك النظرة الشهوانية ، رفع أزاره فوق رأسه ، فبان فخذاه الأشحمان وبطنه المخسوف ، وأخذ يعدو نحو النهر ، عصر ذلك اليوم الربيعي ، عندما كُنَّ النسوة في طريقهن إلى بيوت أمهاتهن ، وعلى رؤوسهن مصاخن الماء ذي اللون الأحمر . ذلك الماء الذي يقول أهلنا إنه من حيض الهور .

تلازم وصول «اللَّبي» لازار ، مع ظهور ذلك الماء الأحمر على سطح الهور ، فتوجس الناس خيفة ، وتوقعوا شرّاً يقترب منهم . وأخبرت إحدى النسوة سليمة : «شوفي يا بنت هاجر . اللّبي مجبور برحمة ومُتخبّل عليها . الله هو الساتر» . وفي يوم آخر سمع الناس صرخة بجوار رحمة ، أو كانها تنطلق من داخلها : «وَيْنْهُمْ ، وَيْنْ أُخُوتي عِشّاق الماجدية» .

قالَ المُجاب : «رأيت أبا الفضل يخرج من شباك ضريحه ،

ويقول لي : يا حسن ، ستشوف فعلة منّان مع البرتكيشي» . سألت : «ماذا سيحدث ، مولاي ؟» . «الحرب . الكَرب قادم واَلبلاءُ لَمْ ينْتَهِ» ، ثم عاد إلى ضريحه . ولم أرَ أبهى من وجه أبي الفضل .

«وما شفت أجمل من وجه موحة المُكندحة (حسب رواية لسليمة) ، عندما كانت النار تأكل نفنوفها الأحمر ، في ظهيرة يومنا العظيم ذاك» . قالت سليمة لجارتها صَفيَّة بنت سيّد محمد : «كانت المُكندحة خياطة عرصتنا . سمراء من قوم السواعد ، تكفل أبوها برعايتها من المهد حتى جعل منها مُنية كل شاب من شباب عرصتنا . لكنها كانت ترغب عن هؤلاء كلهم ، لأن قلبها تعلق بواحد مظلوم أُمّاً عن أب . كان اسمه «المظلوم» . وكل ما نعرف عنه أنه من نسل آدم وحواء» .

«الله يرحمها ، ويرحم موتى الناس أجمعين» . قالت صفية . «أنا أعرف موحة أكثر منكن كلكن . أنا أمها ، ولا أدري لم لا تصدق الناس بقولي هذا ؟» قالت سليمة .

«أمها؟» . سألت صفية . قالت سليمة كأنها لم تسمع سؤال صاحبتها : «ركبت موحة رأسها . وأنت تعرفين البنت عندما تعشق . وقالت للمظلوم : تعال يا مظلوم ابن مظلوم إلى جامع الشيخ كاظم» . استقبلهما الشيخ الوقور في محرابه ، وانفرد بكل واحد منهما فترة من الوقت ، ثم نادى عليَّ : «تعالي يا سليمة» جلست ووجهي بوجه الشيخ الذي كان لا يبرح محرابه إلا لقضاء حاجته ، ورأيته يرفع خماره عن وجهه ، وقال : «زوجت المظلوم ، من موحة ابنة كاظم ، على كتاب الله وسنّة رسوله وأهل البيت وأهل العقل والصالحين» .

وفي تلك اللحظة ، أشرقت هلهولة ميسانية طويلة على فضاء مدينتنا كلها .

٢ ـ نشور النمل الأحمر

لم تطلع شمس الله على بيوت مدينتنا في ذلك الصباح .

بقيت الجواميس غاطسة في ترعة المحلة ، ولم تبرح أسراب الدجاج والأوز قنانها ، ولم ينفتح أي باب أو رازونة أو شباك في بيوت المحلة . وحدها المواقد في بيوت اليشن بقيت على نيرانها . قال رواة المدينة : الجنّي الأحمر الذي من أحفاد «الأعور» هو الذي علف مواقدنا بقطران وحجارة من ديرة حضرموت . وقالت سليمة بقيت نار تنوري مشتعلة . لم أعلفها خشباً من سدر أو صفصافاً أو مُطّالاً ، ولم أضف إلى موقدي نفطاً أو قاراً . شفتُ جنيّاً أحمر ينفخ من بين براطمه ومن عنّابتهِ محاريث من نار . وقال الشيخ كاظم : «الحاقة ، نزلت الحاقة بمدينتنا . يا ويلنا» . ثم سمعنا نخير منّان مثل صوت النار التي تخرج من خِنّارة تنور سليمة عندما تعصف بداخله تيارات الريح المتعاكسة .

كان الوقت مطلع شهر صفر .

وقامت كل ربة بيت بكسر كوزها الفخاري الأثير لديها عند عتبة باب دارها ، وردد الأطفال أنصاف العراة وراء المدّاح «نومان الخلف» : «سبحان الله ذي الجبروت والملكوت ، سبحان الله رب الكبرياء والعظمة والملكوت» ، وهو في طريقه إلى شريعة النهر ، يتبعه الرجال والنساء أيضاً ، ومعم طَرشَهم وكلابهم وأوزاتهم ، حتى توقفوا عند نخلة الديري العيطاء المطلة على الشريعة ، فقام المدّاح يرتقيها متضرعاً : «اللهم نسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، ونعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، والرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك» . وكان الناس يرددون بعده : يا رب ، يا رب ، يا رب ،

حتى تعالى عياطهم وبكاؤهم ، وعمَّ النواح أرجاء المدينة كلها ، فسقط المداح من لبّة النخلة مغشياً عليه .

لكن ما تلا ذلك كان هو الأعظم . فقد أخذت علامات الحياة تعود شيئاً فشيئاً إلى هذا الرجل الصالح ، الذي أخذ يدير بصره بين الناس ، وهو يذكر اسم الله الأعظم ، والجمع الغفير ينتظر منه كلمة تبرد صدورهم ، وتطرد الرعب من قلوبهم . ويبدو أنه عرف مقصد القوم ومرتجاهم ، فقام على حيله ، وتوجه صوب الشريعة ، وأرسل قدميه نحو الماء ، ثم خاض في لجتّه حتى بان وسطه ، وعند ذلك صرخ بصوت مسموع : «يا رب . . بحق نبيك ووصيه في خلقك من بعده ، نسألك العطف علينا ، والرحمة بنا جميعاً» . ثم سكت .

وسكتت الناس أيضاً . كان الصمت هو الذي يهيمن على هذه الجموع الغفيرة التي تراقب المدّاح وهو يرفع يده اليمنى نحو السماء ، وكأنه ينتظر كلمة النجاة . ولكن السماء كانت ساكتة صامتة هي الأخرى . ومرّ وقت غير معروف على تلك الحالة ، لم يقطعه سوى صوت نخير منّان . صرخ منان بصوت مسموع ومفهوم من الصغار والكبار : «النمل الفارسي في بيوتكم ، يا ناس ، نجاتكم في خويط السلطان» . ثم خرّ واقعاً على وجهه نحو شريعة الماء .

ومن بعيد ، من هناك ، بجوار مرقد أبي الفضل ، انطلق شهاب أحمر نحو السماء ، أخذ يرتفع رويداً رويداً ، ثم تحرك ليشكل قوساً هائلاً في فضاء المدينة ، وبعد ذلك أخذت السماء تهطل مطراً أحمر استمر نهاراً وليلتين ، فلزم الناس بيوتهم بعدما رجعوا إليها بناء على نصيحة من الشيخ كاظم الذي أمر نومان المدّاح بأن يعود أدراجه ، ويعيد تلاوة أدعيته ، بينما كان صوت منّان يتردد جهيراً واضحاً «يا أولاد اليشن ، الدنيا تمطر نملاً أحمر» ، ورأينا رحمة

المصكوكة تجري نحو بدايات خويط السلطان ، وسط ريح صَرصَرٍ عاتية ، حتى صار الشايب يلتاذ بالشاب ، والتجأت طيور المَنازل إلى أعشاشها في زواغير الحيطان ، وعلت قوقأة الدجاج والأوز ، ثم شاهدنا فارساً يرتفع طائراً بفرسه من أعلى ذروة قبة أبي الفضل ، متوجهاً نحو الخيط .

وانتبهت على صوت والدتي «قم ، حان وقت شاي العصر» .

وهذا ما كان في تلك الرؤيا المشهودة .

أما ما حدث في اليوم التالي ، فذلك سيكون من شأن «السيناريو الثاني» لإنهاء هذه القصة كما اقترحت ذلك عليَّ والدتي رحمة الله عليها .

٣. مباهلة شاي العصر

قالت الشريفة زهرة بنت خديجة ، قالت أمي خديجة ، عن جدي محمد المشكور إنه («لما حان يوم الزينة شفنا ثلاث قباب زرق تهبط من علو أعلى عند قبة السماء ، وتحطّ عند حافة الخويط ، فتذكرت ما أوصانا به جدنا محمد بن الحسن ، حين أعلن عن ظهوره لي وأنا بجوار شبّاك أبي الفضل . قال جدنا : «يا محمد ، لا تركن إلى سلطان صاحب الرايات الحمر ، ولا تحضر مجلسه ، فهو يطلبني منذ كنت في قرية سومرا ، وهو يتعقبني كما تعقب فرعون كل وليد . يا محمد ، أقم المباهلة لذكري ، حين تمطرالسماء أوزات سوداً ، ويُنشر النمل الأحمر من عهونه ، وتتكلّم بنيّة مصكوكة ، وعندها سترى ما لم تره عين ، وستسمع ما لم تسمع به أذن ، منذ كان الأزل أزلاً») .

كان ذلك في زمن الطفولة .

وكان هبوب نسيم الجنوب يأتي هادئاً من سطح نهر الكحلاء عندما كانت الشريفة تُعدّ مجلس شاي العصر، تحت الأذرع الخضر والذهبية والحمر والسود لسدرة بيتنا، بينما كانت ألسنة النار تتفعّى من بين أقراص المطّال المسنودة بسعفتين جعلت منهما الوالدة أعمدة صغيرة منتصبة أو مطروحة على قاع موقدها، الذي فرشته بحصيّات صغيرة كأنها حبّات لؤلؤ منثور، جلبتها من أبعد نقطة في وسط النهر، حيث تعودت الاستحمام فجر يوم الجمعة من كل أسبوع. «هذا أفضل» قالت الوالدة «تخدّرَ شاي العصر».

حطّت حمامتنا «سِعْدَة» فوق حائط الحوش، إلى اليسار قليلاً من الموقد، بعد أن هبطت من ذروة نخلة الخضراوي المطلة على الحوش من الجهة اليمنى. «ستظهر مُحْسِنة أيضاً»، قلت في نفسي. صفقت سعدة بجناحيها، فبان عنق محسنة المرقط بكريات بلورية شذري لونها، وعندها صاحت أوزتنا السوداء بأعلى صوتها: «ماما.. ماما»، فرددت الوالدة بصوت غير مسموع «صلوات على محمد وآل محمد»، انساب رويداً رويداً على أرضية المجلس، وصعد على حائط الحوش، ومن هناك أخذ ينزل درجة بعد أخرى، ليتحد بصوت المؤذن الذي أخذ يردد دعاء مأثوراً لطالما تفاءلت به الوالدة.

«ما أنهيت القصة..!».

«لا»، قلت «النهايات صعبة دائماً».

«ولكنك تعرفها».

«بلى». ثم خطر لي أن أضيف «ولا أعرفها ـ أحياناً ـ يا أمي».

«كيف؟».

«النهايات تصنعها إرادات وقوى خارجة عني».

أخذت الشريفة تلاعب نيران موقدها بمنقاش الحديد المحمرة نهايتي شفرتيه ، فظهرت مثل أوزة سوداء تستعد للطيران . «آها ، أنت يا ولدي كنت دائماً تختار نهايات قصصك» . ثم أردفت بعد برهة «أنا أعرف هذا» .

«كان ذلك في زمن الشباب» .

«والآن ، ماذا جرى ؟» . وعقبت متسائلة «كيف يحدث هذا لنا جميعاً ؟ لماذا لا نتذكر ؟ الكتابة ذكريات يا عزيزي» .

«إنني أهرم بسرعة» .

عادت السيدة إلى نيران موقدها ، وعدت أنا إلى ذاكرتي . تذكرت الآن الخطوات الأولى التي أدخلت أمي إلى دنيا القراءة والكتابة . اصطحبتها إلى فصل مكافحة الأُميّة الوحيد في سكيكنا ، وبعد سنة كانت تجيد القراءة والكتابة . قالت إنها تفضل أن تقرأ في المصحف جزءاً بعد جزء ، ثم أخبرتني «أريد أن اقرأ مقتل أبي مخنف» . وفي السنة الثانية نظمت مجلسها الخاص في العشر الأوائل من شهر محرم الحرام . أما في السنة الثالثة ، فقدمت إليّ أول حكاية كتبتها . «هذه هي قصة عمتنا سليمة الخبازة» . ولم تمر سوى ثلاث سنوات حتى كانت تعلم النسوان والفتيات المراهقات مبادىء القراءة والكتابة في محلتنا . تقول «العلم نور والجهل ظلام» .

«لكن ذلك كان منذ عشرين سنة يا أمي ؟» .

«نعم ، إنه العمر يا جمعة» .

«أعرف هذا . أعرفه تماماً» .

«طيب» قالت موافقة ، وعادت لتسألني «متى ستنتهي من هذه القصة ؟ . أنا واثقة أنك ستجد النهاية التي تبحث عنها» .

«لا أعرف يا أمي . لا أعرف النهاية» .

«كنت تقول لي : كل الذي عليك فعله هو أن تكتبي جملة واحدة صادقة . أكتبي جملة واحدة تعرفينها» .

«أنا؟» . وقلت مبتسماً «هذه لصاحبي الذي عرف نهايته ، واختارها عندما أطلق الرصاص على جسده في ذلك المشهد الدرامي العنيف» .

«لم تخبرني باسمه» . قلت : «ربما نسيت ، أنا آسف» ، ثم أخبرتها أن النسيان نعمة عند من هم في مثل عمري .

أحسست أنها متكدرة الآن . ربما تذكرت عملية انتحار همنجواي . حدث مراراً أني كنت أعيد على مسامعها حادثة إطلاق النار تحت حنكه من بندقية الصيد ذات الماسورتين . انتبهت إلى يديها تعالجان وضع كأس الشاي الخاصة بي ، كان الوشم الأزرق مرسوماً على ظهري كفيها ، نجوم رباعية تلتصق بخطوط تشكل أشكال سفن صغيرة ، تنوء بأحمال غير منظورة من الوجع والشكوى . ولم أكن أشتكي لغيرها حيرتي أمام النهايات . النهايات . . . آه ، ما أقسى النهايات .

قطعت تأملاتي حين قدمت لي كأسي المعتادة من شاي العصر ، ووضعت قطعة من رزّ مخبوز على ماعون صغير أمامي ، وعادت إلى نيران موقدها تقلبها ذات اليمين وذات الشمال «شاي أم جمعة . . طيب» .

«النار ، النار يا ولداه تطيّب كل شيء» .

رأيت أجنحة بيضاً وصفراً وسوداً وحمراً وزرقاً لمخلوقات لم أكن قد رأيتها من قبل ، تطلع من بين جمرات موقد أمي . «تلك هي سليمة» سمعتها تسارر نفسها . «وهذه هي موحة» . وخيل إليَّ الآن

أني سمعتها تقول لي «وهذه هي رحمة المصكوكة» ، وهذا هو المجاب . طارت الفراشات الثلاث في الفضاء أمام ناظري ، بينما كانت والدتي تشير بمنقاش النار نحو السماء «انظر إلى هناك» . كانت ثلاث قباب من نور أزرق تهبط الآونة باتجاه خويط السلطان . «سترى ما لم يره بشر من قبلك» . واستمرت تلاعب نيران موقدها ، بينما امتلأ الفضاء على رحابته بأسراب من أوزات سود .

كان ذلك يبدو لي مثل رؤيا سبق لي أن دخلت فيها ذات عصر من يوم مضى . (كنت دخلت في صلاة العصر ـ حين أخذت أطير كما لو أنني أرتقي طباقاً ، طبقاً بعد طبق) وكانت شمس الأصيل تكاد تسقط في إيشان السروط ، حيث تتجاور قمم تلال صغيرة تبدو مثل أحدبة نياق قد فرغت من الطراد توّاً ، تفصل بينها حزم من أشجار السَّيسّبان والغَرَبِ والصفصاف ، لتبدو الفجوات بين حزمة وأخرى مثل بحيرات صفر معلقة تحت قبة السماء الزرقاء المشوبة بحمرة عميقة تنطلق من وراء اليشان ، لتواجه إيشان فليفلة الذي يبدو مثل غترة شيخ ميساني نشرها في الحال على مخدة

مضيفه في ديوانية بيته ، بينما هو يتوجه نحو الأفق الغربي .

أما في الأفق المستطيل الواسع ، الذي لا تحدّه سوى حافات غير منتهية من ضوء برتقالي من الشمال إلى الجنوب ، فقد ظهر في وسطه مربع توزعت على زواياه أربع أرائك من خشب السنديان . وعلى يمين المربع خباء أسود صغير يتجه إليه شبح دابة شهباء يعتليها رجل يرتدي ملابس القتال ومعه عدة حربه ، بينما تبدو على شماله قبة زرقاء نصبت في الحال ، وقف عند بابها رجل ضخم البنيان كان يبدو كما لو أنه يستعد لخلع دشداشته ، بين يديه كوز شذري اللون . وفي هذه الأثناء هبطت قبة زرقاء وحطت قبالة الأيشانين ، وخرج منها رجل يشبه قمر بني هاشم .

«ها . . هل اقتربت من نهاية القصة؟» .

«إنها تكتب نفسها بنفسها» .

«بنهايتها؟» .

«لا نهايات لقصصي» .

«إشلون يا عِذْلَ عمري؟» .

«قصصي مخلوقات إنسانية . والإنسان في تحول وارتقاء دائمين من شأن إلى شأن» .

«وغير ذلك؟» . سألتني أمي .

«كل من يقرأ إحدى قصصي ، يشارك في كتابتها»

لم تعلق والدتي ، ربما لأنها كانت تعيد معي قراءة هذه القصة ، فرأت مناناً ، يخرج من كوزه الشذري اللون ، سعفة نخل ميسانية جرداء ، ويعيط بصوته الضخم الأجش عند باب قبته الزرقاء «لازار يا برتكيشي هذا هو يومنا الموعود» . وكان الشيخ كاظم ، قد نزع خماره عن وجهه الأسمر وعينيه السوداوين وأنفه الأقني ، واتخذ

مجلسه الآن على الأريكة الأولى بجانب سليمة الخبازة التي بدت عباءتها مزخرفة بحيوات خلفها العجين المختمر، وعلى الأريكة الثانية جلست موحة تحيط بها نيرانها، وجلس على يمينها المستجاب بوقاره المعتاد، بينما اتخذت رحمة المصكوكة مجلسها على الأريكة الثالثة وحيدة. أما على الأريكة الرابعة فقد بان الحضور الكبير لشخص كليّ البياض، بجوار المظلوم الذي نزّ من مياه الهور التي انتقلت إلى خويط السلطان الآن، وصاح صائح في الفضاء: ليحكم بيننا ابن الحسن.

وفجأة انطلقت صيحة صافية وهادرة من فم رحمة المصكوكة: «وينه شيخ العشاق، وين منان ابن كاظم».

قام الشيخ كاظم على حيله، وتقدم منان نحو الدابة الشهباء، مرناً، خفيفاً، مثل أوزة سوداء تطير في فضاء اليشن، وصرخ في وجه لازار: أيها الصنم...!

وأشرقت هلهولة طويلة من سليمة بنت هاجر لتدخل في كل بيت من بيوت عرصة الماجدية.

---

(١) المرجح أن ذلك اليوم هو، الاثنين، الرابع عشر من شهر آب اللهاب من سنة «الانقلاب الكبير»، على وفق تأريخ أهل مدينتنا لأيامهم ووقائعهم. وهو ما أميل إلى الثبات عليه، بعد أن رجعت إلى مدافن محلة السيد عاشور، حيث وجدت ذلك «الكوز» مطموراً تحت التراب، بجوار قبر السيد عاشور ذاته. ودليلي على هذا، أن السيد عاشور (تقدست نفسه الزكية)، أوصى قبيل وفاته: «الكنز الأزرق من حصة أبنائي وأحفادي». وكان يشير بذلك إلى «الكوز الشذري»، والتصحيف واضح لكل الذين لديهم خبرة في علوم الآثار..

(٢) أبو الفضل: هو عباس بن نعثلة (وقالت أمه: سميته نعثلة، حتى يعيش ولا

يموت مثل إخوانه الذين طاحوا من رحمي أمواتاً) بن علي بن أبو طين المكصوصي ، العلوي ، الفاطمي ، المحمدي ، الهاشمي ، كما ورد في الشجرة الشفاهية لعوائل محلتنا .

توفي عباس (والناس تعرّفه تحبباً وتقرباً من الإمام العباس بن علي ، قمر بني هاشم كما يصفه الرواة الشفاهيون لجمال وجهه) في أثناء مشاجرة في العاصمة بين فريقين متخاصمين ، لم يكن هو طرفاً فيها . وقيل إنه كان ابن الخامسة والعشرين ، في سنة تخرجه في مدرسة مارستان دار السلام ، فبقيت جثته مهملة على قارعة الطريق لثلاثة أيام انصرمن من شهر رجب المرجب ، حتى تطوعت زميلة له في المارستان ، وحملته على كتفيها ، وسارت حافية القدمين من دار السلام ، ثم ميسان ، مروراً بواسط ، وعلي الغربي ، وعلي الشرقي ، والكميت ، حتى وصلت إلى نهر الكحلاء . ومن هناك اكترت بَلَماً عشّارياً ، قادته بنفسها وهي في ملابسها البيض المعروفة لدى طائفة المندائيين . وما إن وصلت إلى يِشن الهور البعيد ، ذلك الهور بمائه الأخضر ، أوقفت زورقها عندد مرتفع طيني ، وأطلقت هلهولة طويلة ، فخرجت الخنازير من بين أجمات القصب ، وطارت الآفات بأجنحتها الضخمة في سماء الهور ، وناحت الجواميس ، وصرخت الأوزات السومرية البيض ، وعوت كلاب الماء طويلاً . وفي صباح اليوم التالي على هذا الاحتفال المائي ، قالت المندائية بدور للماء : «عمدنا يا أبانا ، هذا عباس زوجي» .

وتقول سليمة «كان منّان يزور مرقد أبي الفضل مع هبوط المساء في يوم الخميس ، ويبيت ليلته عند الضريح ، حتى ظهيرة يوم الجمعة التالي ، حيث يتوضأ ويصلي صلاة لا قبل لنا بها» .

(٣) قبيلتان شهيرتان وفدتا إلى ميسان في زمن غير معروف البداية ، دارت بينهما معركة قبلية بسبب طمع كل منهما بماء نهر الكرخة ، فكل حزب منهما يدعي ملكية النهر . وصارت تلك الحادثة ميقاتاً في تاريخ اليشن وما جاورها من

مدائن الماء واليابسة ، لأنها استمرت حولين متواصلين ، وقتل فيها خلق كثير ، ولم يقدر على إيقاف مجرى دماء أبناء القبيلتين ، إلاّ رجل جاء يسعى بقاربه من أعماق الهور ، فاحتكم إليه الناس ، فقبل بذلك :

«أو تقبلون بشرطي قبل حكمي ؟» .

«نعم ، أيها الغريب»

«لماذا تقاتل هابيل وقابيل ؟»

أدلى معرفو القبيلتين بأكثر من رأي ، والغريب بقي ساكتاً مثل جبل السُّروط ، حتى شبعوا وملّوا من الكلام الكثير ، وقالوا للرجل : «أيها الغريب ، قل لنا بالله عليك ، جواب مسألتك» .

«وسوس لهما البرتكيشي بن أريز ، ولسوف تشهدون العجب العجاب من رجل أخرس ذات يوم» . قال الغريب . وقبل الناس بما أفتى به الغريب .

ولكن هناك من يقول إن الفريقين بعدما شبعا وملاّ من القتال على دوام أشهر الحولين ، أراد الحكماء الذين بينهم التمسك بأي سبب يأتي من خارج تقاليد القبيلتين ، ليكون حدّاً فاصلاً بين الحرب والسلام .

أما سليمة ، فتقول : «الله هو الأعلم ، وعند بقيته في الأرض الخبر اليقين» .

الشارقة - ٢٠٠٨

السقَّاءُ الذي لا يَزالُ في حُلمِهِ الأبيد

«السيرة العربية لمولانا جلال الدين الهاشمي»

«أنا مُوجِدُني فَي أزَلِيَّتي ، وَتَوْحِيدي»
(«لوح المقالات» - شَمسُ ميسان الْبِشِني)(*١)

﴿الحمد لله رب العالمين﴾

وفدت على ميسان(١) عندما كنت في السابعة عشرة ، فأخذت أختلف إلى سوقها الكبير ، لأبيع البطيخ . كانت الناس في حال مَحْلٍ حينها ، فزهدت بحرفتي تلك ، لأن «البطيخ لأهل البطيخ» - كما يقول شريكي شمس الدين ، فلم أجد أفضل من التحول إلى سقاية الناس ، بعد أن استشرتُ غاوتاما غوبند - بينما

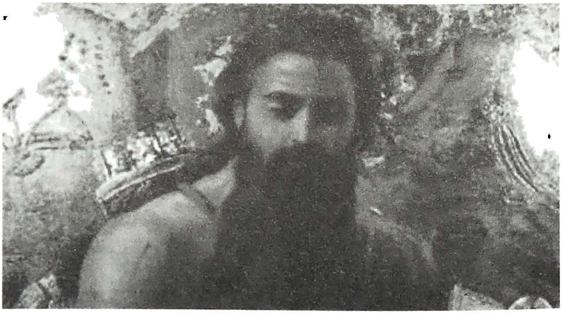

رائحته للعامة ، مثلما كانت ألسنة نسوة العامة اللاتي يرتدن السوق تردد هذه اللازمة . كما سمعتها من فم إيلياء العاقب شمس الدين ، الذي يشاركني اهتمامات لا عدّ لها ، كما لم أسمعها من غيره .

ثم إن الماء كثير ومبذول حول بلدتنا ، وهذا من نِعَم الله علينا وأَلطافه ، فاشتغلت بحمله إلى الناس في ساحة البلدة ، أو أطّوف به على عدد من بيوت العوائل الموسرة . كنت أضع الماء بعد أن انضحه من «كُوْد السَّادة» القريب ، في جردلٍ سويته من جلد سخلة عاش أجدادها على سفح جبل فليفلة ، وأنادي على السابلة : «من يرغب في ماء من بلاد كلها ماء؟» ، فيستجيب إليَّ بعضهم ، ويعرض آخرون ، بينما كان نفر من الصعاليك والنفّاجة يسخرون من دعواتي ، ويقولون للعامة وآل الشيصباني : «هذا رجل ما عنده عقل ، فكيف يقوم ببيع الماء وهو غير مسموح به شرعاً ؟ ومن يضمن أنه لن ينادي علينا لشراء الهواء ، أو النار ، أو الدِّهْلة ، في ميسان أو في غيرها غداً . وهذا غير مسموح به شرعاً ؟» .

النوكى يبقون نوكى متحامقين ، ولو جلسوا على كرسيّ الإمارة . وهكذا هُمُ كلماتهم ، فالبشريُّ لسانه . أنا لا أبيع الماء ، وإنما أسقي الخلق . قال لي شريكي : «ستجد رزقك في كوخك ، يا شمس ميسان» .

ولم أكترث لهؤلاء المهرجين والنفافجة والحمقى والنوكى ، (حسب سُلَّم الطبقات والفئات الذي وضعه أمير سيفستان هَفاف بن تولون الشيصباني ، للمجتمع الميساني . وهذا سُلَّم متطور ، ورثه هفاف عن كبير أجداده المعروف باسم «زَلْنَبور الأَعْوَر») ، ولكنني شعرت بحسرة عندما أطلقوا عليّ كنية جارحة ذات صباح . قال

كبيرهم الذي علمهم الهَرْج والمَرْج : «هذا هو طه بن عبدالله أبو البدع» . فسرى ذلك في البلدة ، سريان النار في هشيم تذروه رياح شرقية ذات يوم صيفي . وأخذ الصبية ، وحذا حذوهم صغار العقول ، ينادون عليَّ : «طه ، يا طه يا بُو البِدَعْ» .((**حاشية من الكاتب** : «كبيرهم الذي علمهم الهَرْج والمَرْج ، هو «ابن الخاركي» ، الذي لا يَبزّهُ في نفاجته إلاّ «محفوظ النقاش» الذي أورد حكاياته «الجاحظ» في كتاب «البخلاء» . وعندما سخر مني ابن الخاركي بقوله «أُدعُ ربك ليأتي بالشمس من المغرب إلى المشرق ، إن كنت من الصادقين ، لم أكترث لسخريته ، وفساد قوله)) . . . .

. . . ولم أكترث لهذه الكنية أيضاً ، لأني اخترت أن أجعل من الألم نقطة أعرج منها إلى فهم وتجاوز ، كثير من الحالات المؤلمة والصعبة . وهذا ما أملاه عليّ شريكي ، في وصية له بعد أن فقدت أي أثر له في أصقاع مدينتنا(٢) . قال زارا غوبند شمس الدين (وهو شمس ميسان ، كما أرغب في مناداته) ، عندما نادى عليّ للمجيء إلى كوخه ، عقب اثني عشر شهرا على وصولي إلى هذه البلدة (التي سميتها سيفستان أيضاً) : «اسمع مني يا شمسنا . أنت في هذه القرية ، أو في غيرها من القريات والأمصار ، ستحيا غريب الروح والبدن ، وسوف تتعرض إلى سخرية الجمهور وتنفجاتهم ، وهذا ما سيجلب لك ألماً وحزنا وسعادةً ، ويجعل حياتك مرجلاً في وادي «جوهانم» التي تحتها نهرك الذي من الكوثر(٣) ، فإذا ما أردت أن تعيش في غرفة(٤) تتوسط حديقتنا ، حوِّل آلامك إلى سعادة وشوق إلى الأمل»

«كيف ؟»

«لا تغضب» .

«وماذا غيره ؟»

قال شمس ميسان : «لا تغضب يا شمس شموسنا» .

«وماذا بعده ؟» .

قال شمس الدين : «لا تغضب ، واصبر» .

«أصبر؟» .

قال شمس الشموس «نعم ، يا شمس العناصر الأربعة» .

«علمني؟» .

قال المعلم : «الصَّبْرُ صَبْران : صَبْرٌ عَلى نَفْسِكَ ، وَصَبْرٌ عَلى مَنْ هُم خَارج نَفْسِكَ وَجَسَدكَ» . ومع الأيام ، وتقلبها ، وتداولها بين الأنام ، جعلت جسدي حديقتي ، وقلبي غرفتي ، وكوخي كوني بحافاته غير المنتهية . واوصاني شمس الدين ، . قال : أوصاني المعلم شمس ميسان ، قال : «إلزمْ بيتك بُعيد مغيب الشمس ، وراجع نفسك ، بُعَيدَ كسرات خبز العشاء ، عن كل كلمة نطق بها لسانك ، وكل عمل قامت به جوارحك ، وأي فكرة أبقيتها في سريرتك ، ودوِّن ذلك تدويناً ، إنَّ الخَطَّ كان مَحموداً» .

قلت : «معاً على السمع والطاعة» .

ثم أخذت ألوذ في كوخي عقب غلبة الخيط الأسود على أخيه الخيط الأبيض ، بعد أن أجد أداماً وكسرات خبز من دخن في بطن جردلي ، ثم أبدأ بتلاوة أورادي وأحزابي وأدعيتي وألواحي ومزاميري وآياتي ، حتى أصل إلى شاطئ الرضا ، فتنقلني سفينة الرحمة إلى عالمي اللاّمحدود .

وفي ذلك العالم ، تعرفت أكثر فأكثر إلى هَفَاف بن تُولُون ، بأسمائه التي لا يعرفها غيري ، وبصفاته الخمس(٥) ، بينما كنت أشاهد جسدي خفيفاً وشفيفاً ، وأرى ميلاد نجوم جديدة ، وأشهد

على موت الكواكب الهرمة ، وفوران التنانير في عوالم بعيدة أو مجهولة لدى عوالم الكائنات ، حتى راقني هذا البرزخ ، فداومت على تمرينات ومجاهدات ، كان المعلم شمس الدين ، يزقها في قلبي ، كما تزق الحمامة الحبّ لفراخها .

قال المعلم شمس الدين : «سيرى الناس دمك ينساب في عروق جسدك» . ولقد وجدت نفسي تحصنت في ليلي الطويل الطويل ، وأنا أحمل جردل الماء من الترعة إلى بيوت البلدة ، حتى حاول ذلك المخلوق الذي سوف أشير إليه باسم : مَيطَرون . . . اقتحام صمت عزلتي ، فطرق باب كوخي ، وقال : «يا طه ، يا من تسمي نفسك : العاقب شمس الدين : أنا حَيْزَبُ الأجْدَعُ» .

قلت له : «أنت تريد مناظرتي ؟» .

«نعم» .

«في أي مسألة ؟» .

«ربك» .

قلت : «الباب مفتوح» .

رأيت حَيزَب يتوسط كوخنا ، كأنه هبط علينا من علو شاهق ، فتبسم المعلم شمس الدين ، وقال «هو لك ، يا روحي» .

سألت الأجدع : «قلت : نفسي ؟» .

«سمّه ما شئت ، نعم . ولكن صفه ؟» .

قلت : «حُبٌّ أحَدٌ ، أحَدٌ حُبٌّ» .

«وبعد ؟» .

قلت : «حبٌ صَمَدٌ ، حُبٌ لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَد ، حُبٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدْ» .

انطلقت صرخة غاضبة من حَيْزَب الأجدع ، فرأيت سقف

الكوخ يتطاير في الفضاء الشاسع ، ثم قال : «وبعد ، يا أبا البدع؟» .

قلت : «حُبُّ الرحمنُ ، الرحيمُ / حُبُّ ملكُ الزمن ويوم الدين / حُبُّ الذي ليس كمثله شيء / بينما هو يُدركُ كلَّ شيء / ولا يُدركهُ أيّ شَيء / حُبُّ الذي احْتَجَبَ بذاتهِ عن مخلوقاتهِ / وتَجلَّى لهم بصفاته/ حُبُّ الذي أرسلني إلى هذه البلدة المارق أميرها لأسقيهم ماءً / وأبارز رئيس مجلس علمائها الظالم لعباد الله» .

«وهل رأيت ربك ؟» . علا صراخ الأجدع ، :

«يا أجدع ، حبيبي تحت جبتي» .

أطلق الزائر المهزوم صرخة عظيمة ترددت في الآفاق التي يراها البشريون ، ثم انفجر جسده في فضاء الكوخ ، فقال شريكي : «يا شمس ميسان ، تجاوزت الاختبار» .

قلت : «أيها المعلم . . وماذ بعد هذا؟» .

قال : «انظر إلى عروق كفَّيك» .

ورأيت دمي ينساب في عروق كفيَّ ، فقلت : «زدني» .

قال : «أعلنِ أمركَ أمام الناس ، عند ميدان البلدة ، عندما يؤذن المؤذن لصلاة الظهر» . ثم استدرك المعلم : «عليك أن تحمل زقّاً من خمر ، وتنادي : «من يشاركني كأساً من خمرتي التي ليس كمثلها خمرة؟» .

«أيها المعلم ؟» .

قال شمس الدين : «هكذا يا طه ، صدقك الناس أول الأمر بالاتباع والتقليد . أمّا ما بعد يوم غد ، فَستَتَشْخَل الناسَ ، كما تمخض الزبدة من اللبن» .

واقفاً في وسط الساحة ، أطلقت نشيدي . . .

((. . . ورأيتني أخرجُ من سمّانة قدم أمي اليمنى ، كما يخرج النهار من الليل . كان عبدالله في طَرَشَة بعيدة عن بيت أمي ، وشاهدته يُقتل بين بيت إيلياء وبكَّةً . قتله بدو وأعراب أرادوا سرقة راحلته ومتاعه : «كمن الأعراب خلف أجمة ، قرب بئر . كانوا أربعة رجال من قبيلة شيصبان» ، وعندما نصب خادمه خيمته إلى جذع شجرة سدر قريبة من البئر ، هجع عبدالله قبيل منتصف الليل ، ثم انخرط في رؤيا - رآني أسقط من سمانة ساق أمي اليمنى ، فنادى عليَّ : «أهلا بك يا طه ، وشمس ميسان» . وبعد ذلك رأيت واقعة الغدر به . كان عبدالله لا يزال في رؤياه ، عندما هجم عليه الأعراب الأربعة ، فجلس أحدهم عند ساقيه ، بينما أمسك اثنان منهم بيديه . أما الرابع ، الذي سيعرف بـ«الشيصباني» ، بعد قرون جنوبي بابل وشمالي ميسان ، فقد شق صدره بخنجر مسموم ، واستأصل قلبه ، وأخذ يلوكه بين أسنانه ، ثم بصقه على الأرض ، بينما كان دم القلب يعفر صدر عبدالله ، الذي بزغت منه شمس حمراء .

كان والدي يحدس أن شمساً جديدة ستشرق على بلاد ميسان ، فتبع الهاتف الذي كان يهمس في فؤاده : «هل تريد رؤية شمس الدين؟» . وكان عبد الله لا يعرف إلا قليلاً عن حبيبي الفاتن الذي ادخرني له ، بين مصرعه وطلق أمي . قالت أمي : «التجأْت إلى نخلتي ، فهبطتَ من سمّانة ساقي

اليمنى كما يخرج النهار من الليل» ، وقلت لي : «يا زهراء ، دعيني أواجه حبيبي في هذه الساعة» ، فهبط الملاك ذو الأجنحة الاثني عشر ، وشق صدري ، وأخرج قلبي ، وانتزع علقة منه ، ثم قال لي : «اقرأ يا شمس ميسان» . فقلت «كيف أقرأ وما أنا بكاتب ؟» . قال طاووس الأنوار : «يقول لك حبيبك : أنت قارىء» ، ثم خلاّني لأمي المرتبكة وهي تنادي عليَّ «ماذا أسميك ؟» . قلت «هُوْ سَمّاني طه ، والمعلم ، وشمس الدين ، . . . . و«هُوْ» .

ثم أرسلت صوتي إلى الوجود .)) . . .

. . . ورأيتني أستمع إلى صوتي ، بينما كنت أقف عند الساق اليمنى من كُرسيٍّ : «إنني ثَمِلٌ اليوم ، ثَمِلٌ بحيث لا أستطيع أن أُميِّز بين النصر والفيروز» /«إن كل طريق بلزمه مرشد يقظ ، وفي هذا الطريق لا دليل إلاّ المجنون» /«فإذا كان ذلك المجنون حيّاً قُل له : تعال إليَّ وتعلم منِّي الجُنونَ النّادرَ» /«وإذا أردتَ أن تُصبحَ مَجنوناً ، فَطرِّز صُورةً تُشبهني عَلى ثَوبكَ» .

كان زقّ الخمرة ملتصقاً بصدري ، وأنا أتقدم نحو ساحة البلدة التي أعرفها ، ويعرفني ناسها ، معلناً أمام السابلة : تعال أيها الحبيب : «ضع يدك على قلبي . . ولا تسل عن هَمِّ الحبيب ، وانظر في عينيَّ ولا تسل عن الخمرة والكأس» .

٢ ـ يَومٌ في شَهرِ رَجَبِ المُرَجَّب

كنت قد غادرت كوخي ، وحيداً إلاّ من زق الخمرة ، وكلما مررت على شجيرة أو حائط أو كوز ماء أو كانون نار ، كان يقول لي :

«السلام عليك يا شمس ميسان» ، والناس من خلفي وبين يدي ، وعن يميني وعن شمالي عزين .

كان ذلك في اليوم السابع من شهر رجب المُرَجَّب ، حيث رأيت المشهد الذي اختصني به حبيبي ، في رؤيا صاحبي إيلياء يعرج إلى السموات ، منطلقاً من صليب الخشب الذي جرى بناؤه على عجل في تلك الليلة التي سميت «ليلة الشيصباني» . لكن ما جعلني أشعر بحلاوة السُّكر ، ليس الخمرة التي في الزق ، وإنما رؤيتي لشريكي غاوتاما غوبند يقف بجواري ، وهو يقول لي : «يا شمس ميسان والدين ، إني أبايعك أُمَّةً على كل الأُمم» .

«مدّ يدك يا شمس الوجود» . صافحني شمس الوجود بكفه اليمنى ، فرأيت وجهي في وجهه ، وكفي اليمنى في كفه اليمنى ، وجسدي كله في جسده كله . صرنا واحداً في واحد .

قال شريكي : «أنت الجُزَيء الذي لا يتجزأ» .

«وأنت ؟» .

«أنت» .

ثم رأيتني أخاطب الناس : «أيها الناس . . .
لا سُكْري يَضيقُ بِيْ .
ولا ضَجري ،
يختارُ هجراني .
لا نُوري ،
لا دَلالي ، . . يفارقني .
وأكواني ،
لا تَسْتطيعُ نِسياني .
وحَذْي ،
حيثُ لا أحدَ سواي ،
في كلٍّ أزماني ،
أُهاجعُ مَللي ،
لينساني .

فتعالَ إليَّ ، يا خَمْرتي ومائي
نذوبُ
في الكأْسِ

كأْسِي الأرضُ ، .
وها أنا ، حيثُ لا أَحَدَ
قبلي ، أو بعدي ،
وردة فوق عرشي
يا عَرْشي ومائي
أحْلُمُ بِي ،

كما يحلم
الخمرَ بالماءِ . .»

. . . ، ثم رأيتني أرى إِيّاي في إِيّاي ، والناس بين مفزوع وساخر وحائر ومصدق ، وأنا لا أزال أكلم الناس بنواياهم ، ويكلمني الرُّضَّعُ وهم في مهودهم ، أو عند صدور أمهاتهم ، فكان ذلك يزيد الناس خوفاً وهلعاً وحيرة وتصديقاً .

وما زاد في هذه الحالة المربكة ، أن سباعاً لا قبل للناس بها ، أخذت تظهر في الساحة ، وطيوراً من غير أجنحة حطت عند مركزها ، ومطايا من حديد وخشب توقفت هناك ، وكائنات على أشكال ثيران وجواميس وأسود وسباع بأجنحة ، وزواحف ودواب بأرجل كثيرة ، اندفعت نحو الساحة من داخل الأرض أو هبطت من أعالي السموات ، وأخذت تتقدم نحوي ، تتشمم قدميَّ ، أو تطلب بألسنة لا قبل للناس بها ، تسألني رشفات من خمرتي .

سمعت بازا تتحدث إلى أبناء عشيرتها : «من هذا المتكبر علينا . أَيْ وسرّي ، لسوف أمتحنه في أمر نفسه» .

فقلت مخاطباً تلك الباز : «اسمع يا أبا الأشعث . . يصفك الآدميون بأنك «من أشد الطيور تكبراً ، وأضيقها خلقاً ، وأنت البازي ، والباشق والشاهين ، والبيدق ، والحدأة ، والصقر . حارة المزاج ، لا تصبرين على عطش» .

بهتت الباز ، وخاطبتني : «وما أدراك في شأني هذا ، المصموت عنه أبداً لغيري ؟» .

قلت : «وهل أحدثك في شأن أحد أحفادك ، مع تلك المسألة البحرية ؟» . خَرَّت الباز ساجدة عند قدمي ، ، بينما تجمعت أمم المخلوقات الطائرة والدابة والمركوبة ، الناطقة والخرساء ، لأنها

استمعت إلى كلماتي بلغة كل أمة من أممها ، حتى حدث هرج ومرج ، وذهول وبكاء وعواء ، فأقبل هفوف بن تولون ، محاطاً بأبناء قبيلته ، الأحياء منهم والأموات ، متبختراً في مشيته ، مزهواً بأسلحته ، لكأن الأرض تميل إلى الشمال ساعة يضربها بقدمه اليسرى ، أو تتجه إلى اليمين عندما يتجه يميناً .

ناديته «يا هفوف . . جئت تباهلني» .

«نعم ، يا طاها» .

قلت : «انظر إلى جبل السَّرُوط خلفك» . صار الجبل عهناً منفوشاً ، عندما تجليت لنوري . فخرّ ساجداً صاغراً ، قلت : «وعزتي وجلالي ، وارتفاعي في مكاني ، لأجعلنك عبرة لغيرك ، ولسوف ترى من مخلوقي الذي يشبهني فيوحدني ، فأزكيه ليكون كما أنا . ثم تراك مهزوماً مدحوراً ، وأنت تطلب مناظرته» .

هرب هفوف ، فأرسلت إليه كلماتي : «إنك حيّ حتى يحين اليوم الموعود ، حين يقتلك أحد تجلياتي ، فيعم السلام أرضوني وسماواتي ، بعد أن يملأهما أحفادك ظلماً وجوراً» .

٣ ـ اليقظة السكرى

إنَّ سرَّ العقل يبدو في الجنون / أنا حولتَ طيني إلى جوهر/ ومن غباري شيدت الأكوان / أشرقتُ بنجمي عليَ / صارت كل الشموس غباري في راحتي اليمنى/ هذا هو ديني ، يا شمس ميسان/ فأنصت للناي يتلو حكايتي .

والآن . . ليس في ملكي غيري / بعدما شاءت قدرتي /
أنا شمس ميسان ،
والمعلم .

أنا طه ،

وأقنعتي التي عددها لامنتهاي .

أخذ السكان ينفضون من حولي ، واحداً بعد الآخر ، وكردوساً بعد كردوس ، فلم يبق معي في ساحة البلدة ، إلا شمس الدين ، وشمس ميسان ، وطاها السقاء ، وأنا .

ثم رأيتني أشبهني .

---

(١) ميسان فُصٌ من عقد عدد حباته اثنتا عشرة يحيط باليشن . والراوي هو المواطن اليشني : «ع ـ التستري» كما يعرف القراء النابهون ، وهو الذي تعرض إلى عمليات قتل متعددة ، ثم كان ينهض من رماده خلقاً جديداً ، كما ينهض الخمر من العنب .

(٢) بعد سنتين على لقائنا أنا وشريكي ، كنا نجلس داخل كوخنا ، نتناول كسرات من أقراص دخننا . قال لي شمس الدين : «يا شمس ميسان وهُوَ : «لا يعرف القوم ما بين يَحْيى وعِيسَى . لقد اكتملت رسالتي اليوم ، ورضيت بك» . قلت : «أنت جنتي» .

ثم نظر في عينيَّ فرأيتني أعرج إلى السموات ، متجاوزاً «رقيع» ، ماراً بـ«قيدوم» و«ماروم» ، حتى ارتقيت دُرَّتي «العجماء» ، بينما سمعت جلبة عند باب كوخنا ، وصوتاً ينادي عليَّ «يا طه أبو البدع ، أخرج لنا شريكك ؟» .

خرجت إليهم ، فرأيت مسوخاً ، فرزنت من بينهم صوت عزازيل الحارث ، وخلفه رهطه المتناسلون ، ومنهم الخمسة الكبار في مجلس المدينة ، وصاحب الشرطة ، ورئيس البريد .

قلت : «يا عزازيل الحارث ، أنت مرجوم إلى يوم دينونتي . فاخرج من كوخنا» .

قال الحارث : «يا شمس ميسان ، يالواحد من غير عدد ، أنظرني إلى يومك ، لأَنتقمنَّ من طه شمس الدين ، وأَغويُّ صحبه» .

قلت : «أُخرُج فأنت من المُنظَرين» .

ورآني المعلم من داخل حزام الوجود الذي سميته «عروساً» ، متفرغاً لنا في ياقوتتنا الخضراء .

وعثرت على مجلد من قراطيس كثيرة مكتوب عليها نحو اثنتي عشرة ألف ترنيمة ، وعلى وجهه الأول هذه النصيحة : «يا صاحبي ونور عيني : ضعني بين عينيك ، وافضحني عند السوق ، حتى يراني الملك والجلاد والمفتي والفقير» .

وكتب إليّ ورقة عنوانها (هذا موتي) ورد فيها : . . في يوم موتي . . عندما يُشَيَّع تابوتي/ لا تظن أني أتألم من أجل هذه الحياة / فلا تبكِ من أجلي . . ولا تقل : خسارة . .خسارة/ فالحياة هي سقوطك في شراب الشيطان الحامض / وعندما ترى جنازتي . . لا تقل : الفراق . . فالوصال واللقاء لي في ذلك الزمان / وعندما أودع في قبري لا تقل : الوداع . . الوداع . ./ لقد رأيت الغروب . . فانظر إلى الشروق ، فلماذا يكون غياب الشمس والقمر خسارة . / إنه يبدو لك غروباً لكنه شروق ، واللحد يبدو سجناً لكنه خلاص الروح . / فأيّ حبة غرست في الأرض ولم تنبت ، فلماذا ظنك هذا بحبة الإنسان؟! / وأي دلو أُدليَ ولم يخرج ممتلئاً ، في بئر يوسف / فلماذا تفرح الروح؟! / وما دمت قد أغلقت فمك ، هنا افتحه في الطرف الآخر/ فإن صيحات وجدك تكون في جو اللامكان» .

(٣) وهو الكوثران ، كما ورد في «لوح المقالات . نهر من الخمرة التي تجعل المخلوقات النورانية ، تليق بالجلوس حول كرسيي» . وكان في زق طه السقاء غرفات من خمرة هذا النهر . وهكذا رأيت المخلوقات سكارى ، رجالاً ونساءً ، شيوخاً وشيباً وشباناً ، في ذلك اليوم العظيم . وهو ما أوغر صدر الحارث ورهطه عليٍّ وعلى شريكي .

(٤) «قبتنا ، حيث الصمت ، في ياقوتتنا العجماء» .

(٥) الأول في هؤلاء هو المدعو «أَبليسيوس» ، وهو «عزازيل الحارث» عند العرب .

ورهطه كثيرون . ومن أبرزهم :

- مقلاص : كاتب الإمارة لشؤون الخزانة .

- لوقيس : رأس الإمارة لقضايا المعرفة الحسية .

- مطراش : كاتب الإمارة للفتن .

- مرجوم : اسمه يدل على فعاله .

- نازغ : كاتب الإمارة لشؤون الحرب

- شيتون : الكاتب المختص بالعسِّ والدسِّ .

—

- لوح المقالات : مخطوط محجوب حتى يوم الناس .

(الكاتب) .

- تتضمن القصة نصوصاً من شعر مولانا جلال الدين الرومي ، وأخرى من أعمال الكاتب الروائية والقصصية ، وتناصاً مع محمد إقبال ، ومأثورات من الديانات السماوية والأرضية .

الشارقة

المُنتظر

عند غرة شوال . يحدث هذا للمواطن عبدالله الفقير . في اليوم الأول من العيد : يجلس على بساطه الأثير ، في غرفة صغيرة ، ثم تدخل ابنته الكبرى خديجة ، وبعدها الوسطى عائشة ، ثم الصغرى مريم ، بينما كان تغريد عندليبه يصل إلى سمعه من شجرة السدر المجاورة .

كان قد فَقَدَ زوجته زهرة ، وهي تضع ابنته الثالثة . قال لنفسه : «لكلٍّ أجله» . وطوى جناحيه على حزن أبيد . فقد كانت زهرة بنت محمد المشكور ، زوجة صالحة ، ورفيقة درب صبورة ، وحزام ظهره في وقت المُلمّات . قالت له وهي تحتضر : «أبا خديجة ، سأغادرك بعد قليل . وربما تراني . لكنك ستراهُ ذات يوم في عيد ، يدخل إلى حجرتنا ، وسيأخذك إلى حضرته ، وحينها ستشم عطر الفراديس» .

ومرت سنوات وسنوات . كَبُرن البنات ولم تجد أي منهن نصيبها . وكان يردّدُ مع نفسه : «سيأتي الموعود إلى بيتي ، وسيزيل الحزن من جباه البنات» . لكنه لم يصل بعد .

قالت خديجة : «يا أبانا ، لا تقنط من روح الله» . وقالت عائشة : «إنما المرء للمُلمّات» . وذات ليل ، في عمق ليل ذلك الليل ، سمع صاحبي المواطن عبدالله الفقير ، صوت مريم ينشج : «اللهُم أحْيني مسكينة ، وأَمْتني مسكينة ، واحْشُرني في زُمْرة

الفقراء . اللهُم اجْعل رزق آل عبدالله الفقير ، كفافاً» .

سمع أبوها صوتاً عميقاً ينبعث من ذلك الليل العميق : «مريم ، يا مريم ، ما الكفاف؟» .

«جوُعُ يوم ، وشبعُ يوم» .

دخلت مريم إلى غرفة والدها ، فوجدته ساهماً ، وبين يديه رزق لم تشهد مثله أبداً ، بينما العندليب الأكحل يفرش جناحيه في فضاء حجرة تضاء من كوكب دري .

«أبتاه ، ما هذا؟» .

«يا مريم ، كان المنتظر عندنا منذ هنيهات» .

مكة المكرمة

ملحق

أبولينير القصة القصيرة

عصام محفوظ

أما اللعبة الشكلية المتطورة جداً فصاحبها العراقي جمعة اللامي ، الأول الذي يحاول أن يكتب كما كان أبولينير يكتب بعض شعره ، أي يستغل الإمكانات التصويرية للتأكيد على معنى يدرك هو أن الكلمات المصفوفة في ترتيب ، قد لا تؤكده في القوة نفسها التي يريد . وهو ما يسمى في الغرب ((كاليغرام)) .

إنه يقول مثلاً ، في قصة بعنوان ((سعادة)) من ثلاثة مقاطع على شكل ثلاث زهرات :

((اذهبوا إلى قبر الرجل المدفون في مدينة النجف . ثم ابدأوا بالندب . ولكن ثمة في الأفق من يعلن أن الجديد القادم يكتب تاريخ الآتين محملاً بالحناء وطعم قصب السكر .

قد تعني هذه الكلمات في شكلها العادي ما تعنيه ، بدءاً من مدلولات مباشرة . لكن اللعبة الشكلية التي قدم جمعة اللامي بها الكلمات من خلال تقطيعها و ترتيبها على صورة زهرة ، أتاحت متنفساً تعبيرياً جديداً ، تماماً كما يتاح للنص المسرحي هذا التنفس من خلال الإخراج على الخشبة .

وهكذا بالنسبة إلى لعبة المسدس حيث جملة واحدة يعيدها كل مرة ناقصة كلمة . فإذا شكل المسدس وتآكل الجملة المتزايد

يعطيان معنى إيحائياً لا يتوافر عن طريق الكتابة التقليدية .

جمعة اللامي ، الأول ليس بين كتاب القصة العرب ، بل بين كتاب القصة في كل مكان كتب القصة بهذا الأسلوب .

جريدة النهار / بيروت

١٩٧٠

الليل في غرفة الآنسة «م»

حين طلع الفجر، لملم الليل نفسه ودخل غرفة الآنسة (م) التي كانت منطرحة على فراشها تمارس هواياتها الصباحية بانهماك حاد، الأمر الذي جعلها تركز بصرها على نقطة سوداء في سقف الغرفة، بحيث إنها لم تسمع حفيف أقدام الليل الذي أخذ مكانه بالقرب من سريرها. أي إن المرآة الكبيرة ذات الإطار الخشبي الأسود المنتصبة قرب الباب كانت تظهرها بصورة واضحة.

كانت الآنسة (م) عارية، وفوق سريرها الأخضر تمددت على شرشف أحمر مطرز بورود سوداء وزرقاء.

وإذ نظر الليل إلى المرآة شاهد يدها اليمنى منشغلة بإمرار وشاح حريري أحمر بين فخذيها. وهذا هو بالضبط ما جعله يتأنى في إلقاء التحية عليها.

من الخارج تبدو غرفة الآنسة (م) كأية غرفة عادية. غير أنها من الداخل تكاد تكون غريبة عن الغرف التي تقطنها الإناث: فوق المرآة التي تحاذي باب الغرفة صورة لنمر صغير يحاول أن ينزوي على أمه، فوقها تماماً لوحة مستطيلة (٣×٥) لإنسان برأس كلب يحتضن دمية كبيرة على هيئة فتاة في حوالي العشرين من عمرها، منطرحة على وجهها وتئن تحت ثقل الإنسان الذي برأس الكلب.

كان طلاء الغرفة - من الداخل - قديماً بعض الشيء، إلا أن هذا لم يثر لدى الآنسة (م) أي مشروع بإعادة طلائها من جديد.

لأنها كانت تعرف أن مجرد إبدال، أو تجديد، طلاء الغرفة يسيء إلى اللوحة الجدارية التي كانت مرسومة على جدار الغرفة الذي يلتصق سريرها به: واللوحة الجدارية عبارة عن فتاة منطرحة على وجهها قرب جدول صغير، وعنكبوت كبير الحجم يقعي على ظهرها ويمد أحد خراطيمه في ثديها الأيسر. وكما يبدو فإن فتاة اللوحة الجدارية نشيطة، رغم الألم الذي تعانيه.

واستمر الليل يجيل بصره في الغرفة، لقتل الوقت ربما، أو لأنه لا يريد إيقاظ الآنسة (م) التي أخذت في هذه اللحظة بالذات تصك ركبتيها بقوة وتسحب الوشاح الحريري الأحمر من بين فخذيها ببُطء.

لحظات قليلة مرت ارتجفت بعدها الآنسة (م) وأطلقت زفرة عميقة ثم انقلبت على وجهها، وأخذت تتنفس ببطء، تحت العنكبوت الذي كانت عيناه في هذه اللحظة تنظران إلى عجيزتها بانبهار.

وظل الليل على موقفه السابق. لم يرد التحدث إليها. أما الآنسة (م) فهي في ما يبدو قد انتبهت إلى حضوره مؤخراً. إلا أن الليل وهو يشاهد العنكبوت الذي أقعى على ظهر الفتاة تململ في مكانه:

- وصل النهار.

قالت الفتاة: أرجو أن تسكت الآن. أنا أعرف ذلك. دعني أكمل البرنامج.

قال الليل: لكنه فظيع أن أظل صامتاً كما تعلمين.

قالت الفتاة: سينتهي بعد قليل، ومن المستحسن ألاّ أتكلم كثيراً، فهو يكره الكلام في أثناء العملية.

قال الليل : لكنه انتهى وصعد إلى الصورة .
قالت الفتاة : لا أعتقد ذلك . إنه فوقي تماماً .
قال الليل : هذا صحيح إذا افترضنا وجهة نظرك .
قالت الفتاة : لقد انتهى فعلاً في هذه اللحظة .

ولاحظ الليل أن العنكبوت بدا منطفىء العينين ، إلا خرطومه فقد كان مصلوباً على ظهر الفتاة وإبطها ، في حين بدت عيناه تنقطان دمعاً . أما الآنسة (م) فقد كانت تنهنه بصوت خافت ومسحت دمعتين من عينيها ثم استدارت صوب الليل .

«أعتقد أنك حضرت منذ ساعة . . لقد نبهني إليك» .

قال الليل : كنت أراقب النمر الصغير . منذ سنوات وأنا أراه بهذه الهيئة ، وكأنه لم يكبر أو ينمو . في حين أن أمه ازدادت ثقلاً .

«لقد نما بصورة ملحوظة خلال الأشهر الأخيرة من السنة الماضية . أنظر في عينيه : أليستا جميلتين؟؟» .

أخذ النمر الصغير يحرك يديه الأماميتين على عجيزة أمه وظهرها . وشاهدته الآنسة (م) وهو يحيط بطن أمه ويحتوي بفخذيه مؤخرتها ، فظلت مشدودة إليه وتتكلم مع الليل بصوت خافت .

«البارحة حاول أن يصل إليها ولم يستطع . حاولت مساعدته فلم أفلح . إلا أنه اليوم ، هذا الصباح بالذات نجح وفاز بهذه الأم الجميلة» .

كانت النمرة باركة على رجليها الخلفيتين ، منشغلة عن نفسها ، منهمكة ومأخوذة بالدبيب الذي كان يسيطر على عجيزتها وفخذيها وقدميها الخلفيتين . لذلك فقد أدارت وجهها صوب الآنسة (م) وأخذت تفتح فمها وتغلقه ، فيما كانت سيول لعابها تتساقط على أرضية الصورة .

أما النمر الصغير، والذي أصبح كبيراً الآن تقول الآنسة (م)، فقد أنهكه التعب في ما يبدو، إلا أنه حاول مرة أخرى وسيطر سيطرة واضحة على جسد أمه، ثم اهتز للحظات عدة وسقط على الأرض.

عند هذا أحنت الآنسة (م) رأسها، والليل منطرح إلى الخلف قليلاً يتمتم وحده.

«لقد هدأت الآن. ألا نستطيع الحديث؟» قالت الآنسة (م).

«عن أي شيء؟».

«عن أي شيء، المهم أن نتحدث».

قال الليل: قبل ساعات، كعادتي كما تعلمين، كنت حاضراً مع الناس، فشاهدت الملايين يموتون بشكل غريب - كانت الجرائم موجودة، وأذكر أني شاهدت أحدهم يقتل شقيقه بضربة فأس على رأسه، ثم يضعه في الفرن الذي يملكه.

«وهل جاءت الشرطة إلى مكان الحادث؟».

«هذا ما حدث، وقبضوا على القاتل الذي كان يقف أمام باب الفرن يدخن سيكارته بكل هدوء».

قالت الفتاة: تستطيع أن تصف القاتل؟

«إنه كأي قاتل».

قالت الفتاة: يخيل إليّ أني أعرفه.

«أنا أعرفه منذ أن رفع الفأس وحطم جمجمة شقيقه. وأعتقد أني لربما شاهدته في أحد معارض الفنانين التشكيليين الشباب».

قالت الفتاة: ألم أقل لك. إني أعرف القتلة. إنه متوسط القامة، على عينيه نظارة خضراء. أصابعه رفيعة، خصل شعره داكنة السواد. أنفه طويل. أسمر. بلا شوارب.

«إنه هو تماماً» . .

قالت الفتاة : لقد رأيته في معرض (عبدون علي) الذي أقيم في قاعة كولبنكيان قبل سنة . ولكن قل لي : هل أنت وأنا ، نعد من القتلة؟

«لا أدري . إننا لا نقتل أحداً ، كما تعلمين» .

وفجأة أحس الاثنان بالضجر . ربما لأنهما أدركا أنهما أصبحا جدّيين . فقامت الآنسة (م) من الفراش واتجهت صوب المرآة . كانت عارية أمام المرآة ، والليل ما يزال منطرحاً إلى الخلف على كرسيه ، يراقب العنكبوت الذي أخذ يكبر شيئاً فشيئاً ، حتى مد خرطومه إلى عنق الفتاة ، فأراد الليل أن يتكلم :

«هس» ، قالت الفتاة «إنه يعمل الآن» .

أغمضت عينيها وأخذت تتراجع إلى السرير واستوى العنكبوت على ظهرها ، فأخذت تتأوه وتبكي ، وتتأوه ثم تبكي ، وهو مستوٍ على ظهرها يغرس خرطومه في حلمة ثديها ، فيما بدت عيناه كجمرتين من حجر بركاني .

بعد لحظات ، جلست الآنسة (م) على الأرض المغطاة بنوع من القطيفة السوداء ، فمد الليل أصابعه نحو شعرها .

«لقد تعبت هذا الصباح» .

«وأنت ، ألم تتعب . .؟» .

«نعم ، تعبت هذا الصباح» .

«حسناً . . إنها مشكلتنا إذن» .

«لكنك أرهقت جداً» .

«لا يهم . هل رأيت (ن) البارحة؟» .

«كانت في دار للسينما ، بعد أن خرجت من بيت السيدة

«فضيلة عبد الصدوق» بصحبة رجل يشبه القتلة : شاب في حوالي الخامسة والعشرين ، أسمر ، بلحية شقراء ، ويقال إنها مستعارة من أحد كتّاب المسرح في هذه المدينة» .

«عرفته : إنه الكاتب «ايدوش هانك» الذي يمثل أحط نوع من الثقافة في أدب هذا الجيل الشاب» .

«إنك تعرفينه؟» .

«طبعاً أعرفه . إنه يلهو مع البنات . أسمع عنه أنه لوطي لكنه لا يمتلك صفات اللوطيين» .

«حقاً . .» .

«نعم . وقد سبق له أن أرسل لي رسالة مطولة يدعوني فيها للهرب معه إلى تنجانيقا» .

«وهل قبلت؟» .

«طلبت منه الحضور إلى هنا ، فجاء مع الآنسة (ن) ، ولما شاهده النمر الصغير اقترب منه وحك بوزه على عجيزته ، فخاف هذا الكاتب وخرج من الغرفة هلعاً . إنما (ن) ظلت معي وأمضيت معها وقتاً سعيداً على ما أتذكر» .

«أظن أن (ن) رائعة للمرة الأولى ، وستكون عادية في المرة الثانية : إنها لا تعرف كيف تمنح نفسها» .

«بالضبط ، هل ضاجعتها مرة؟» .

«لا . إلا أني أعرفها جيداً» .

«وتكذب في بعض الأحيان» .

«هذا لا يهمني . . إن جسدها هو الشيء الجميل فيها» .

«أما أنا فيهمني ألاّ تكذب . ترى كيف سأكون إذا كذبت ، أو تعلمت الكذب» .

«سيغضب النمر الصغير حتماً» .

وفعلاً بدأ النمر الصغير يزمجر بصوت غير مسموع . أما العنكبوت فقد ظهرت عليه أمارات الحزن وعاد الانطفاء إلى عينيه ، فتكور داخل بيته الغشائي ، أما الإنسان الذي برأس كلب فقد كان هو الجامد الوحيد في الغرفة .

«نسيت أن أسالك عن طائرك الأزرق . لم أعد أراه منذ أيام» ، قالت الفتاة .

«هاجر وسيأتي بعد يومين . وأعلمني أنه سيكتب مذكراته في أثناء وجوده في المهجر» .

«أظن أنه ثالثنا الحقيقي» .

«بكل تأكيد . أنت منشرحة الآن كما أعتقد» .

«بلى يا صديقي» .

«وهل تعتقدين أنك ستحافظين على هذا الوضع حتى الفجر القادم» .

«أحاول ، أو لا أحاول ، لا يهمني ، سأذهب بعد قليل إلى عملي في الدائرة» .

الآنسة (م) في الدائرة

(ملاحظة من الآنسة م)

تحضر بين يديَّ وأنتم تقرأونني الآن في الدوائر نكات عدة عن الملاحظات التي ملأ بها كتّاب علم النفس كتبهم . ذلك لأن هؤلاء الكتاب حاولوا جهدهم حشو ذهن القارىء بأشياء قذرة ، وأوهموه

بأن الدائرة في شكلها الهندسي ، إذا ما مرت في ذهن مراهق أو مراهقة ، فإنها تعني وجود حالة «شاذة» - على حد تعبيرهم- في سلوك المراهق أو المراهقة .

ويبدو لي أن صديقي ، الليل ، الذي دخل غرفتي توّاً سيضحك كثيراً من عقول أولئك الكتّاب والقراء ، الذين صاغتهم الكتب صياغة قذرة ومزعجة .

ومع ذلك فأنا حين أتحدث ضمن الدائرة عن الدائرة ، كما يريدني المؤلف ، أشعر بالعطف على القراء والنقاد واختصاصيي الأدب ، إذا ما فهموا الدوائر على غير حقيقتها ، إنها دوائر ، دوائر ، ودوائر فقط .

بعد ذلك يستطيع القراء الوثوق بأن الآنسة (م) قد انكبت على عملها بشكل اعتيادي كما تفعل كل يوم . وكانت الصفحات البيض التي أمامها على المنضدة قد اسودت ، فحملتها بنفسها إلى رئيس ملاحظي قسمها ووضعتها أمامه وانصرفت تنظر إلى هناء .

من مذكرات طائر الليل
(توطئة لا بد منها)

لقد علمت مؤخراً أن تسمية طائر الليل ليست عملاً من ذهني ، إنني لم أخترع هذا الاسم مطلقاً . فقد أورده شعراء وكتّاب كثيرون . إلا أن الذي أثار استغرابي ما قرأته مؤخراً عند أحد علماء

الآثار الذي كان قد سافر إلى القطب الجنوبي من (٢٠) سنة، فعثر على هيكل عظمي يبدو أنه يعود لطائر برأس إنسان. فازدادت همته في البحث والتنقيب حتى وجد بعض الهياكل العظمية في مكان يشبه الكرة المجوفة فيه (١١) هيكلاً لطيور برؤوس بشرية لها ذيول كذيول الأسماك تقريباً. وبعد جهد مضن استطاع عالم الآثار أن يقتنع شخصياً بأن ذلك الطائر، أي طائر اللّيل كما دعوناه، تزوج من إحدى الأسماك التي اعتادت العيش في الجليد، فكانت الهياكل التي وجدها في ذلك المكان الكروي المجوف هي بالتأكيد تمثل أحفاده. وأضاف العالم الأثري بأن تلك الهياكل لا تمثل كل السلالة الجديدة، إنما هي على وجه الدقة الآباء الكبار لهذه السلالة من الأحياء.

ولا يزال الرجل حتى هذه الأيام في منطقة القطب الجنوبي يبحث في مواضيع هذه السلالة. وقد وجد المذكرات التي نقتطع جزءاً منها في هذا البحث، تحت رأس طائر الليل بعد أن وضعت في صندوق زجاجي، وكتبت بالهيروغليفية.

«كتاب المحاضرات»
المؤلف: وليم بيرد
شارع ٢٦. الطرف الأغر. لندن

الأيام القادمة

(الأجزاء المقتطعة من مذكرات طائر الليل).

انتهيت أمس من طيران طويل ومتعب، وجئت إلى مدن الجليد أبحث عن الخلاص، بعد أن ضقت بعالم الليل والنهار

ودورانه . حسناً قد يفكر البعض قائلين : لمَ هذا الطيران المتعب؟

في هذه الحالة عليَّ أن أقبل أي صفة أطلقت عليّ . فما عدت أستطيع قبول مضايقات الليل لي ، وما عدت أطيق أن أكون الشاهد الثالث على بلايين الناس .

أنا الوحيد في مدن الأسماك والجليد التي بلا ذكور . ومنذ اللحظات الأولى لوصولي هنا عقدت الأسماك مؤتمراً استثنائياً قررت فيه أن أكون زوجاً لسمكة أو أُقتل .

ما بعد الأيام القادمة

انتهيت .

انتهيت الآن . . خبا توقي ، وغاب عني الليل ، وما عدت أرى الآنسة (م) ، وأصبح لي أولاد يطيرون في فضاء لا حدود له ولا نهايات لحافته . يسبحون في الجليد ، يكتبون الأشعار والقصص ، وألفوا اتحاداً للكتّاب في مدن الجليد ، واعتبروني عضو شرف فيه .

وفي أحد اجتماعاتهم الدورية التي تنعقد عندما يبلغ أحدهم سن الخلود ، طلبوا مني أن أتكلم لهم عن شيء لم يسمعوا به .

اعتذرت لأولادي الصغار أول الأمر ، إلا أنني رأيتها مناسبة ، وأمام إلحاحهم ، ألاّ أُجْرَح ، فحكيت لهم :

يا أولادي الصغار . . .

لا أدري متى حدث ذلك ، لكنني لا أزال أتذكر الأسماء . لي صديق اسمه الليل ، ولصديقي هذا صديقة اسمها (م) ، يلعبان في كل صباح لعبة مسلية لم نعد بحاجة إليها الآن . وعلى قدر ما لعبا هذه اللعبة فقد أدمناها نهائياً ، ليس لأنها على صواب أو خطأ بل لأنها كانت اللعبة التي فيها يمضيان زمنهما .

وعلى مر الزمن . اكتشف الليل ، كما اكتشفت الآنسة (م) بطلان هذه اللعبة ، إلا أنهما في النهاية قررا الاستمرار بها لأنهما لا يستطيعان إلا القيام بها . وهذا ما عذبهما كثيراً .

وذات يوم قالت الآنسة (م) :

«ماذا نفعل؟»

قال صديقها : «نعم؟» .

قالت م : «ماذا نفعل؟» .

قال صديقها : «نعم؟»

قالت م : «ماذا نفعل؟» .

قال الليل : «نعم؟» .

قالت م : ماذا نفعل؟

قال الليل : «لَعَمْ؟» .

واستمرا يمارسان لعبة الجنس ، والأسئلة ، مثلما أمارس أنا الآن أمامكم حكاية التاريخ القديم ، بعد أن مارست الزواج والإنجاب .

لعبة مسلية . . أليست كذلك؟

سجن الحلّة المركزي

حزيران ١٩٦٧

قَصرهجيدخ

قراطيس السَّكران مايَهْ بِنْ بُوذخْشَبان بِنْ دَه دَيْره السَّكرانْ

١ . قرْطاسُ الألِف ونُقْطَة باء البَسْمَلَة

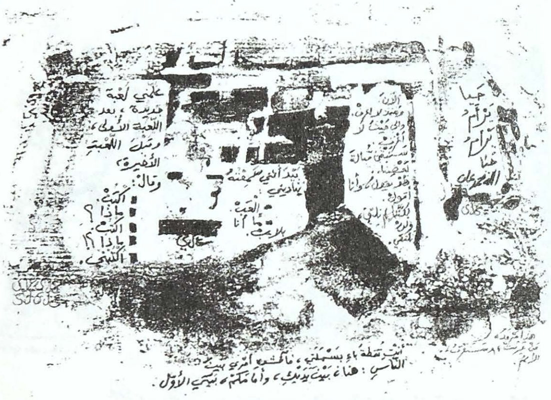

٢. قِرطاسُ عَيْنِ الأَلِفِ ولامه ويائه

٣ ـ قِرْطاسُ المحبّةِ بَعْدَ اكْتِمالِ الوصال

٤ ـ قِرْطاسُ الأُخْذَةِ المَيسانيّة

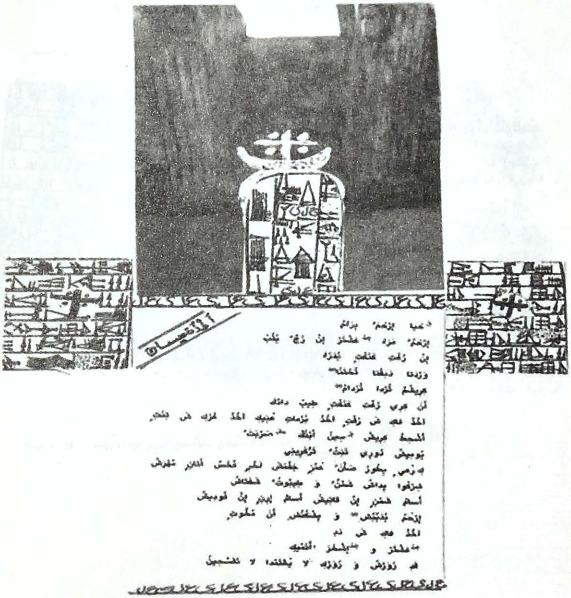

٥ ـ قِرْطاسُ إشْخَرَ المقدَّسةِ ذاتِ الأسماءِ الحُسْنى والحُرّاسِ الكِرام

أنا إشخر، دليلك الى العالم السفلي، أقول
بعث بي مردوخ اليك، وقال: هو ذا روحي، روحي بين
يديك يا إشخر
وأنا بين يديك يا ابن الانسان، أقول لك:
اشرب
ـ ما أنا بشارب
وسمعت صوتها يقول: انظر الى حيث الرسم الذي
فوق هذي الكلمات: هنا يرقد من ليس له أم ولا
أب ولا ولد.
نظرتُ. رأيت نفسي مقسوماً نفسين من
اليمين والشمال، وبين اليمين والشمال، أسلمها الذي
أنت فيه، ومقبل هذا وبعده، بقايا من كان وحيداً لا
أنيس له في وحدته، فلما عرف أنه وحيد ولا أب
ولا أم ولا ولد له، أطلقني اليك لأقول لك: لا أحد قبلك
ولا بعدك، فلا تقرأ الآن سوى هذا القرطاس، [illegible]
ولا أحد سواك في هذا العماء. أنا العماء.

بغداد ـ ١٩٧٠

هذه أسئلة تشغلني . لأن كل الوحش رهن كالأثرة
في نوع من الضباب البعيد عن يقين مشبع بمعنى الشفقة
فيه كثير ؟ . وربما تكون الأحلام القديمة
هي الأحلام التي تكون في الشكل ما نصنا المخفون
شكل أكيد . إن أكثرها ليس هو الشكل أو الحيز
بقدر ما هو الطمأنينة كذلك . وهذه الأشكال
هي التي تعطي شكل الأشياء والعلاقات وتقديمها
مختلطة كأنها تطل علينا من زمن بعيد . إني
أرى هذا لأن اللغة الحالية خائنة ومغرورة
وفقدت قدرتها على التعبير . فهل تستطيع
نقل كلمات الزمن إلا من خلال الأشكال
الغريبة - ترى هل تأمل على ترجمة ما أريد
قوله عن هذه الأشكال ؟
ح . اللامي .

وَطَنٌ

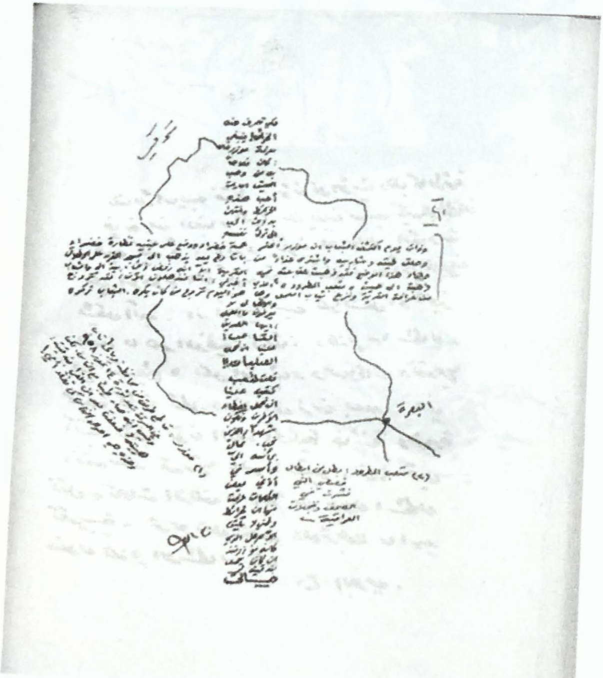

حرٌّ

شَعْبٌ

سَعِيدٌ

سجن الحلة المركزي - ١٩٦٧

من قتل حكمة الشامي... ؟!

١ ـ التعريف الأول

قال أبوه ، التقيت بأمه التي كانت تحلم به آنئذ ، عند ضفة دجلة اليسرى التي تنساب بتعرج ابتداءً من جنوب الكوت ولم أكن أعرفها ، كما أعرفها الآن ، غير أنها قالت : «ماء تريد أم لبناً؟» .

«واسمك يا ابنة العم؟» .

«فرحة» .

«والخرج هذا . . ما به؟» .

«سعد أبيعه للعذارى . . وحناء أحتفظ بها لمن يهبني ولداً» .

قلت لها بعد أن كبر حكمة الشامي(بالمناسبة عزيزي القارئ فهذا الاسم قد لا يعني عندك شيئاً ، إلا أنه يسير منذ عشرات السنين في شوارع المدينة ، يبحث في قبور الموتى وبيده شمعة) والآن يا ابنة العم ها إن حكمة قد صار رجلاً ، فالزغب اسودّ على شفته العليا فهلاّ زوجناه . فقالت وهي تنتظر عودته على «جواد القاسم» إنها تخاف الكلام ، فقد عاشت البارحة حلماً كريهاً ، لقد أحب حكمة الشامي «ونسة» ابنة صياد السمك «خريبط المنتوف» الذي يجاورهم آنذاك ، ولما دخل غرفتها جذبته خلفها وشدت ساعديه بضفائرها ، ثم ذبحته من خلف رقبته كما ذبحوا الحسين .

«كان الحلم مخيفاً» ، قال أبوه ، غير أنه لم يعره انتباهاً واستمر يحدّث زوجته الواقفة قرب خصّ النافذة تنتظر وليدها الذي غاب عندما عضته ونسة من لسانه فسال دمها حتى قلبه .

١ . الصوت السرّي

باسم الذي به أؤمن ، أتحدث . ما عندي لكم إلا الماضي أحكيه سطوراً ، كفاجعة ، عن رجل أحب امرأة وذاب فيها فكان جزاؤه القتل . طفلاً كان إلاّ أنه ليس كالأطفال ، على جبينه غرة بيضاء يهتدي بنورها المسافرون في تطواف الليالي الملأى بالزمهرير والحالوب . وهو الصادق في عشيرته الأمين لأهل بيته ، أحبهم كما نفسه ورآهم كما رآها .

وفي رجولته المبكرة أحب كل الناس بموجب دين الحب الجديد ، فلبس لبوس الرهبان وغدا كتاباً يقرأه الناس الذين يتساءلون عن هذا الدين الجديد .

اسمعوه من قبره الذي لا مكان له :

«ما عندي لكم إلا غصن زيتون وحبة قمح .

الأرض أمُّنا فلنخلص لها ما وسعنا الإخلاص .

اتبعوني أقدم لكم السلام والحب» .

يا قتلة حكمة الشامي أينما كنتم : قار على جباهكم يظل يزهر أزهار الموت والخوف ،

وستلد نساؤكم أولاد زنى في كل ليلة ، ويجف ماء الحياة في ظهوركم .

يا عشيرة «ونسة» : الفلُّ في الطرفات يزهر ، كلما حل فيها أثر من خطى حكمة الشامي ،

وكلمات الحب تنمو أشجاراً باسقات تطاول أعناق السحاب ، عند كل حارة قال فيها حكمة الشامي كلمته .

إني أحمل لكم رسالة يوم الخلاص : سيثور الماء الطوفان من تحت أبوابكم السرية ، وستهجم عليكم الفئران ذات صباح ، ثم تصبحون كالعهن المنفوش .

٢. حفلة التأبين

أيها الرفاق . . .

نجتمع اليوم من أجل استعادة ذكرى حادث جللٍ . ففي مثل هذا اليوم قبل سنة انتحر حكمة الشامي . كان مؤمناً ، عرف دين الحب . . (يتوقف الخطيب هنيهة فيحدث بين صفوف المستمعين هرج خفيف ثم يشتد وتتحول قاعة الاجتماع إلى صخب حاد . . أحد المستمعين يطلب الكلام ، ثم ينطلق في حديثه) :

أيها الرفاق :

في الليل أسمع الصوت السري يحذرنا من النتيجة المقبلة ، فنحن وعشيرة ونسة أبناء حارة واحدة ، بل إننا نحن آل ونسة الحقيقيون ، فهي قد تربّت على ضوء أفكارنا وما كنا نلقنها من تعاليم الدين الجديد . (تُسمع أصوات معارضة ومهددة . . إلا أن الرجل يستمر في كلمته) . . .

أيها الرفاق :

سأضع المسألة أمامكم بشكل واضح : «ونسة» هي النتاج الفاضح لسلوكنا العقلي . هي النموذج الأفضل لنا . لقد قرأت ما قرأنا ، ثم تعلمت شيئاً توارثناه من السلف : أن نقول ما لا نبطن .

فمن هو القاتل إذن؟

(ينظر إلى المستمعين الذين بدأوا يهدأون، ثم ينزع جبة رجل الدين التي يرتديها ويبدأ حديثه بهدوء) :

كان فتاناً غير أننا قتلناه. جاء إلينا من أقاصي الجنوب وغرته مصباح منير أضاء ليلنا الموحش (وفجأة ينفجر غاضباً) : أيها القتلة.. الصوت السري منذ سنة يتحدث لسكان الحارة، أفما آن لكم أن تعفروا جباهكم بأوحال الأرض؟ ها أنا أنزع ملابس الرهبنة.. فالويل لكم (يخرج من بين صفوف الجالسين فيما هو ينزع ملابسه قطعة بعد أخرى..).

... ويكمل الخطيب كلمة التأبين.

ومات وهو على دين الأجداد. لم تقتله «ونسة» فهي راهبة الحب.

كانت ونسة تحبه بالطريقة التي سمحت لها أن تجعله ينتحر من أجلها.. اعرفوا هذه الحقيقة. لقد مات حكمة الشامي من أجلنا.. قولوا هذه الكلمات لكل الناس واجعلوا من موته قضية لكسبنا القادم.

(يصمت لحظة ثم يواصل حديثه) :

«هل من مقترحات؟».

أصوات :

صوت (١) : ماذا نقول لأنفسنا..؟

صوت (٢) : أقيموا له مسجداً هنا.

صوت (٣) صار قضية.. صار قضية..!

صوت (٤) اجمعوا ما كتب في كتاب.

صوت (٥) : آهم.. أنا.. آهم أقول.. آه.. يا حكمة

الشامي . . يا . . آ . . آ .

صوت الخطيب : والآن لنمارس طقس البكاء المعتاد .

«يبدأ الصراخ والعويل» . .

و(يسمع الصوت السري يعلو فوق لجة البكاء الطقوسي) :

. . «يجف ماء الحياة في ظهوركم . .

والماء سيتحول إلى أحماض في حلوقكم . .

أشجاركم لا تثمر . .

ستفتح القبور السرية مغالقها ذات يوم وتتجه نحوكم . .

أيها القتلة . . أيها القتلة . .» .

٣. التعريف الثاني

منكوبة أنا منذ مولده الأول . . ثدياي ما عادا يشخبان إلا الدم والصديد ، وصوتي قد بحّ من الأنين . . كان ولدي الذي كنت أنتظر . بعت السِّعد والحنّاء والدَيرَم من أجل أن أراه شاباً فقيهاً يظلل غربتي بفيء من حنانه .

قالت عرافة القرية ، رسليّة المطوّعة ، يا فرحة ستلدين طفلاً يصلب على خشبة من يحب . . تفقأ عيناه . . يقطع لسانه . . ثم يذبح من الرقبة كما ذبح أبو عبد الله ، فقلت لها ها هو قد كبر الآن وصار رجلاً ورأيت أن ونسة بنيّة المنتوف ، تشد وثاقه بضفائرها الطويلة ، غير أنه كان يبتسم عندما أنهاه عنها ، وظل يقول لي : الموت نهاية المسافة التي لا بد لي من قطعها مهما كان الثمن ، وأريدك يا أماه أن تعرفي جيداً أن في ونسة ثعباناً طوله كطول أفعاه ينام معها في الليل على فراش واحد ويضاجعها في كل ليلة فصار دمها من مَنِي ذلك الثعبان (هي جميلة وأنا أعرف ذلك يا ولدي) ولها نعومته وسر انسيابه ، ولا بد لي من تخليصها من سمه لا بد

من قتل ذلك الثعبان ـ الشيطان .

قالت رسليّة : يا فرحة كوني عاقلة ما هو مكتوب لا يمكن أن يُردّ . إن معجزة ستحدث بعد سنين . . تقول النجوم إن الثعبان حتى يتمّ طرده من دم ونسة لا بد له من ضحية .

قال أبوه : الثعبان ينام معها تحت جلدها وفي جوف عظامها ، وبنى عشّه في رحمها ، ويضاجعها في الليل على فراش واحد ، فكيف يخلصها منه؟ .

قال حكمة لونسة : في عيني انظري ، وهاك لساني امتصي منه دماً يقتل الثعبان الذي ستكونينه بعد سنين قليلة ، فقبلته من شفتيه ومصت لسانه فبدأ ينزف دم قلبه حتى انهارت قواه . وبعدها شدت وثاقه بضفيرتها .

قالت عرافة مدينة العمارة : النجوم يا فرحة لا تكذب . الضحية هو حكمة الشامي ، وسيخرج رجال من قوم ونسة يكذبون الدين القديم ، ويقلبون الأرض سافلها عاليها وعندها ستكونين أُمّاً لنبي . وتظل ونسة تعانق الرجال بعد موت حكمة الشامي ، وتمتص دماءهم وتأكل لحمهم حتى تموت في يوم ما على سريرها مع رجل .

٤. النذير

القرية أرض خراب ، واليوم هو ذكرى القتل والموت . . كان الرجال بعيون غير أنهم لا يبصرون . . وبآذان غير أنهم لا يسمعون . ومرت الأيام قاحلة ضنينة وجاء إلى العالم من يخلصه من عبوديته القديمة ، فمات على صليب من أحب . . أيها الذين تعرفون الجوانب الأخرى من هذه القضية ، طهروا نفوسكم وانقلبوا على تقاليد الدين المتوارث «وآن لخيل الله أن تركب» وآن للرهبنة أن تزول .

٥. حوار غير منتهٍ.. في سوق الحارة

«من القاتل؟» .

«أريد أن أشرب حتى يتعتعني السكر» .

«من القاتل .؟» .

«امرأتي ستلد طفلاً هذا المساء» .

«من القاتل .؟» .

« . . . . »

«من .؟» .

«قوادة جديدة وفدت إلى الحي» .

«من .» .

«ونسة تبيع جسدها . .» .

«أريد أن أنام . تعبان . تعبان» .

(تختلط الأصوات ، ورغم الضجة يظل السوق هادئاً ، وكانت الظهيرة تحتضر ، وأم حكمة الشامي تكشف عن صدرها عند الشريعة ، ووسط الأتربة والغبار وصل الشحاذ زيارة الهيمان إلى

سوق الماجدية الكبير ، ووقف على دكة قرب دكان حلاق الحارة ماجد أبو الرهاويل وصرخ) :

– رأيته أمس على جواد القاسم يحمل رأسه المذبوح ، فقال قل لقومي .

(وهنا علت الضجة في السوق) .

فصرخ بائع الباذنجان برهان الفيلي :

«أسود وعمامته خضراء» .

وصاح بائع الرقّي عمران بن سوزة :

«أحمر يا رمان ديالى» .

فصاح الشحاذ :

«من القاتل؟» .

وقال رجل لمرافقه :

«دعنا من السوق ولنذهب إلى ونسة» . .

صرخ الشحاذ زيارة مرة ثانية :

«من قتل حكمة الشامي؟» .

هدأت الضجة فجأة ، بغير ما وعي ، وكان الشحاذ الهيمان على دكة دكان الحلاق يردد صارخاً :

«من القاتل . . ؟ من القاتل . . .؟» ، بينما تردد في فضاء المحلة صدى صوت (الصوت السري) مختلطا بصراخ الشحاذ زيارة الهيمان :

«من قتل حكمة الشامي . .؟» .

سجن الحلة المركزي

(١٩٦٧)

جمعة اللامي

(جمعة عجيل درويش الراشد اللامي الطائي)

- روائي وقاص عراقي . نشر أعماله الأدبية في الصحف والمجلات العربية منذ سنة ١٩٦٥ ؛ وجرى تكريمه بجوائز إبداعية راقية في مجالات القصة والرواية ، وترجم الكثير من أعماله الأدبية إلى عدد من اللغات الأجنبية ؛ من بينها : الإنجليزية ؛ الفرنسية ؛ الألمانية ؛ والروسية .
- نشر أعماله الأدبية بالصحافة العراقية والعربية والأجنبية منذ سنة ١٩٦٥ .
- مقيم بدولة الإمارات العربية المتحدة منذ سنة ١٩٧٩ .

جوائز أدبية

- الجائزة الأولى في ميدان القصة القصيرة ، في احتفالية المؤتمر الأول للكتاب الشباب العرب ، الذي عقد ببغداد سنة ١٩٧٧ .
- جائزة السلطان قابوس للإبداع الثقافي ـ مجال القصة القصيرة ، سنة ٢٠٠٦ .
- قلادة بغداد للإبداع ـ القصة والرواية ٢٠١١ .
- جائزة العنقاء الذهبية الدولية / مجال الرواية سنة ٢٠٠٧ .
- عضو لجنة الحكم / جائزة الرواية العربية ـ ملتقى أصيلة الدولي ـ المغرب .

شهادات ثقافية ـ أدبية

- محكم في مجال القصة القصيرة / مجلة العربي الكويتية ٢٠٠٨ .
- محكم في مجال القصة القصيرة / هيئة الإذاعة البريطانية ـ لندن .
- خبير ثقافي بمركز زايد للتنسيق والمتابعة ـ أبو ظبي .
- شهادات تقدير خاصة ـ دائرة الثقافة والإعلام ـ إمارة الشارقة .
- الخبير الثقافي لدائرة الثقافة والإعلام / إمارة عجمان .
- شهادة تقدير خاصة ـ دائرة الثقافة والإعلام ـ إمارة الفجيرة ـ هيئة الإذاعة البريطانية .
- أسبوع احتفالي خاص بمنجزي الروائي ـ الجمعية الجاحظية ـ جريدة الخبر / الجزائر .
- تكريم خاص لمناسبة الذكرى الثانية والأربعين بعد المائة الأولى لعيد الصحافة العراقية .
- وسام الجواهري ـ اتحاد أدباء وكتاب العراق ـ بغداد .
- لوح الإبداع ـ اتحاد أدباء وكتاب العراق ـ بغداد .
- لوح الإبداع في مجال القصة والرواية ـ جمعية الثقافة للجميع ـ بغداد .
- لوح الإبداع في مجال الرواية ـ الملتقى التأسيسي الأول للرواية العراقية ـ البصرة .
- شهادة تقدير خاصة ـ اتحاد أدباء وكتاب البصرة ـ جامعة البصرة .
- درع خاص ـ دائرة الثقافة والفنون ـ وزارة الثقافة / بغداد .
- لوح مؤسسة المستقبل العراقي للصحافة والنشر ـ بغداد .

الأعمال الأدبية

١ـ من قتل حكمة الشامي	مجموعة قصص قصيرة
٢ ـ اليشن	مجموعة قصص قصيرة
٣ ـ الثلاثيات	مجموعة قصص قصيرة
٤ ـ التراجيديا العراقية	مختارات
٥ ـ المقامة اللامية	رواية
٦ ـ مجنون زينب	رواية
٧ ـ عيون زينب	رواية
٨ ـ الثلاثية الأولى	رواية
٩ ـ على الدرب	قصص قصيرة ((إعداد))
١٠ ـ عبد الله بن فرات	نصوص
١١ ـ أشواق السيدة البابلية	نصوص
١٢ ـ الحرية والثقافة	نصوص في حرية الضمير

١٣ ـ الأعمال القصصية الأولى

١٤ ـ الأعمال الروائية الأولى

١٦ ـ ابن ميسان في عزلته ـ شعر

١٧ ـ ذاكرة المستقبل ـ الحرية والثقافة

١٨ ـ ذاكرة المستقبل ـ مقابسات الشارقة

١٩ ـ دفتر الشارقة – ١ : ابن ميسان في عزلته . . . نصوص شعرية .

٢٠ ـ دفتر الشارقة – ٢ : مدينة الحكمة ؛ بوابة الكلمة . . . يوميات ثقافية في شخصية المكان .

٢١ ـ كتاب الكائنات : التاريخ الشخصي للشجعان والقتلة .

كتب وبحوث

٢٢ ـ زايد : حلم مـأرب : دراسـة ثقـافـيـة ـ تاريخـيـة في الشخصية العربية .

٢٣ ـ الإبل في الإمارات العربية المتحدة : دراسة ثقافية ـ تاريخية ـ أدبية انثروبولوجية .

٢٤ ـ المسألة الفلاحية في العراق : بحث في الاقتصاد السياسي للريف العراقي .

٢٥ ـ قضية ثورة : الصراع والوحدة في منظمة التحرير الفلسطينية .

مراكز صحافية واعلامية

- نائب رئيس تحرير مجلة (وعي العمال) ـ بغداد .
- مدير تحرير مجلة (ألف باء) بغداد .
- المدير العام ـ دار بابل للصحافة والنشر والخدمات الثقافية ـ قبرص .
- رئيس تحرير مجلة (ميسان) ـ قبرص .
- نائب مدير إدارة الأخبار للمؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون ـ بغداد .
- مسؤول الديسك المركزي بجريدة الاتحاد ـ أبو ظبي .
- مدير التحرير المناوب / جريدة الخليج الإماراتية / ١٩٨٠- ١٩٨٦ .
- كاتب عمود يومي متفرغ / جريدة الخليج الإماراتية / ١٩٨٠ ـ ٢٠٠٩ .
- متفرغ في الوقت الحالي .

تمت المراجعة الأخيرة لهذا للكتاب
في مدينة خليفة الطبية ومستشفى القاسمي

تمّ طباعة هذا الكتاب في ٣١ مارس / آذار سنة ٢٠١٥

الفهرست

إهداء	5
إشارة	9
بيان أليشن	10
حفريات شخصية	11
فليفلة والسروط : قصة حب ميسانية	
تجاريب سردية	31
* مقال	33
* رسالة	35
* صورة	36
* حديث	37
* مقاصة	41
* مقابسة	43
* خبر	46
المتون	49
آدم وإيف	51
مريوم	55
مظلة السيدة بينلوبي	59
حانة الآنسة شكيلا	61
الحرب	66
تاريخ العار في بلاد النفطتار	69
(برواية سلطان الخالدي الشهير بـ «نزيل الجلالي»)	

الطربوش 89
الزرقاء دنيا زاد 93
حكاية الكاعب الحسناء والمولى العاقب محمد الكاتب
يحدث في الإسطبل الملكي 113
الفرقان في قرآن فليفلة والسكران 118

مقامات السنسول 135
* رشيدة خاتون 137
* غريب المتروك 139
* نافذة الله 142
* مرجان . . . وحكاية فاتك الفرحان 144
* الحمامة 148
* بلبل سرنديب 151
* العبور 153
* سماء البجار 155
* الكيرالي 157
* أم عيسى 159
* طاولة الحصا 161
* جمعة بن شمس 163
* حانة الليلاك 166
* البنجلوري 168
* الفقير 170
* السيدة شيقا 172
* صديقتي ديفي العجوز 175
الشيصباني وتابعه إبن قرقرة القرواتي 179

أُغنية الأخرس 211

كاغد المطارحات 215
تسع وتسعون قصة وقصة 215
مطارحات نادر وماهر عند شجرة التين 217
منان بن موحة المكندحة يبارز لازار البرتكيشي
عند خويط السلطان 231
السقاء الذي لا يزال في حلمه الأبيد 251
السيرة العربية لمولانا جلال الدين الهاشمي
المنتظر 266

ملحق 269
أبولينير القصة القصيرة 271
الليل في غرفة الآنسة «م» 273

قصر هجيدخ 285
وثائق الوحشس 292
من قتل حكمة الشامي 297

جمعة اللامي 305
الفهرست 311

اليشنيون

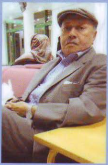

كان دجلة غاضبًا في ذلك اليوم، ثمّ تحوّل غضبه إلى ثورة عارمة عندما انتهى القوم من صلاة العصر. توجّس الشيخ ماجد خيفةً، وعادت إلى ذاكرته أسطورة «عبيد الشطّ» الّذي يعيش تحت جسر نهر الكحلاء. لكنّ غناء السيّد محمّد، الّذي يَفطر القلب ويُفطّر الصائمِ في رمضان، كما يقول أهل العمارة، جعل الشيخ ماجد والناس لا يعيرون بالاً للنهر الهائج.

وحين أخذ غرير يجعر، بصوته الخشن الّذي يشبه خوار ثور في أوج هياجه الجنسيّ، كما وصفه أهل العمارة، ثمّ هزّه الطرب فنسي نفسه ومزّق دشداشته ورمى بعقاله وغترته إلى الأرض، ثمّ أخذ يضرب رأسه الأصلع بالطبل، خشبةً بعد خشبةٍ حتّى تكسّرت جميعها.

توقّفت عينا فليفلة تحدّقان بقامة عريسها المنبهر، وحدّقت كذلك وبإمعان في صاحب تلك القامة المديدة، بقناعه الأسود، الّذي يقف بجانب عريسها. كانت مشاعرها مزيجًا من الغبطة والحسرة والحيرة والفزع، فقد كانت ترى في النهر الثائر ما يوجبّ عليها أن تكون حذرة ويقظى، عندما تقود قاربها الّذي يشبه هلالاً في يومه الثالث، لتصل إلى نقطة الصفر في وسط النهر، بجوار العبّارة، للقاء عريسها الّذي سيتقدّم بقاربه وحيدًا نحوها من الجهة اليسرى للنهر. كان المشهد مرعبًا في جماله وفرادته حين تقدّمت فليفلة نحو العبّارة، بينما كان فيصل يتقدّة أيضا نحوها.

وأخبرني جمعة اللامي أنّ جدّه راشد العون شاهد فحلِ جاموس أسود الشعر يقود قطيعًا من هذه الجواميس المعمّرة ذوات القرون الطويلة العائدة إلى قبيلة المعدان الّتي تجاور بني لام، في قتال شرس مع المياه الهائجة، للنجاة بنفسه وقطيعه، ويتوجّه نحو العبّارة. لكنّ الماء الثائر كان أقوى منه، وألقى به قبالة العروسين اللّذين التقيا كما أرادت فليفلة.

ISBN 978-614-419-548-2
9 786144 195482

46 عامًا في خدمة الثقافة العربية
المؤسّسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصيطبة، بناية النجوم، ص.ب: 5460-11 ؛ 1107-2190
هاتفاكس 00961 1 707891/2
http://www.airpbooks.com